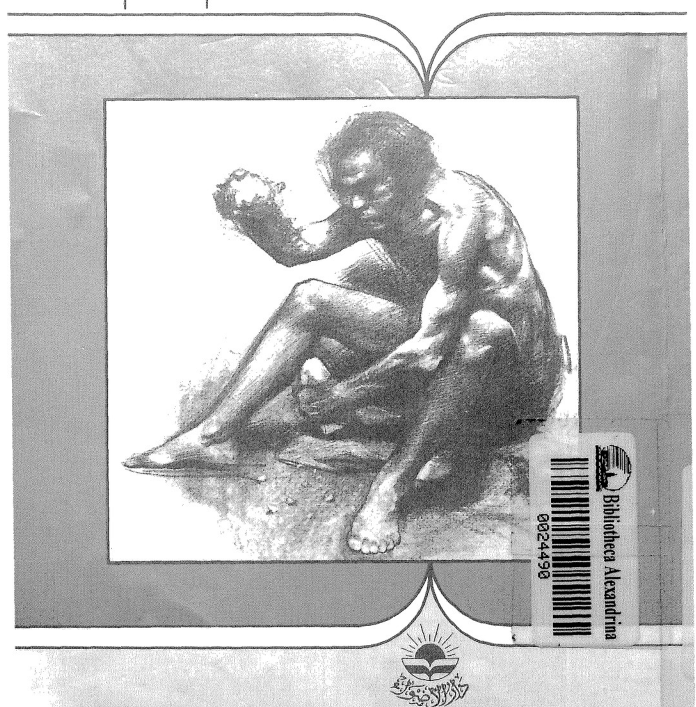
د. طالب الجنابي

نظرية التطور الداروينية

خرافة باسم العلم



نظرية التطور الداروينية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع دكاش - ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقياً: غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان .

نظرية التطور الداروينية

خرافة باسم العلم

تأليف

الدكتور طالب الجنابي




بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء :

الى شباب الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة المؤلف

منذ اكثر من قرن من الزمان ومفهوم التطور يسيطر على عقول العلماء والناس العاديين ، خاصة في مجتمعاتنا الحاضرة، وبالنسبة للبعض فان التطور حقيقة لا جدال فيها وقد وجدت المادية المعاصرة سندها القوي في المفاهيم التي تطرحها فكرة التطور . ونتيجة لذلك فان المادية انتشرت وسيطرت على سلوك المجتمعات الحديثة ، جالبة معها الوثنية القديمة باطار جديد مغلف بقناع العلم . وقد ساعد في ذلك عجز الكنيسة الغربية في الدفاع عن نفسها وعن مفاهيمها بسبب تعارض هذه المعتقدات مع الاكتشافات العلمية ، خاصة في حقول الفيزياء والفلك والاحياء ، وسهولة برهان خطأ هذه المعتقدات فلسفياً .

لقد أنجز علماء الأحياء عملاً ضخماً لفائدة البشرية . ومن المعلوم فان التعامل مع الكائنات الحية أصعب بكثير من التعامل مع الموجودات المادية ، ولذا فان عمل هؤلاء العلماء لم يكن سهلاً أبداً ، ولا يمكن لأحد أن يستصغر أو يستهين بالاكتشافات العظيمة لهؤلاء العلماء ، ولكن عندما تصل المسألة الى طرح فكرة التطور فان الموضوع يصبح قضية أخرى تخرج عن اطار العلمية ، وتدخل في اطار آخر لا علاقة له بعلم الاحياء ، وذلك لأنه استقراء فلسفي ، وبذلك

فانه يدخل في مجال الفلسفة . ولذا يمكن التعامل معه على هذا الأساس .

وعند تمحيص الآراء والأدلة المطروحة من قبل التطوريين تبين لنا أن الوضع يختلف اختلافاً جوهرياً عما هو شائع ، وعما يريد هؤلاء العلماء لنا أن نعتقد . فالأدلة العلمية قليلة ومبعثرة ولا يمكن بأي حال من الأحوال بناء نظرية معقدة كأصل الحياة عليها . ونتيجة لذلك فان الذين يؤمنون بالتطور تعثروا كثيراً بطرح نظريات خاطئة ثم تخلوا عنها بمرور الزمن . وليس هناك اتفاق بين العلماء على نظرية واحدة الى يومنا هذا ، كما أنه لا توجد نظرية تمتلك سنداً فلسفياً كافياً . وفي الواقع فان التطور أصبح مجرد اعتقاد ، فأما أن تؤمن به أو لا تؤمن وبالنسبة لأولئك الذين يعتقدون به فانهم (وكما سنرى) يؤمنون بهذه الفكرة ويبحثون عن أدلة لتبريرها وليس العكس (أي ايجاد الأدلة التي تكشف أن فكرة التطور هي الواقع) كما هي الحالة مع الاكتشافات العلمية في حقول العلم الأخرى .

كذلك فان نظريات التطور في تفسير أصل الحياة لا تمتلك أي دليل علمي لاسنادها على الاطلاق ، ولا تتعدى أن تكون مجرد استقراء مبني على أساس أن فكرة التطور صحيحة ، ومنها يرجع العلماء الى الوراء لطرح بعض الآراء على هذا الأساس .

لقد شُيِّد مفهوم التطور على فكرتين ، الأولى هي وجود التشابه بين الكائنات الحية ، والثانية أن بعض الأحياء انقرضت ولذا فان احياءاً أخرى بالضرورة قد ولدت . إلا أنه لا تتوفر أدلة تسند فكرة ولادة هذه الأحياء الأخرى . وعندما حاول التطوريون تطبيق نظرياتهم على الانسان جابهوا صعوبات خاصة ، فالأدلة بينت ان الانسان ظهر فجأة على الأرض ، وان انسان النياندرتال الذي كان يُعتقد أنه من فصيلة القرود اتضح انه انسان من نوع آخر ظهر على الأرض وانقرض بنفس هيئته ودون أي تغيير أو تطور مزعوم ، وليس هناك أي علاقة بينه وبين الانسان الحديث . ومشكلة الانسان كانت أكثر

استعصاءاً على التطوريين عندما حاولوا تفسير قابلياته العقلية التي فاقت كل متطلباته للبقاء ، ويتضح أن فكرة التطور قد طُرحت على عجل ، وبدون تمحيص للتعقيدات والتبعات الفلسفية التي تصحبها ، ذلك لو أن أي من الكائنات الحية يتم تمحيصها بعناية ، فان الصعوبات التي سوف تُواجَه هي نفسها كتلك التي واجهها التطوريون مع الانسان .

وهناك مسألة أخرى لم تأخذها نظريات التطور بنظر الاعتبار ، وهي المسألة التي تخص المعلومات التي يحتاجها الكائن الحي لكي يتمكن من أداء وظائفه ، والتي تمثل الفرق ، كل الفرق ، بين الحياة والمادة ، وبدلاً من ذلك فان التطوريين نظروا الى الكائن الحي وكأنه نظام مادي فقط . وكان هذا أضعف ركيزة استندت عليها النظرية . فعند النظر بعناية الى الموضوع وجدنا انه حتى الخلية الحية الأولى المزعومة ، والتي يقولون أنها انبثقت بطريقة الصدفة ، احتاجت الى كمية كبيرة من المعلومات المعقدة لكي تصبح حية ، وانه لمن الصعوبة بمكان تصور امكانية اجتماع هذه المعرفة المعقدة بنفس الوقت بطريقة الصدفة . وقد بين التحليل (المطروح في الكتاب) أن التطور مفهوم يناقض نفسه بنفسه ، وان هناك تفاسير أخرى لأصل الحياة أكثر منطقية من التطور . والأدلة العلمية الحديثة بينت أن الإنسان ليس مجرد مادة ، وأن الروح موجودة ، وأن الخلق بواسطة الله تعالى هو التفسير الوحيد المعقول والذي لا يتناقض مع الأدلة العلمية . واذا حررنا بعض المفاهيم من المعتقدات المسيحية الخاطئة فانه بالامكان اعطاء تفاسير صحيحة ومنطقية لكثير منها ، مثل مفهوم العدل الالهي ومعنى العبودية لله واحقيّة الجنة والنار ، وتتلاشىٰ عند ذلك التناقضات التي يجدها المفكرون الغربيون في المعتقدات المسيحية التي كانت السبب الرئيسي وراء تخليهم عن فكرة الله واللهث وراء فكرة التطور لتفسير اصل الحياة .

وقد أشار الفلاسفة الالهيون الأوربيون الى أن الله لا يخضع للزمن . ولكن بالرغم من ذلك فانهم لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من اطار الزمن عند

التكلم عن الله . هذا ، وبالاضافة الى عجزهم عن توضيح فكرة أن الله لا يخضع الى ما يَخْلُق وأحد المخلوقات هو القانون ، فان ذلك مكّن الفلاسفة الماديون من أن يجدوا نقاط ضعف في الفلسفة الالهية (التي تؤمن بالله) والتي استطاعوا أن ينتقدوها بكل قوة . كذلك فان الفلاسفة الالهيون ، بالرغم من محاولتهم تفسير أصل الروح فانهم لم ينجحوا في ذلك ، خاصة عندما تأتي القضية الى تفسير كيفية امتزاج روحَيْ كل من الحيمن والبويضة لتكوين روح واحدة وليس روحين . لذا فانهم قالوا بأن الروح تدخل الجسم بعد تكوين الجنين مما دعا (برتراند رسل) الى القول أن ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا ، ذلك أن الزاني يضع الحيمن عند البويضة ، ثم يأتي الله ليضع الروح في الجنين الحرام ، حسب زعمه . وهذا يبين الى أي حد وصل الفلاسفة الأوربيون في تخبطهم وخلطهم بين المفاهيم الالهية الحقيقية وبين المفاهيم الدخيلة . و (رسل) هذا الذي ينتقد كون الروح تأتي بعد تكوين الجنين يحاول أن يضع نظريته في تفسير العلاقة بين الروح والمادة فيقول أن المادة والعقل عبارة عن نوعين من الظواهر تُبنىٰ من شيء ثالث أكثر أساسية من كليهما . وهو في الواقع لم يضع نظرية جديدة وإنما قال ما قاله اولئك الذين انتقدهم ولكن بصورة مختلفة . وعلى كل حال فان كلتا النظريتين ، نظرية الفلاسفة الالهيين ونظرية (رسل)• لا تفسران كيفية نضوح العقل عند الانسان مع تقدم العمر من الطفولة حتى البلوغ بالرغم من أن الانسان يُدخل الى جسمه المادة فقط على شكل غذاء . ونظرية (رسل) لا تستطيع تفسير كيفية امتزاج الظواهر المكوِّنة للعقل (أو الروح) عند كل من الحيمن والبويضة لتكوين عقل واحد عند الجنين وليس عقلين .

والواقع ان النظرية الوحيدة التي بامكانها تفسير العلاقة الوثيقة بين الروح والجسم (اي العقل والمادة) هي نظرية الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي . ومن خلال هذه النظرية فان تفسيراً مبسطاً يمكن الحصول

عليه لكيفية امتزاج روحَيْ كل من الحيمن والبويضة ، وكيفية نضوج العقل عند الانسان مع مرور الزمن ، والى الوجود المتصل بين المادة والعقل والأنواع الأخرى من مستويات الوجود المحتمل وجودها .

لقد حاولت في هذا الكتاب الاجابة على بعض الاسئلة التي دأب على طرحها الماديون ، والتي عندما لم يستطيعوا الإجابة عليها قالوا بأن الله ليس موجوداً . وصعوبة الإجابة على هذه الاسئلة كانت في نظري ، مسؤولة جزئياً عن تخلي الملحدين عن فكرة الله واللهث وراء نظريات التطور . ولذا كان لا بد من التطرق اليها لاتمام البحث ، فبعد توضيح خرافة فكرة التطور لا بد من توضيح المفاهيم الالهية التي كان سوء فهمها حجر عثرة أمام كثير من المفكرين ، وخاصة الاوروبيين منهم ، لان الرجوع الى تفسير الكنيسة لهذه المفاهيم يصطدم بالرفض المنطقي لها والذي يصاحبه رفض فكرة الله باعتباره الصانع لهذا الكون .

كتب هذا الكتاب في الاصل الى قراء اللغة الانكليزية بسبب طغيان فكرة التطور على تفكير الانسان الاوربي لتبيان الأسباب التي دفعت الاوروبيين الى اتباع هذه الفكرة ونكران وجود الله ، ولتوضيح عدم علمية الفكرة بالرغم من تغليفها بالعلم . وبسبب اهمية الموضوع فقد قررت اعادة كتابة الكتاب باللغة العربية الى قرائنا الاعزاء . والكتاب ليس ترجمة حرفية للكتاب الأول لان كلاً منهما موجه الى ما يستسيغه قراؤه مع الاحتفاظ بجوهر المعلومات في كليهما . ويلاحظ اننا حاولنا استعمال آراء اولئك الذين يؤمنون بالتطور انفسهم لتفنيد الفكرة التي يؤمنون بها زيادة في الحجة عليهم وانطلاقاً من مبدأ العلمية والنقد الموضوعي .

الدكتور طالب الجنابي
١٩٨٩/١/٥

الباب الأول

تخبط الفكر الاوربي

الفصل الأول

الحالة الفكرية للكنيسة الاوربية الحديثة والفكر المادي

قيل ان الانسان الشرقي نظر الى السماء دائماً على أنها سبب الخليقة بينما نظر الانسان الأوربي دائماً الى الأرض ، وقد لا يكون هذا صحيحاً دائماً ، الا أنه ليس خطأ أيضاً فهو يشير بوضوح الى الفلسفات المادية التي نشأت في اوربا وبقيت تظهر بين الحين والآخر على مر التاريخ كلما كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك .

وقد حكمت الكنيسة خلال العصور الوسطى في اوربا بقبضتها القوية ومعتقداتها الصارمة . فالحقيقة كل الحقيقة عن الخلق بالنسبة لها كانت موجودة في الانجيل . ولكن بتقدم العلوم واكتشافاتها في العصور اللاحقة ظهر نزاع بين الدين والعلم . وبذلك فان موقع الكنيسة ومعتقداتها بدأت تتقهقر في أوربا ، وظهر خط فكري انشأه بعض العلماء والفلاسفة انحرف تدريجياً عن معتقدات الكنيسة . (وبرتراند رسل) يوضح هذه المشكلة بالقول[1] (بالنسبة للمسيحية كانت هذه النزاعات على نوعين، فأحياناً قد يكون هناك نص عن الانجيل

---

(١) انظر المصدررقم (٢٥) ص ٩ ـ ١٠ .

يؤكد حقيقة معينة ، مثلاً أن الأرنب البري يمضغ الجرو . . . وبصورة عامة فان عدم الاتفاق بين الدين والعلم كان في البداية من النوع الأول ، ولكنه أصبح بمرور الزمن يخص قضايا تعتبر من التعاليم الأساسية للمسيحية) وقد أصبحت بعض المعتقدات ، مثل أن المسيح ابن الله ، صعبة القبول في الأوساط العلمية والفلسفية ، كذلك فان تاريخ الطوفان الذي ينص عليه الإنجيل في عهد النبي نوح (ع) وُجِدَ انه مخالف للحقائق التأريخية حيث كانت هناك حضارات ، مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية في ذلك الوقت(*). وقد اعتبرت الكنيسة أن نظرية غاليلو التي تقول أن الكرة الأرضية تدور حول الشمس بدعة ، وذلك لان المعتقدات المسيحية كانت تعتبر الكرة الأرضية مركز الكون ، فالكنيسة التي اعتقدت أن المسيح هو ابن الله تصورت أنه من غير المعقول أن يرسل الله ولده الى جرم تافه كذلك الذي تصوره نظرية غاليلو . فمركز الكون هو المكان الوحيد الذي يليق بابن الخالق . وهذا بطبيعة الحال يتبعه تصور أن الكون مخلوق على شكل كرة وأن المركز هو المهم ، وهذه تصورات لا أساس لها على الاطلاق . فليس هناك ما يدل على أن الكون كروي ، وليس هناك ما يدل على أن المركز أهم من غيره . ومع ذلك فان غاليلو في نظر الكنيسة قد كفر . ولم يعلم غاليلو ولا الكنيسة أن القرآن كان قد أخبر المسلمين قبل ذلك بقرون بأن الكرة الأرضية ليست سوى جرماً سابحاً في الفضاء مَثَلها مَثَل الاجرام الأخرى . الا أن الكنيسة التي كانت تحرق الملايين من النساء بدعوى السحر لم يكن لديها متسع من الفراغ للعلم، أو العلماء .

وبعد تقدم العلم وتغير الأوضاع الاجتماعية في أوربا بدأت الكنيسة تفقد

(*) لاحظ ان القرآن لا ينص ان العالم كله غرق وانما قوم نوح فقط كما في سورة الفرقان الآية ٣٧ ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية). كما ان القرآن لا يصرح بتاريخ الطوفان .

سيطرتها على المجتمعات الأوربية مما أدى الى رفع الاضطهاد عن العلماء الذين بدأوا يتحدَّون الكنيسة علناً . فقد ظهرت اكتشافات علمية لا تقبل الشك أدت الى زعزعة ايمان كثير من العلماء والمفكرين بالمسيحية . فالانجيل ، وباعتباره كتاباً الهياً ، يجب أن يكون صحيحاً بأكمله . فالله لا يمكن أن يخطأ ، وأي خطأ فيه يعرضه الى خطر كونه ليس صادراً عن الله . و(برتراند رسل) يوضح ذلك بقوله[1](ان هذه الحجة تستند على سلطة الانجيل التي يمكن المحافظة عليها فقط اذا قُبِل الانجيل ككل . وقد حاولت الكنيسة الدفاع عن نفسها ولكنها فشلت . فالحقائق العلمية كانت ساحقة ولا يمكن مقاومتها بواسطة حجج الكتاب المقدس) . ويستمر (رسل) بوصف وحدة الإنجيل الهشة بقوله[2](ان الوحدة المنطقية قوة وضعف بنفس الوقت . فهي قوة لأنها تنص على أن من قبل مرحلة معينة من الجدال يجب أن يقبل المراحل التي تليها ، وهي ضعف لأن من يرفض أي من المراحل التالية يجب أن يرفض بعض المراحل السابقة على الأقل . والكنيسة تعرضت في نزاعها مع العلم لكلا القوة والضعف الناتجين عن الترابط المنطقي لمعتقداتها) . وكانت هذه خطوة الى الوراء بالنسبة للكنيسة التي عانت من اندحارات كثيرة في معركتها ضد العلم . فالتناقضات لا يمكن التغاضي عنها ، ذلك انه اذا كان الانجيل كتاباً الهياً فانه لا يجب أن يتعارض مع العلم ، والنتيجة أن الكنيسة خسرت المعركة ضد العلم كما يوضح (رسل) ذلك بقوله[3](بين الدين والعلم كان هناك نزاع مرير وطويل حتى السنين القليلة الأخيرة ، وقد برهن العلم بصورة ثابتة على أنه المنتصر فيه) . فانسحب العلماء والمفكرون من الكنيسة اولاً ، ثم تبعهم الناس ، ثم انعكست العجلة وتراجعت الكنيسة الى الداخل ، الى صلاة يوم الأحد . والآن فان الكنيسة تحاول جاهدة

---

(١) انظر المصدر رقم (٢٥) ص ١١ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣١ .
(٣) انظر المصدر السابق ص ٧.

ارجـاع النـاس الى المعتقـد بعـد أن تخلوا عنـه . وتعتقـد الكنيسـة الآن أن تعـاليمها يجب أن تتغـير بموجب متـطلبات المجتمـع وتـتطور مـع احتيـاجـاتـه . أي أن الـتعـاليـم يجـب أن تتـطور لـكي تـتـمـاشى مـع رغبـات الـنـاس وليس على الناس أن يتبعوا التعاليم ، والذي معناه ان الله يجب يخضع لرغبـات النـاس وليس الناس هم الـذين يتبعون أوامـر الله . وهذا يـدعونـا لأن نتساءل: اذا ، كانت هذه هي الحـالة فلمـاذا أرسـل الله عيسىٰ (ع) لكي يصحـح اليهود ويقف ضـدهم ويدعـوهم الى الـرجـوع الى أوامـر الله ؟ الم يكن المفـروض فيـه (بمـوجب هذه النـظرية) أن يقبـل بتغييرهم لتعـاليم التـوراة لكي تتمـاشىٰ مـع متطلباتهم في ذلك الوقت . ولكن إذا كانت التعاليم يجب أن تتغـير كما يـزعمون أليس المفروض أن يغيرهـا الذي وضعهـا أولاً وهو الله تعـالى ؟ أليس من المنطق أن يرسل الله رسولاً آخر ليخبـر الناس بـالتعاليم الجـديدة ؟ وهذا بطبيعـة الحال يتفق مع سيرة البشرية وإرسـال الأنبياء من قبـل الله على مـر التاريـخ . وإذا كنا نعطي أنفسنا الحق في تغيير التعاليم فلماذا ننكر هذا الحق على اولئك الذين عاشوا قبلنا وندعي أن اليهود على خطأ لأنهم غيروا تعاليم موسى كما يشتهون؟وإذا كان باستطاعة البشر اختراع التعـاليم وتغييرهـا فلماذا الحـاجة الى الأنبيـاء ؟ ان هذه الفكـرة تنسف ضرورة ارسـال الرسـل من الأساس ، ويصبـح الناس الـذين لا يتبعون الأنبياء ليسـوا كفاراً ولا يحق لنـا أن ندعـوهم هكذا مـا دام لهم الحق في تغيير التعاليم واتباع ما يرغبون . وهكذا فان الكنيسـة تخلت تدريجيـاً عن معظم معتقداتها ، و (رسل) يوضح ذلك بالقول[1] (ان الحجـة التي في صالـح الدين تستنـد الآن على تـأثير الـدين في الدعـوة الى حياة أفضـل عـلى الأرض أكـثر من ارتبـاطه بـالحياة الآخـرة . . . ان الاعتقاد بـأن الحياة الـدنيـا هي تحضـير لحيـاة أخرى ، والذي كان له تأثيره عـلى الاخلاق والمُثـل والسلوك ، قـد تـوقف الآن

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٦ .

من التأثير حتى على أولئك الذين لم يتخلوا عن هذه الفكرة بصورة واعية) . وهذه اشارة واضحة على تأثير المادية الحديثة على الكنيسة الأوربية. ويؤكد (روبرت باين) هذه النقطة بالقول[1](ان الكنيسة أصبحت عدواً للعقيدة بالنسبة لكثير من المسيحيين وأصبح البابا عدواً للمسيح . وتبدو قساوة الكنيسة واستبدادها وتنظيمها مخالفة للحرية التي تنسب الى المسيح . ولذا فان الثورة كانت واسعة الانتشار ، وأحياناً يمكن رؤيتها ضمن الكنيسة نفسها) .

ان مشكلة الكنيسة هي ان معتقداتها لم تكن صحيحة كلياً ابداً للسبب البسيط هو أن المسيحية دين صنعة الانسان . فقد وضعت المعتقدات بواسطة رجال انحرفوا عن تعاليم المسيح الحقيقية منذ البداية وهؤلاء الرجال جمعوا هذه المعتقدات وفلسفوها للخروج بدين عالمي جديد . و (برتراند رسل) يذكر ذلك بعد الغوص في تاريخ نشوء المسيحية وتطورها فيقول[2](ان المسيحية ، وفي البداية ، بُشِّرت بواسطة اليهود لليهود على أساس أنها تصحيح لليهودية . وقد أراد لها القديس جيمس ، وكذلك القديس بطرس بدرجة أقل ، أن تبقى كذلك ، وكان من الممكن أن تكون هكذا ، لكن القديس بولص هو الذي كان مصمماً على ادخال الاميين(*)اليها بدون المطالبة بالختان او الاذعان الى قوانين موسى . . وبسبب القديس بولص فان المسيحية احتفظت بما هو جذاب في عقيدة اليهود بدون السمات التي كان الأميون يجدون صعوبة في تقبلها) . ويتكلم (رسل) عن القديس امبروس Ambrose والقديس جَرَمي Jerome والقديس أوغسطين Augstine فيقول[3](انهم ثبّتوا القالب الذي بنيت ضمنه

---

(١) انظر المصدر ٣١، ص ٢٩٧ .

(٢) انظر المصدر ٢٨ ص ٣٢٥

(*) الاميون هم غير اليهود.

(٣) انظر المصدر السابق ص٣٣٥ .

الكنيسة أكثر من أي رجال آخرين) . أما (حاييم ماكوبي) فانه يقول[1](ان الحقيقة هي أن المسيح لم يؤسس ديناً جديداً ، ولكنه بحث عن أداء دور في قصة دين موجود ، وهو اليهودية ، ولقد كان مؤسس المسيحية هو القديس بولص الذي قام بذلك بواسطة اختلاق قصة جديدة ، قصة قديرة وعاصفة ما فيه الكفاية للتبشير بدين عالمي جديد ، وفي هذه القصة الجديرة أعطِيَ المسيح دوراً قيادياً ، ولكن هذا لا يجعله صانعاً للمسيحية أكثر مما يجعل هامليت(**) كاتباً لروايات شكسبير . . . لقد كان القديس بولص ميالاً عظيماً للخيال ، فاختلق خرافة المسيحية بتأليه عيسى الذي كان يمثل المسيح المنقذ لليهود ، والذي كانت تطلعاته الحقيقية تقع على مستوى السياسة اليهودية المثالية وغير الواقعية) . ومهما يكن رأي (حاييم ماكوبي) ، وهو رأي يهودي لا نتفق معه كلياً ، الا أنه يبين حقيقة مهمة وهي أن المسيحية التي نعرفها لم يؤسسها عيسى (ع) ولكن الذي شيدها هو القديس بولص . ويؤكد (روبرت باين) هذه الحقيقة عندما قدم وصفاً تأريخياً لشخصية القديس بولص وكيف ذهب القديس ليضفي معتقداته وآراءه الشخصية على دين عيسى الذي أخذه عن القديس بطرس والقديس يوحنا ، فيقول[2]« فظ ونبيل ومسافر وجاف ومتعصب وكان أحد أولئك الذين تجرأوا لإنجاز الأشياء المستحيلة .

لقد أعطي بولص المجد لكونه الشخص الأول الذي صاغ العقيدة المسيحية كما نعرفها اليوم . فقد صب نفسه في المسيح وصب المسيح في نفسه ، وستحمل الكنيسة دائماً آثار تلك العملية المستمرة للتقطير التي شغلت نصف حياته . . . ومع ذلك كان هناك شيء ناقص . فبولس كان يتكلم عن المسيح ،

---

(١) انظر المصدر (٢١) ص ١٨٤و٢٠٤ .

(**) هامليت شخصية اخترعها شكسبير في كتبه ولها الدور القيادي في الأحداث التي تذكرها تلك الكتب .

(٢) انظر المصدر ٣١ ص ٦٢ - ٦٩ .

ونادراً عن عيسى ، فالرجل الذي كسر الخبز وبارك الخمر كان دائماً ابن الله على يمين الأب .

وربما كان ذلك لا بد منه ، لأن بولص لم يغفر لنفسه أبداً عدم استطاعته رؤية عيسى في الجسد(****). وقد اعتقد انه نُصِّب الهياً بواسطة المسيح لجلب الخلاص الى الاميين ، وقد جاءه الأمر على شكل رؤيا ، والمسيح الذي عرفه كان مسيحاً خيالياً ، عبارة عن صوت يتكلم بنور عظيم ، وليس لأحد أن يمسه . وبالنسبة لبولص فان المسيح كان فكرة تجريدية .

ونزعته (أي بولص) كانت استبدادية ، وكانت فيه إنسانية قليلة . وبالنسبة له ، وله فقط ، تكشفت الحقيقة . . . وهو دائماً المرتجل ، والمخترع ، مشاهداً أثناء سيرته صوراً ذهنية مثيرة وتعقيدات متداخلة أكثر فأكثر .

« انه ليس مسموحاً الذهاب ما وراء الأشياء المكتوبة » هكذا كتب هو نفسه في احدى الرسائل الانجيلية ، ولكنه كان يذهب وراءها بصورة مستمرة ، مفسراً كلمات عيسىٰ بموجب نزوات عقله الذي كان يلتهب ناراً . وأنه لواضح أنه لم يكن يعرف أي من الأناجيل ، لأن الأول بينهم لم يكتب حتى الوقت الذي قرب موته . ويبدو انه كان ، وبكل دهشة ، يعرف القليل عن حياة عيسىٰ على الأرض . والذي كان يهمه فوق كل شيء هو الصَلْب ، وهو رآه ليس شيئاً يُقاسى، ولكن لهيباً من الطاقة الالهية النابعة من عار الظروف الانسانية ، ونصراً سماوياً . وما كانت تقوله الأناجيل بعدئذ فانه نَكَرَهُ أحياناً . واعتقاداته الجوهرية كانت اعتقاد الرجل الذي تأمل حادثة واحدة على حساب اقصاء الحوادث الأخرى .

(***) بولس لم يعاصر عيسى لانه ليس من الحواريين .

لقد كانت في عقله قوة ، وتصميم قوي لاستخدام تلك القوة الى قصارى جهده .

وهو يرجع مرة أخرى الى الحجة القائلة انه ليس هنـاك ما يكسبـه الأميون باطاعة قوانين موسى .

ومهمة بولص في رحلاته التبشيـرية كـانت لايجاد كنـائس جديـدة ولإجبار اخراج تفسير لرسالة المسيح خارج القانـون . . ولم يهمه في شيء أن بـطرس كان من بـين المرافقـين الحميمين للمسيـح ، وأنه في منـاسبات مختلفـة وعديـدة كـان بطرس شاهداً لحوادث استثنائية والتي كـان قد شـاهدهـا القليل من الآخـرين . ولقد كان بطرس ويوحنـا الامينين الـرئيسيين للسر المقـدس ، وكلاهمـا كانـا غير مهمين بالنسبة لبولص الذي كان يجبر تفسيره للانجيل بالقوة بالرغم منهما ، وإذا كان ضرورياً ، فضدهما . .

وكـان بولص قـد انتصر بهذا الشكـل المثير في زرق هـويتـه المتحمسـة الى المسيحيـة المبكرة بسبب لـوقا بقـدر ما كـان بسبب فعاليـاته التبشيـريـة ورسـائله الملتهبة » . انتهى كلام (بان) .

وعلى كل حال ، فان (باين) يذكـر أيضاً أن هنـاك الكثيرين بعـد بولص الـذي شاركـوا في صياغـة المسيحية التي نعـرفها اليـوم . فهـو يقـول[1] (لم تكن المسيحية بدائية حتى في بدايتها وذلك بسبب دخول أفكار مختلفة فيها . والعقيـدة كبـرت من خلال حيـاة عيسىٰ كـما مسجلة في الأنـاجيـل ، ومن خـلال رسـائـل القـديس بولص والـرؤيا الملتهبـة ليوحنـا البطمـوسي غـير المعـروف ، وأصبحت العقيدة تشبه شجـرة البلوط الموجَّهـة أوراقها التي لا تحصى نحـو الشمس . وقد غذت هذه الشجرة جذور لا تحصى ، فـاختفت الأغصان بـين الأوراق المزخـرفة

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ٢٩٦ .

الكثيفة . وكذلك يذكر (ماين ميكس) في هـذا الصدد[1](انـه واضح من كـلا الرسائـل والأسفار أن المسيحيـة البولصيـة لم تكن عمل شخص واحـد ، ولكنها عمـل جماعـة موسعـة من الرفـاق) . ومن هنا جـاءت ، آيات القـرآن الكريم الكثيرة التي تبريء عيسى (ع) من المعتقدات المسيحية ، منهـا[2](**﴿ واذ قال الله يـا عيسى ابن المـريم أأنت قلت للنـاس اتخـذوني وامي الهـين من دون الله قـال سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق ان كنتُ قلتَه فقد علمتُه تعلم ما في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك انـك أنت علام الغيـوب ، ما قلت لهم الا مـا امرتني به أنْ أعبدوا الله ربي وربكم ﴾**. وقال تعالى[3]: **﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد)** .

وبعد هذا السرد الذي يقدمه المفكرون المسيحيون يتضح أن المسيحية التي سادت منذ البداية لم تكن تعاليم عيسى (ع) ولكنها تعاليم القديس بـولص . وبطبيعة الحال فانه من غير الممكن أن تستطيع المعتقدات التي من صنع الانسـان أن تنجح في تفسير الـوجود بصـورة صحيحة ، لان الانسـان ناقص ، وبصـورة عامة جاهل بأمور الوجود . وفي أفضل أحوالها فان هذه المعتقدات لا تستطيع أن تشتمل على الحقيقة المطلقة للوجود ، لأن الناقص لا يمكنه أن يتضمن الكمال .

ان السؤال الـذي يطرح نفسـه هو : بمـاذا يعتقد النـاس بعد التخـلي عن معتقدات الكنيسة ؟ وقد يرد بعض الأوربيين بالقول (بلا شيء) وهم يعتقـدون ذلك ، إلا أنه ليس صحيحـاً لأننا نـرى حتى أولئك الـذين يدعـون الايمان بـلا شيء يؤمنـون ببعض القيم التي وضعها لهم المجتمـع أو يضعـونها هم أنفسهم . وهنـاك الفلاسفـة والمفكرون الـذين يهمهم معرفـة سر الـوجـود وتهمهم سعـادة

(١) انظر المصدر ٣٢، ص ٧.
(٢) سورة المائدة ـ الآية ١١٦ و١١٧.
(٣) سورة المائدة ـ الآية ٧٣ .

مجتمعاتهم ، لذا فانهم ينشؤون القوانين والأعراف التي يسير عليها المجتمع . اذن فالجواب على سؤالنا هو ليس الايمان بلا شيء ، ولكن بوضع بعض القيم والايمان بها ، والذي معناه الايمان بمعتقدات معينة أيضاً (فحتى اولئك الذين لا يؤمنون بخلق آدم(ع) فانهم يؤمنون بالتطور) . وبطبيعة الحال فان هذه المعتقدات يجب أن يكون لها ما يبررها بالرغم من أن ذلك ليس ممكناً دائماً . فبعض الناس يبررون معتقداتهم بطرق غريبة . وعلى سبيل المثال ، ظهرت في السبعينات ظاهرة تعري بعض الشباب والشابات في الأماكن العامة على حين غفلة في بريطانيا (وتسمى ستريكنك Streaking • والشخص المتعري يسمى ستريكر، Streaker)، وقد سألت احدهم لماذا تتعرىٰ ؟ فأجاب : ولم لا ؟ وبطبيعة الحال فان جوابه هذا كان تبريراً معقولاً بالنسبة له ، أما بالنسبة لي فقد كان تبريراً سقيماً وإهانة للفكر الإنساني الذي وصل الى الحضيض. ومثال آخر ، أن أحدهم قال لي وهو يومىء الى كأس نصف مملوءة بالماء والتي قلت له أنها نصف مملوءة : «كلا انني لا اتفق معك ، انها نصف فارغة» . والقضية بطبيعة الحال ليس فيها عدم اتفاق كما ظن الرجل ، فالاختلاف لا يكون على وصف الشيء نفسه بتعابير مختلفة أو بطرق مختلفة ، ولكن الاختلاف الحقيقي انما هو ذلك الاختلاف الذي يحدث على أسس منطقية . فاذا كان منطقي لا يتفق مع منطقك فان هناك مشكلة حقيقية ، ذلك لان المنطق يجب أن يكون صحيحاً دائماً . المشكلة اذن ليست في المنطق ولكن في كيفية استعمال المنطق أو في الأساس الذي يبنىٰ عليه المنطق ، فاذا بدأنا منطقنا من قاعدة أو افتراض خاطئين ، فان المنطق يوصلنا الى نتيجة خاطئة لا محال ، ولقد كان نيتشة ، الفيلسوف الألماني ، ذكياً جداً الا أن منطقه قاده الى نتائج وخيمة وكان السبب في ذلك هو انطلاقته الخاطئة وايمانه الخاطيء بأن الانسان القوي يجب أن يتخلص من الانسان الضعيف بواسطة الابادة بالقوة تمشياً مع مفهوم التطور القائل أن البقاء للأقوى .

ولكن كيف نعرف ما هو الأساس الصحيح وأين هو ؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس سهلاً ، ولكنه ليس مستحيلاً أيضاً . والصعوبة تكمن في الرواسب التي تعج بها عقول الناس والتي سببها المجتمعات التي نعيش فيها ومعتقدات الآباء التي تنتقل الى الابناء تلقائياً فيتلقفها الأبناء دون تمحيص وامعان ، وتصبح تشكل خلفية قوية للاختلاف بين الناس . ولنا في قصة ابراهيم (ع) مثلاً رائعاً في ذلك . والقرآن الكريم يلخص لنا القصة بقول الله تعالى:[1] ﴿ **واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد اصناماً فنظل عليها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ .

[2]﴿ **ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ .

[3]﴿ **بل قالوا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ .

[4]﴿ **قال أوَلَو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون** ﴾ .

[5]﴿ **فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه او حرّقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ .

ونرى هنا أن قوم ابراهيم لم يكتفوا بتكذيبه ولكنهم قذفوه الى النار . وهذا يبين الى أي درجة يمكن لرواسب الماضي أن تصل وكم يمكنها أن تفعل .

والسؤال هنا ، كيف نستطيع أن نتخلص من رواسب الماضي ؟ لا شك

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات ٦٩ ـ ٧٤ .

(٢) سورة الزخرف ـ الآية ٣٠ .

(٣) سورة الزخرف ـ الآية ٢٢ .

(٤) سورة الزخرف ـ الآية ٢٤ .

(٥) سورة العنكبوت ـ الآية ٢٤ .

أنها مشكلة الفرق بين النور والظلام ، ومشكلة الفرق بين الصحيح والخطأ . ويستطيع الانسان الواعي أن يلاحظ الى أي مدى تؤثر رواسب المجتمعات الغربية على أناسها ، فالفلاسفة الأوربيون عندما يريدون الاشارة الى الفلسفة القديمة يذكرون الفلسفة اليونانية فقط وكأنها الفلسفة الوحيدة القديمة . وهذا يبين مثالاً صارخاً على تأثير التحيز غير الواعي .

ومهما تكن خلفياتنا فان هناك شيئاً سنواجهه كلنا وبدون استثناء ، ذلك هو الموت . ويستهين الماديون بهذا الموضوع بالقول انه ليس هناك شيء بعد الموت ، وهم بطبيعة الحال لا يستطيعون اثبات ادعائهم هذا . والمشكلة تكمن في أن طريق الموت ذات اتجاه واحد ، وليس هناك رجعة بعد الموت . ولذا فان قضية الموت كانت مركزية في تفكير الانسان منذ القدم . واذا كان هناك شيء ما بعد الموت فانه بالتأكيد لا يمكننا معرفته الا بعد اخبارنا به بواسطة قوة خارقة للطبيعة ، وبطريقة نستطيع فهمها بواسطة ما يتيسر لنا من وسائل السمع والبصر وغيرها. ذلك لأننا محدودون بالنسبة الى عالمنا ولا يمكننا أن ننفذ الى عالم ما بعد الموت بأي طريقة من الطرق لنرى ما فيه . اننا ، وبكل بساطة محصورون في عالم حواسنا . ولكننا مع ذلك نمتلك آلة مقتدرة من نوع آخر ، وهذه الآلة لا تستطيع النفاذ الى العالم الأخروي ولكنها يمكنها ان تعرف وجوده أو عدم وجوده اذا ما استعملت بصورة صحيحة . وهذه الآلة هي العقل . وتبقى التفاصيل التي لا بد من نقلها لنا بواسطة اخرى .

وانه لمن العجيب أن ذلك الانسان الذي يأخذ حذره الأقصى وهو يقود سيارته على طريق سريعة عندما يقترب من منعطف لأنه لا يعلم ماذا وراء المنعطف بامتار قليلة ، يعطي نفسه الحق في القول أنه ليس هناك شيء بعد الموت . أن الحقيقة لا تتغير سواء عرفناها أم لم نعرفها ، وتبقى حقيقة بالرغم من الأهواء . والخطأ يبقى خطأ حتى لو اعتقد الجميع صوابه . وقد تكون هناك فائدة بالنسبة لنا اذا عرفنا الحقيقة . ولكن لا يهم الحقيقة بشيء اذا عرفناها أم لم

نعرفها ، لأننا نحن الذين بحاجة إليها ، أما هي فليست بحاجة الينا . وهذا يبين ضعفنا ونقصنا لأننا بحاجة الى شيء آخر ، مثل الحقيقة . فالحاجة ضعف لأنها نقص . واذا كانت هذه هي الحالة ، وهي بالتأكيد كذلك ، فان الموضوع يجب ان يعطىٰ الأهمية والعناية التي يستحقها ، الا أنه يبدوا ان عجلة الحياة تجرف معها كثيراً من الناس الذين لا يجدون متسعاً من الوقت للتفكير في هذه المسائل التي هي من الأهمية بمكان . وانه لمن الجهل أن تهمل مسألة كهذه . ولكي يشعر الانسان كم هو وحيد في هذا العالم ، فلينظر الى السماء في ليلة صيف صاحية عندما يكون الناس نيام ، وليغوص في بحر الفضاء بفكره ليشعر كم هو وحيد في هذا الوجود . اننا في الواقع محتاجين كل الاحتياج لمعرفة الحقيقة ما بعد الموت . فأجسادنا لا تحتمل الألم . وان الانسان ضعيف ، وكما قيل[1](مسكين ابن آدم ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، مكتوم الأجل ، تؤذيه البقة ، وتنتنه العَرْقة وتقتله الشَرْقة).

وعندما نبدأ بالتفكير بقضيةٍ ما كالحياة والموت فاننا نواجه مرة أخرى تأثير الرواسب علينا، وعلى سبيل المثال فان من يعتقد بالتطور على أنه حقيقة سيجادل بأن الله لم يخلق آدم ، وبذلك فانه سيرفض ما جاء به الأنبياء ، وهذا بطبيعة الحال يقوده الى الاعتقاد بأن الأنبياء كذبوا بادعائهم أن الله خلق آدم على هيئته كانسان ، واذن فهم ليسوا انبياء وأن الله لم يرسل أحداً ، عندها فان الله لم يخبرنا عن وجوده وإنما الإنسان هو الذي اختلق فكرة الله ، وبذلك فليس هناك من دليل على وجود الله . هذا هو منطق الماديين ، ونلاحظ فيه كيف انه يصل الى نتيجة خاطئة بسبب استناده على القاعدة الخاطئة التي تقول أن التطور حقيقة واقعية بالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على صحتها . وهناك من يحاول أن يوفق بين اعتقاده بوجود الله وبين التطور لأنه يؤمن بالاثنين معاً فيقول ان التطور

(١) نهج البلاغة ـ الامام علي (رض).

لا يـدل عـلى أن الله ليس مـوجـوداً لأن الله هـو الـذي خلق قـابليـة التـطور في الكائنات . وهـذا الرأي يصـطدم بفكرة خلق الله لآدم كـما انه لا يستطيـع أن يوفق بين الفكرة الالهية القـائلة أن الله خلق الكائنـات الحية وبـين فكرة التـطور القائلة أن الكائنـات الحية تـطورت من خلية واحـدة انبثقت بطريقـة الصدفـة . وأصحاب هذا الـرأي أغلبهم ممن يعتقد بـوجود والله ولكنهم مـع ذلك يـذعنون لادعاء التطوريين بسبب اعتقادهم بصحة آرائهم التي تُصَوَّر لنـا على انها علميـة وأن الدليل العلمي قد قام على صحتها ، وهم يجهلون أن هـذا الادعاء بـاطل من الأسـاس . فكما سنـرى ان آراء التطوريـين ليست سـوى آراءاً شخصيـة لا تستند على أدلة علمية قطعية . وقد يكون هذا الكلام غريباً ، ولكنـه أغرب من الخيال . فهذا الغبار الذي يُثار حول عقول الناس بكثـافة شـديدة لحملهم عـلى الاعتقـاد بالتـطور أساسـه آراء بعض الناس الـذين لا يؤمنون بـالله لأنهم نكروا تعاليم الكنيسة للأسباب التي سردناها . وبالنسبة لهم فان الديانة المسيحية تمثـل الديانة الالهية ، وعند اقامة الدليل على خـطأ بعض معتقداتهـا فان ذلـك قادهم الى الاعتقـاد بخطأ جميـع الأديان الأخـرى دون النظر في تعـاليم تلك الأديـان ، وبذلك فانهم كفروا بوجود الله ولم يكن امامهم سوى الرجوع الى المادية ، وهـذا قادهم الى الاعتقاد بحقيقـة التطور ، اذ لـو أن الله لم يخلق الكائنـات الحية فمن أين أتت هـذه الأحيـاء ؟ لا بـد وأنها جـاءت من الأرض . ولـمـا كـانت بعض الكائنات أكـثر تعقيداً من بعضهـا ، وبسبب وجود التشـابه بينهـا ، فلا بـد وأنها تطورت بعضها من بعض ، وهكذا الى آخر المطاف . وهذه ، هي الخلفيـة التي كـانت وراء ظهور فكـرة التطور ، وتبـين لنـا مـرة أخـرى كيف يـوصـل المنـطق الانسان الى نتيجة خاطئة عند اعتماده على أساس خاطيء . ووراء هذه الرعونة جـرى مثقفـونـا العـرب الـذين بهـرتهم تكنـولـوجيـة الانسـان الأبيض ، هـذه التكنولوجية التي لم ترتفع بالانسـان الأبيض الى مستوى معـاملة المرأة في مجتمعـه على حد السواء مع الرجل . فهذه كندا وامريكا، ولعجبي الشديد، اكتشفت فيها أن أجور المرأة أقل من اجور الرجل عندما يؤديان نفس الوظيفة . وكـما قـال احدهم

انهم لكي يبيعوا جوارب نسائية ثمن الواحدة دولاراً واحداً فانهم يعرضون دعاية لمرأة عارية في سبيل جذب النساء لشراء هذه الحاجة البخسة . والمطلع على الحياة الغربية يلاحظ أن أكبر تجارة رابحة هي الدعارة وما يتصل بها . وهكذا بالنسبة لهم ، فان الانسان أصبح آلة ليس الا . فاذا كانت التكنولوجيا دليل التقدم فلماذا لم تتقدم نفوسهم باتجاه احترام الانسان اذن ؟ واذا كانت التكنولوجية قد تمخضت عن هذا الواقع ، فماذا يتوقع منها مفكرونا عندما لهثوا وراءها ؟

لقد ركض بعض مثقفينا وراء الحضارة الغربية بدون وعي ، والبعض الآخر بقي في منتصف الطريق ، فلا هو يركض ولا هو واقف ، وإنما حاول الموازنة ، فهو يأخذ من الغرب نصف ما عندهم ويحاول توفيقه على مجتمعه ، وهؤلاء خسروا المشيتين . أما البعض الآخر فقد بقي واقفاً ولم يعبّر عن رأيه بصراحة بسبب خوفه من التيار الذي أوجده الآخرون ، الا القليل القليل منهم ، وهؤلاء ، ولشديد الأسف ، وصمهم الآخرون بالتأخر فتراجعوا الى مواقعهم بدل الدفاع عن أنفسهم ، أولئك الذين كان التعري بالنسبة لهم هو التقدم والإباحية هي التقدم . تالله متى كان التعهر تقدماً ؟ أو ليس ذلك معناه أن المومسة أكثر تقدماً من العفيفة . . أو يكون هذا معقولاً . . ولكن لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وأنا لا أعير أهمية كبيرة الى المجادلات بين المدارس الفكرية المختلفة ، سواءاً اثيرت هذه المجادلات بسبب النزعات الشخصية ، أو بسبب الجدال من أجل الجدال والذي يجعل الموضوع تضييعاً تاماً للوقت والجهود ، ولكن ما اعير له أهمية هو العدالة لأن العدالة هي الحقيقة ذاتها . والعدالة هي اعطاء كل ذي حق حقه ، لا أقل ولا اكثر . وبذلك فان طريق الحقيقة ينتهي عند معرفة الحق ومعرفة لمن يعود هذا الحق . ولكن متىٰ نستطيع أن نعتبر الحق حقاً ؟ وللإجابة على هذا السؤال فانه من الضروري التخلي عن رواسب الماضي والابتداء من جديد ، من بديهيات العقل الأساسية ، ومن اللبنة الأولى للمنطق . والحق يجب

أن يتفق مـع المنطق ، ومـا لا يتفق مـع المـنطق يجب لفـظه . وعنـد البحث عن الاحقيـة يجب أن نعي بأن علينـا اتباع الـطريق خـطوة خـطوة . واذا لم نستـطع الحصول على تفسير منطقي مقبول لأي خطوة عـلى الطريق يجب أن لا نقفـز من فوقها الى الخطوة التي تليها كـما يفعل البعض دون وعي منهم ، لأن هـذه القفزة قـد تكون هي الفـرق بين البقـاء عـلى الـطريق الصحيـح أو الإنحـراف عنـه . والمشكلة في هـذه القفزة أن النـاس الذين يفعلونها إنما يقومـون بها اعتمـاداً على خلفيـاتهم العقلية المملوءة بـالرواسب والمستمـدة من طريقـة تفكيـرهـم المحشـوة بأخطاء المجتمع التي سببها الجهل المتراكم خلال التاريخ .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر ان بعض النـاس يعتقدون أن المنـطق يختلف من انسان الى آخر اعتماداً على خلفيات الناس وعـلى المعلومات التي يمتلكـونها . وهذا خطأ شـائع ، فـالمنطق ، كـما ذكرنـا ، لا يختلف من انسان الى آخـر اذا لم يُسخّر للأغراض والنزعات الفرديـة ، لأن المنطق هـو المنطق وهـو نفسه بـالنسبة لكـل النـاس اذا كـان الغـرض من ورائـه التمـاس الحقيقـة ولا شيء سـوى الحقيقة . . فعقل الانسـان جزء من هـذا الكون الـذي تسري العـدالة في جميـع ارجائه ، والتي يمكن تحسسها من خلال قـوانينه الصـارمة المسيـطرة عليه ، والتي نظمت كل جزء فيه ، وأحد هذه الأجـزاء هو العقـل البشري الـذي يمثل نـظاماً متطوراً من أنظمة الكون . وأنا لا أنكر ان عقل الانسان الاعتيـادي معرض الى تقبـل المعلومات الخـاطئة بسبب قلة الـوعي ، ولكن المفكر او الفيلسـوف ، وكما وصفـه افلاطـون ، يبحث عن الحقيقة ولا شيء سـواهـا ، ولـذا فـان المفكـرين والفلاسفة يتحملون مسؤوليات ضخمة تجاه الناس ، وانه ليس من باب اللهو ان يتفلسف المرء ، ولا من باب اللهـو أن يلعب بعقول النـاس . ومن هنا فـان من يضع افكاره على الورقة لكي يقرأهـا الناس عليـه أن يمحص هذه الأفكـار جيداً قبل أن يطلقها الى الناس . لان المسؤولية جسيمة . ولكن ، ولشـديد الأسف ، فـان هذا آخـر ما يفكـر فيه المفكـرون الذين عـادة ما يملكـون فكرة يؤمنـون بها

ويتحمســون لها فيـطرحونها الى النـاس دون العبء بنتائجهـا . وهـذا مـا يفعله المفكرون ، الأوربيون ، ويركض وراءهم انصاف المفكرين منا . .

الفصل الثاني

الانسان ومشكلة الخليقة

لسنا مخطئين اذا قلنا أن عدد الآراء الموجودة يساوي عدد الناس الموجودين ، على فرض أن كل انسان يمتلك على الأقل رأياً واحداً (في قضية ما) يختلف عن آراء الآخرين . وسبب ذلك أن كل انسان له خصوصيته وفرديته التي تميزه عن الآخرين . وفي الواقع أن الناس ، وبالرغم من التشابه الذي يلاحظ بينهم في الآراء ، فان كل واحد منهم له عالمه الخاص . فكل انسان عالَمٌ بحد ذاته ، ومن هنا نستطيع القول ان عدد العوالم الموجودة بقدر عدد الناس الموجودين . وهذه العوالم هي الصور التي يرسمها كل فرد في مخيلته عن الأشياء ، كل الأشياء . فعالمي هو صورة العالم التي ادركها أنا عن العالم ، وعالمك هو صورة العالم التي تدركها انت عن العالم . وبالرغم من أن هذه الصور قد تختلف في بعض النقاط الا أنها تلتقي في نقاط اخرى . وفي الحقيقة فان نقاط الالتقاء اكثر عدداً من نقاط الاختلاف . فعندما يتفوه أحد بجملة فان الآخرين يفهمونها ، كذلك فان الألم غير مرغوب ، ولكن اللذة مرغوبة ، وأيضاً بامكاننا أن نميز بين الأبيض والأسود . وبالرغم من أننا قد نختلف في ادراكاتنا للأبيض بدرجات متفاوتة وادراكاتنا للأسود بدرجات متفاوتة أيضاً إلا أننا نتفق

على أيهما الأبيض وأيهما الأسود .

ولكن هنـاك بعض المواضيـع التي نتفق عليها ، الا أننـا نختلف عليها في النهاية . وهذه هي المنطقة التي حصل فيها الجدال والنقـاش بين النـاس على مـر التاريخ . وهذه المواضيع تصبح القوانين والمفاهيم التي تحركنا وتوسع ، ولشديـد الأسف ، الفروق بيننا في النهـاية . واثنـان من هذه المفـاهيم هما الصـح والخطأ (أو الحق والباطل)، فكلنا نتفق أننا يجب علينا أن نقول ونتبع ونفعل الصـح ، ونرتدع عن قـول واتباع وفعـل الخطأ . ولكن في كثـير من الحالات نختلف عن الشيء الـذي يجب اعتباره صحيحـاً والشيء الذي يجب اعتبـاره خطأ . فـان مـا تعتبره جماعة صحيحاً قد تعتبره جماعة اخرى خطأ ، والعكس بالعكس . وعندما تحدث هذه الحالة فـان الاختلاف يصـل الى ذروته ، وقـد يقود الى انهيـار الصلة بين الجماعتين انهياراً تاماً ، والـذي بدوره قـد يؤدي الى اشعال نـار الحرب التي تدمر كل شيء . ومثال على ذلك اننا نتفق على حـرية الانسـان ، ولكننا نختلف على النظام السياسي الذي يعطي الانسان حريته . مثال آخر اننـا كلنا نتفق عـلى ان الـوالدين مسؤلان عن تـربية الأطفـال ، ولكننا نختلف عن مقـدار التدخـل المسموح للأبوين في شؤون ابنائهم .

لماذا نختلف على الأشياء التي يجب أن نعتبرها صحيحة والأشياء التي يجب أن نعتبرها خطأ ؟ بطبيعـة الحال فـان المشكلة تكمن في قصة ابـراهيم (ع) التي ذكرناهـا سابقـاً ، وهي معتقدات المجتمـع الذي نعيش فيـه وطريقـة الحياة التي يحيـاها النـاس ، والتي يقاومـون أي تغيير لهـا . ويبدو أن معـظم الناس يتقبلون المفـاهيم والأفكار السـائدة في مجتمعـاتهم والتي يتربـون عليها بـدون منـاقشـة ، وبـدون أي تساؤل فيـما اذا كانت هـذه المعتقدات صحيحـة أم لا . وقد يكـون السبب هو أن الناس يجدون هذه المعتقـدات تتماشى مـع طريقـة حياتهم ، وهي كذلك دائماً لأن المعتقدات هي التي تقرر طريقة الحياة والتي يـرثونها من المجتمـع هي الأخرى ، ويعتبرونها صحيحة ، أو على الأقل ، لا خطأ فيها وليس هناك ما

يوجب تغييرها . وعندما لا يمحص الناس الأخلاق السائدة في المجتمع ، فان هذه الأخلاق تدخل الى حياتهم بسهولة ويتعودون عليها ، وتصبح جزءاً من المعتقدات . وهنا تكمن الخطورة .

وينشأ الناس وهم يعتبرون المَساويء الموجودة في مجتمعاتهم على أنها امور عادية ومقبولة ويجب التعايش معها ، حتى وإن كانت لا يقبلها العقل والمنطق . وبنفس الوقت يعتبرون مساويء المجتمعات الأخرى على أنها مخالفة للعقل وغير مقبولة ، وأحياناً ظواهر غير حضارية يجب رفضها . وهذه طريقة حياة تُحرِّك الناس في معظم المجتمعات ، خاصة الأوربية . وأحياناً فان الأوربيين يرفضون كل شيء يجدونه عند مجتمعات العالم الثالث التي يعتبرونها متخلفة دون نقاش ، ويعتقدون أنها يجب أن تتعلم كل شيء منهم وأنها لا تمتلك ما هو مفيد ، عدا خيرات أراضيها ، وفي نظرهم ان هذه المجتمعات غير قادرة على الاستفادة منها . ويعتقد الأوربيون أن اناس العالم الثالث أقل تحضراً منهم وأقل تقدماً (أو بالأحرى ان احبارهم جعلوهم يتصورون هكذا والنتيجة واحدة بطبيعة الحال سواء كانوا هم يعتقدون ذلك أم أنهم جُعِلوا يعتقدون ذلك) . ويحس الأوربيون بعقدة الاستعلاء تجاه العالم الثالث ، وهذه العقدة مغلفة بالجهل العميق لطبيعة الانسان والتاريخ . والقصة التالية توضح هذه المسألة . في احدى المهمات لدراسة الصحراء العربية التي قام بها مجموعة من العلماء البريطانيين ، يقول هؤلاء العلماء انهم عندما وصلوا الى الصحراء كانوا يلبسون ملابسهم ذات الطراز الغربي في البداية ، ولكنهم اكتشفوا بعد فترة قصيرة ان ملابسهم لا تلائم جو الصحراء والعواصف الرملية الموجودة في مثل هذه المناطق ، لذا فانهم بدلوا ملابسهم الى ملابس خفيفة وفضفاضة ، ولكنها لم تكن ملائمة هي الأخرى أيضاً . واستمروا في تبديل ملابسهم حتى بدأوا ، وبعد بضعة أشهر ، يلبسون نفس ملابس البدو . وعندئذ فقط ، وهو ما يثير التساؤل ، ادركوا أن البدو لم يلبسوا تلك الملابس الا لأنها الوحيدة التي تلائم تلك البيئة ، والتي تحميهم من

قساوة الظروف الجوية في الصحراء . وبطبيعة الحال فان البدو كانوا قد توصلوا الى هذه الملابس قبل آلاف السنين ، ولم يكن تخلفهم السبب في لبس الملابس العريضة والبسيطة ، كما ظن أولئك العلماء ، ولكن الطبيعة هي التي أملت عليهم ذلك . ولنفس السبب (وهو الطبيعة) تختلف ملابس الأمم تبعاً لطبيعة الظروف . فنشاهد مثلاً ان سكان المناطق الجبلية يلبسون السروال الثقيل لكي يقيهم البرد . فالانسان ذكي ما فيه الكفاية لكي يعرف كيف يحمي نفسه ، ولكن العلماء البريطانيين « المتحضرين » لم يدركوا ذلك في البداية . فهل كانوا يجهلون هذه الحقائق البسيطة وهم الذين بدأوا رحلتهم لدراسة الأمم الأخرى ؟ أم هو اعتقادهم الذي رزقه مجتمعهم في عقولهم منذ الصغر بأن المجتمع البدوي المتخلف لا يملك شيئاً من العلم يقدمه لعلماء بريطانيا المتحضرة ؟ ولكن كيف يسمح المجتمع الذي يدعي التحضر لشيء كهذا أن يحدث بالرغم من كونه مخزياً ومشيناً للفكر البشري وللانسانية المتحضرة ؟ والأنكىٰ من ذلك انه يحدث دون وعي العلماء . فهل ان هناك غشاً وخداعاً في المعلومات المقدمة لهؤلاء الناس عن الشعوب الأخرى ؟ وكم هم مخدوعون ؟ ومن هو الذي يخدعهم ؟ واذا ادركوا أنهم مخدوعون ، فهل يستطيعون حقاً أن يصححوا أنفسهم ومعتقداتهم وطريقة حياتهم ؟ انني أشك في ذلك . فالناس في العادة لا يكترثون كثيراً ، وتسوقهم الحياة وهم لا يشعرون وخاصة اذا كانوا مرتاحين في حياتهم . والأوربيون يحسون بالتحضر زيفاً ، خاصة عندما يرون الصح ولكنهم يستمرون على الخطأ .

وأَحَدُ أعمق أنواع الخداع الذي يعاني منه الأوربيون منذ نشوء الفكر الأوربي الحديث، ويلهث وراءهم في ذلك من بهرتهم الصورة الأوربية المثالية الخادعة التي يرسمونها لهم، هي قصة الخليقة التي يزعمونها في عصرنا الحاضر . وبعد التخلي عن الكنيسة فان الأسئلة التي يطرحها المفكرون منذ فترة هي نفس الأسئلة التي طرحها الناس على مر التاريخ عندما لم يؤمنوا بالله . فيقولون كيف

أتى كل شيء الى الوجود ؟ ولماذا ؟ وبالنسبة للبعض الذين تجرفهم مشاكل الحياة ومتطلباتها فانهم يشعرون بأن الموضوع كله لا يستحق الاكتراث . وهؤلاء تائهون ، لا يعلمون ، ولا يريدون أن يعلموا ، وهم[1]﴿ **كالأنعام بل أضل سبيلاً** ﴾ . فهم يرون أن الانسان يحيا ثم يموت ولا تبدوا هناك أي غاية في الموضوع . فنحن نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم مرة اخرى . وفي الواقع أن القول بأننا نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم بحد ذاته يثير السؤال : من هو هذا الذي يأتي من العدم ثم يذهب الى العدم ؟ لأننا نعلم أن أجسادنا تتكون من التراب وعندما نموت فان التراب يرجع الى التراب . الجواب الوحيد هو أن المقصود بذلك هو (الأنا) ، أو الروح . وبطبيعة الحال فان العدم بموجب التعريف لا يتحول الى وجود وإلا فأنه ليس عدماً ، ولا الوجود يتحول الى عدم وإلا فانه ليس وجوداً ، ولذا فان القول بأننا نأتي من العدم ثم نرجع إليه قول غير منطقي ويتضمن في طياته التناقض المرفوض الذي يجعله خطأ محضاً .

وبنفس الوقت الذي يرفض فيه بعض الناس الأوربيين فكرة الخالق ، فان بعضهم يتمسك بها . والذين يرفضون فكرة الخلق (والكلام عن أوربا) يعتبرون الذين يتمسكون بها متخلفين . ولكنه ليس تخلفاً أن يستعمل هؤلاء الرافضون لفكرة الله اللغة التي طورها المجتمع على مر العصور ، وليس تخلفاً اعتبار تلك الشناعات الوحشية التي اقترفتها مجتمعاتهم بحق الانسانية على أنها مجد وحضارة يتشدقون بها ، وليس تخلفاً أن يرثوا عنصريتهم ضد الآخرين من الناس لا لسبب معقول إلا لأن ألوانهم تختلف ، ولكن عندما تصل المسألة الى الخالق ، فان التمسك بهذا الميراث تخلف وخرافة الماضي . وبالنسبة لهم فان افتراض الصدفة كأساس لخلق الكائنات الحية منطقي وعلمي . وهذا الوجود

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٤ .

العظيم للمخلوقات ليس سوى عدداً هائلاً من الصدف الغريبة ، التي هي اغرب من الخيال . ولكن ذلك الاحتمال الواحد الذي يقول ان الله هو الخالق ليس علمياً ، وصدفة غير محتملة الحدوث اطلاقاً . وأنه منطق مقبول لكثير من العقول العلمية والمفكرين المشهورين ، أن عدداً لا نهائياً من الصدف حدث لانتاج الكائنات الحية المتنوعة ، ولكن هذه الصدفة الواحدة التي تقول ان الله خلق الانسان مرفوضة رفضاً كلياً وتعتبر تفاهة مستحيلة . ولنأخذ الفيلسوف (برتراند رسل) على سبيل المثال ، فهو يذهب الى تفاصيل دقيقة وكثيرة لكي يبرهن أن الله ليس موجوداً ، ولكنه يؤمن بأن الكائنات الحية جاءت بطريقة الصدفة دون أن يجهد نفسه العناء في كتابة جملة واحدة لتبرير معتقده هذا ، فهو ، وبكل بساطة ، يقول[١](قد يبدو غريباً أن تحدث الحياة بواسطة الصدفة ، ولكن في عالم واسع كهذا فان الصدفة تحدث) . وهو يضع كلامه هذا وكأن الصدفة تعتمد على الحجم ، لا على الأسباب أو الظروف . ورأيه هذا شبيه بالقول (قد يبدو غريباً أن يولد طفل اسود في عائلة للبيض بواسطة الصدفة ، ولكن في عدد كبير للبيض كالموجود على الأرض فان الصدفة تحدث) . فهل نستطيع أن نعتبر هذا القول مقبولاً علمياً ؟ أليس الواقع هو أن هناك أسباباً وقوانين صارمة تحكم كون الانسان أبيض أو اسود ، وليس الصدفة التي تجعلهما هكذا . و (رسل) هنا ، وبخلاف الطريقة التي يطرح فيها آراءه عادة ، يؤكد رأيه باستعمال فعل التأكيد (تحدث) بدلاً من القول (قد تحدث) ونحن نعتقد انها حيلة سيكولوجية لكي تبدو القضية وكأنها حقيقة واقعية لا جدال فيها ! . و(رسل) يذهب الى التأكيد على قضية الصدفة أكثر من ذلك بالقول[٢](ان العالم الذي نعيش فيه يمكن فهمه على أساس أنه نتيجة لصدفة ملخبطة ، ولكنه اذا كان حصيلة غاية متعمدة ، فان هذه الغاية لا بد وأنها غاية

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٣ .

شيطان مريد . وبالنسبة لي فانني أجد الصدفة أقل ألماً ، وفرضية اكثر معقولية) . يا له من انحطاط وإهانة للفلسفة وللعقل البشري !! فيلسوف يتمسك برأي بهذه الصلابة دون أن يعطي أي تبرير منطقي له ، ولكن مجرد شعور وأحاسيس . وهذا الرأي يجعل اندفاعه وراء تأكيد فلسفته الالحادية التي قضى حياته يلح في وعضها واضحاً ، ومع ذلك فانه يقول في اماكن أخرى اننا يجب أن نبحث عن الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة .

ولكن ما الذي يزيح التوازن الفكري للناس بهذه الطريقة الغريبة نحو رفض فكرة وجود الصانع لهذا العالم المتناهي في التعقيد والتنظيم ؟ انني اعتقد أن الكنيسة مسؤولة ، ولو جزئياً ، عن ذلك . فما الذي يمكن توقعه من عقيدة محرفة شوهها الانسان على مر العصور . وانه لواضح مما كتب (رسل) عن المسيح والمسيحية انه وجد صورة المسيح التي تُصوِّرها العقيدة المسيحية غير مقبولة على الاطلاق . ولأن المسيحية هي الدين الوحيد المتيسر له ، فانه رفض فكرة الله لأنه رفض المسيحية التي وضعها الانسان لا الله . وهذا هو نفس السبب الذي أدى الى انتشار موجة الالحاد التي اكتسحت أوربا بعد تقدم الاكتشافات العلمية الحديثة وتحرير الانسان الأوربي من القيود التي وضعتها حوله الكنيسة لقرون طويلة . وهذه الموجة امتدت الى انحاء كثيرة من العالم معيدة معها الوثنية الى مسرح الحياة من جديد ، ولكنها في هذه المرة أكثر خطورة من العصور البالية ، لأنها جاءت مبطنة باسلوب فلسفي انتهى بالبشرية الى الدمار تحت المعتقدات المادية الظالمة .

ولما لم تستطيع الكنيسة تبرير معتقداتها التي تعارضت مع العلم ظهرت مقولة جديدة تزعم أن العقل لا يستطيع أن يصل الى معرفة الله ، ولكن الوصول الى الله يكون بواسطة القلب والحب ، وبواسطة نور يرميه الله في قلب الانسان فيحس به ويؤمن . و (رسل) يذكر ذلك بقوله[1] (ان البروفسور

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٥ .

ج . س . هـالدين يـزعم « انه ضمن أنفسنـا فقط ، وبـواسـطة مُثُلنـا الفـاعلة للحقيقة والصح والالهام والجمال والألفـة مع الآخـرين ، التي تلي ذلـك ، فاننـا نجـد الهام الله » . والـدكتور مـالينوسكي يقـول ان « الالهام الـديني ، وكمسألـة مبدأ ، عبارة عن احساس يقع ما وراء حقل العلم »). ونحن نتساءل لماذا دُفِـعَ هؤلاء الـذين يؤمنون بـالله الى الخلف ، وحوصـروا في زاوية لا يُحسـدون عليهـا وهم يحملون فقط هذه الادعاءات المختَـرَعَة المهـزومة والمهينـة في معركتهم ضـد الالحاد ؟ السبب في ذلك هـو أنهم لم يجدوا في معتقـداتهم ما يكفي لاسنـادهم .
وهنـا ، وكما هـو واضح ، فـان الكنيسة قـد ألغت عقول اتبـاعهـا في معـركتهم وتركت الملحدين بكامل عقولهم النشطة ، وبـذلك وضعت فكـرة الله في موضـع متراجع . كيف يستطيع القلب أن يفـوق العقل في معـرفة قضيـة بهذه الخـطورة والأهميـة كمسألـة الخلق التي تطلبت المعجـزات من الأنبياء لاقنـاع الوثنيـين في الأزمان الغابرة ؟ وهل يمتلك الانسان أداة أفضل من العقل للوصول الى حقيقـة الأشياء ؟ فالعقل هو الأداة الوحيدة التي خداعها للانسان أقـل ما يمكن . وليس من الـواقع في شيء أن نقـول أن الإيمان بـالله هـو شيء في القلب فقط . وإذا لم نستطع التوصل الى معرفة الله بواسطة العقل والمنطق فان قلوبنـا بالتـأكيد سـوف لن يكون المعول عليها لهذه المهمة . لأنه اذا كان الله ذلك العقـل الجبار ، وهـو الذي خلقنا ، واذا كانت عقولنا أفضل الأدوات التي وهبنا اياهـا ، وإذا كان من المفروض فينا أن ندرك وجود الله ، فـان العقل هـو بالتـأكيد الأداة المعـول عليها لهـذه المهمـة . واذا لم نستـطع أن نتـوصـل الى الهـدف بـاستعمـال هــذه الأداة الفعالة ، فانه من غـير المعقول ، بـل ومن المستحيل ، التـوصل اليـه بأداة أقـل قـدرة من العقل ، وهـو القلب ، فالعقـل يجب أن يكون متفـوقاً عـلى القلب في اعـطاء أي حكم عادل ، خـاصة اذا كـانت القضيـة تخص الخلق ، وإذا كـانت عقولنا عاجزة عن التوصل الى معرفة الله فان ذلك معنـاه ان الله خلقنا محـدودين بحيث اننا لا يمكننا معرفته وبنفس الوقت طلب منا معـرفته ، وفي ذلـك تناقض وظلم ، وحاشى لله ذلك . فالانسان يمتلك عقلاً مقتدراً نـزل بعيداً في الأعمـاق

الـداخلية لـلانسان ، وذهب بعيـداً الى عمق الفضاء الخـارجي ، وانـه من غـير المفيد أن يُخلَق مخلوق بهذا الذكاء ويُتـرَك في جهل تـام عن الخالق ، خـاصة وان هـذا المخلوق يمتلك اهتمامـاً كبيرا جـداً لمعرفـة أصل وجـوده . وفي الواقـع أن الأكثر احتمالاً هو أن هذا الاهتمام لمعرفـة الأصل ، ولكـونه بهـذه الشدة ، هـو جزء لا يتجزأ من كينونة هذا المخلوق ، ويبدو أنـه متأصـل فيه وكـأنه جـزء من وجوده وفطرته . ان حواسنا لا يمكنها أن تتعدى تحسس الأشياء المادية ، وقلوبنـا ليست منطقية ، وهي متحيزة في معظم الأحيان ، والعقل هو الأداة التي أوصلت الانسان الى نظرية المعرفة بأكملها .

وقـد قيل أن أحـد الملوك البرابـرة الوثنيـين غزا بـلاد المسلمين في الشـرق الأقصى في غابر الأزمان ، فطلب أن يحضر كبير علمائهم . ولمـا حضر طلب منه الملك أن يرى الله الذي يعبـده قائـلاً : ـ غدا ، وأمـام الجند والنـاس ، ستريني الهك الذي تعبده ، وان لم تفعل ضربت عنقك .

وفي اليوم التالي ، وأمام جمع كبير من الملأ ، جيء بالرجل التقي ، وامتثل بين يدي الملك ، فقال له الملك : ـ أرني الهك الذي تعبده .

فـأخرج الـرجل التقي كـرتـان مسقـولتـان ويمتلكـان نفس اللون والحجم ووضعهما على منضدة أمام الملك ، وقال للملك : ـ اخبرني يا صاحب الجلالة ، هل ترى من اختلاف بين الكرتين .

فنظر اليهما الملك وتفحصهما بيده ولســانه وأنفـه ، فلم ير فـرقاً ، وقـال : ـ كلا لا أجد أي فرق بينهما فهما متشابهتان تماماً .

وعند ذلك قال الرجل التقي : ـ ارفعهما يا صاحب الجلالة .

فرفعهما الملك ، وكـانت احداهمـا أثقل من الأخـرى . واحدة من حـديد

والأخرى من الخشب . عندها قال الرجل التقي للملك : ـ والآن ، هل ترى من اختلاف .

فأجاب الملك بالإيجاب ، فسأله الرجل التقي : ـ ومن أخبرك بذلك .

قال الملك : ـ عقلي .

فرد عليه الرجل التقي : ـ انه نفس العقل الذي أخبرك بوجود الاختلاف بين الكرتين عندما فشلت حواسك اخبرني بوجود الخالق .

فأيقن الملك وأسلم ، وأسلم معه من أسلم من الجند والأعيان .

وقيل في الأخبار أيضاً أن رجلاً مر بعجوز طاعنة في السن وهي تصلي ، فسألها : ـ كيف عرفت وجود الله .

فأجابت : ـ ان البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير أفسماء ذات أبراج وبحار فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير .

وهذه الروايات ، سواءاً كانت حقيقية أم قصصاً لأولي الألباب ، توحي لنا بمسألتين .

الأولى أن العقل قادر على التوصل الى معرفة الله تعالى اذا استعمل بصورة صحيحة وهذه حقيقة لا جدال فيها ، فقد قال رسول الله (ص) : العقل دليل المؤمن . والثانية هي ان الله لا يمكن تحسسه بحواسنا ولكن يُستقرأ وجوده من اثره ، وهو الخلق . وهذان الدعامتان ، العقل والاستقراء ، هما اللتان أوصلتا الانسان الى الاكتشافات والعلوم الحاضرة حيث انه من الحقائق الثابتة ، على سبيل المثال ، ان العلماء لم يسخنوا الحديد الموجود في الكون بأكمله لكي يضعوا قانونهم القائل أن الحديد يتمدد بالحرارة ، ولكنهم أجروا تجاربهم على بعض الحديد فاستقرأوا هذا القانون من ذلك بواسطة استعمال قوانين العقل وبديهياته . ولعل من المهم جلب انتباه القاريء الى أن أولئك العلماء الذين يقولون أن الانسان تطور من خلية يستعملون نفس الدعامتين ، العقل

والاستقراء . فهم وجدوا بعض المتحجرات والهياكل العظمية ، ومعظمها ناقصة ، فاستقروا نظرياتهم . وهذا الاستقراء هو ما يجب علينا تمحيصه . فالنظريات لا زالت غير مكتملة كما سنرى ، وهناك الكثير من النقائص فيها .

ولنأخذ مثال رجل غرق في البحر وأغمي عليه ولكنه لم يمت ، فنقل الى مستشفى معينة . فاذا استيقظ الرجل من غيبوبته ، فهل له من سبيل لمعرفة اي مستشفى تلك التي يرقد فيها . أو كيف جاء اليها ؟ بطبيعة الحال ليس هنالك سبيل لذلك الا اذا أخبره أحد يعرف ، أو انتظر حتى يخرج من المستشفى ليستكشف الموضوع بنفسه . ولكن هل أن تصوراته داخل المستشفى عن مكانها وكيفية مجيئه اليها تضير الحقيقة شيئاً أو تغير منها ؟ ان هذا المثال يوضح لنا السبيل الى معرفة كيفية مجيئنا الى هذا الوجود . فأما أن يخبرنا من يعرف بواسطة رسالة مفهومة من الخارج ، أو اننا ننتظر حتى نخرج من هذا العالم لكي نعرف . ان معرفتنا محدودة كمعرفة ذلك الرجل في المستشفى . ولكن الخطورة تكمن في كون الطريق غير ذات رجعة .

ولعله من باب الاطلاع على امور البشر وتفكيرهم أن نذكر قصة نمرود ، أحد أباطرة بابل ، الذي طلب أن يُبنىٰ له صرحاً عالياً لكي يصل الى اله ابراهيم ويقاتله ، فكان يرمي السهام الى السماء . وعندما سُأل كاكارين ، رائد الفضاء السوفياتي الأول الذي خرج الى الفضاء ، عن رأيه بوجود الله بعد أن رأى ما لم يره انسان قبله ، فأجاب بأنه لم ير الله . وأنه لواضح أن عقل رائد الفضاء « المتحضر » لم يذهب أبعد من عقل الامبراطور البربري كثيراً بالمقارنة مع فضاء الكون الشاسع ، فكلاهما تصوراً أن الله جسم مادي . الأول يريد أن يقتله والثاني يريد أن يراه . وحتى لو كان الله جسماً مادياً لاستطاع أن يهرب من سهام نمرود ويتحاشىٰ عيني رائد الفضاء ، ان شاء هو ذلك . فيا عجب كيف تفكر هذه الانسانية الضالة .

وبعيداً عن نمرود وكاكارين ، هناك مفكرون جهدوا أنفسهم في التفكير في مسألة الخلق ، وبطريقة أكثر لياقة من طريقة نمرود وكاكارين . فقد تساءل الانسان ، ومنذ القديم ، عن جوهر الوجود وأصله . ومن أين أتى كل هذا الذي نراه ؟ ومن الذي خلقه ؟ وما هو هذا الخالق وأين يوجد ؟ ثم نظر الانسان الى نفسه وشخصيته وقدراته وتساءل عنها كثيراً ، ما هو الألم وما هو الحزن وما هو الحب وما هي الكراهية ، وما هو العقل ؟ ولما لم يستطع الاجابة على كثير من الأسئلة بسبب غياب المعلم الصحيح وصلت به المتاهة الى حد أنكر معه وجود نفسه . ووصل به الشك الى كل زاوية حتى بدأ يشك في معاني اللغة التي اخترعها هو كأداة للتعبير عن رغبته وإرادته . وتكونت مدارس فكرية عديدة ، منها المادية التي لا تؤمن بما وراء المادة ، ولذا فقد أنكرت وجود الخالق لهذا الكون بدون اعطاء تفسير لأصل الوجود . وأفكار هذه المدرسة سائدة في عصرنا هذا ، فكثير من الناس يؤمنون بالله ولكنهم بنفس الوقت يعيشون حياة مادية ، أي أنهم لا يلتزمون بالمعتقد ، وهذا يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : ما هي فائدة الايمان بأي قضية اذا لم يلتزم المؤمن بها وإذا لم تؤثر على حياته ؟ في الواقع أن المؤمن في هذه الحالة يحيل العقيدة الى شيء لا معنى له .

والمدرسة الفكرية الأخرى هي المدرسة المثالية التي وصل الأمر ببعض مفكريها الى انكار الوجود المادي ووضعوا كل شيء في شك . وبهذا شك الانسان حتى في وجوده وفي معنى الوجود نفسه ، وشك في أبسط البديهيات العقلية وبذلك أغلق الطريق على نفسه لمعرفة الحقيقة . حيث اذا سلكنا طريق الشك لاثبات الوجود سوف تطرح أسئلة كثيرة نفسها بمجرد سلوك هذه الطريق الوعرة ، لأن الشاك بوجوده ان لم يكن هو موجوداً فمن هو ذا الذي يحاول أن يجد الجواب لهذه الاسئلة ؟ وان شك بوجود ومعاني الكلمات فمن هو لكي نصدق كلماته وادعائه الشك ؟ ومن نحن وما هي الأهمية عندئذ سواءاً صدقنا أم لم نصدق ؟ وان لم نكن موجودين فلماذا هذا العناء طوال هذه السنين

لمعرفتنا ؟ ومن هو ذا الذي يحاول أن يعرفنا ؟ انه ليس موجوداً ولا نحن موجودين فأغلق الكتاب وليس من حقك أن تطلب شيئاً أو تقول كلمة ، ودع ما يحدث أن يحدث لانه ليس هناك ما يحدث أو أي شيء موجود سواءاً حياً أم ميتاً . ودع الفوضى تسود لأنه ليس هناك فوضى . انه العدم التام .

وفي هذه المتاهة ضاعت جهودٌ انسانية كثيرة . فقد حاول (ديكارت) الفيلسوف الفرنسي أن يبدأ بداية تصور أنها الأساس ، فقال انني أشك في وجود كل شيء عدا شيئاً واحداً وهو ذلك الشيء المفكر ، الانا ، فقال : أنا أفكر لذا أنا موجود . ولكنه ان كان يشك في وجود كل شيء كان الأجدر به أن يشك في وجود اللغة التي استعملها لأنها ليست موجودة قبله ، وقبل تفكيره ، لذا فليس من حقه أن يستعملها ويقول مقولته المشهورة « أنا أفكر لذا أنا موجود » لأنه ليس هناك لغة بعد ، فاللغة تأتي بعد وجوده ولم يكن شيئاً موجوداً بعد . وعلى أي حال ، عليه أن يثبت وجودها ثم يعرّفها ويعطيها المعاني قبل استعمالها . والمسألة الأخرى التي تشكل خطأ في تفكير (ديكارت) هي استعماله المنطق للبرهان على وجوده بالقول « أنا أفكر لذا أنا موجود »، وهي مختصر للجملة « أنا أفكر ، وكل مفكر موجود ، لذا أنا موجود »، فقد اعتبر (ديكارت) ان المنطق موجود وان قوانينه صحيحة ، ولكنه لم يخبرنا كيف أتى المنطق الى الوجود ومن برهن صحته حيث انه لم يثبت حتى وجوده بعد .

عندما استعمل (ديكارت) المنطق فانه افترض ما يلي ضمنياً :

- ان اللغة موجودة ، ولذا استعملها للتعبير عن أفكاره .
- ان المنطق موجود وقانينه صحيحة ومقبولة .

لذا فان (ديكارت) عندما تصور بأنه يشك في كل شيء لم يكن صادقاً في تصوره لأنه لم يشك في كل شيء . وفي الحقيقة انه لم يشك في وجود أي شيء على الاطلاق ، بل انه معترف بوجود كل شيء ضمنياً وإن لم يشعر . وانه من

الواضح ان (ديكارت) عندما شك في وجود كل شيء قد وضع نفسه في سجن صنعه لنفسه ولا يمكنه الخروج منه ليخبرنا من هو . ان طريق الشك مغلوقة ولا تؤدي الى حل المشكلة . وبالرغم من أن (ديكارت) حاول جاهداً أن يبرهن صحة اعتقاداته إلا أنه لم يكن ناجحاً تماماً في ذلك . ومع ذلك فانه قدم كثيراً للفلسفة ، وعلى الأقل أننا نعرف الآن أن طريق الشك لا توصلنا الى شيء .

وقد انتقد (برتراند رسل) ديكارت بالقول أن الجملة « انا أفكر لذا أنا موجود» ليست سوى عبارات غير مترابطة ولا علاقة لبعضها ببعض لغوياً. فهو يقول[1](ان الأنا التي تم اثبات وجودها قد استُدِلَّ عليها من حقيقة أنا أفكر لذا أنا موجود اثناء التفكير ، وفقط عند ذلك . واذا توقفتُ عن التفكير فلن يكون هناك ما يدل على وجودي) . ثم يستطرد فيقول[2](أنا أفكر هي فرضيته النهائية(*)، وهنا فان الكلمة « أنا » هي في الحقيقة غير شرعية ، وكان عليه أن يصوغ فرضيته النهائية على شكل « توجد افكار ». ان « الانا » ملائمة نحوياً ، ولكنها لا تصف حقيقة مُسَلَّم بها . وعندما يذهب الى القول « انا شيء يفكر » فانه مسبقاً وبتمييز ضعيف يستعمل أدوات المقولات المعطاة مسبقاً من قبل السكولاستية(**). وهو لا يبرهن في أي مكان أن الأفكار تحتاج الى مفكر ، وليس هناك سبب يدعونا الى تصديق ذلك بادراك نحوي) .

ونحن في الواقع لا نرى مكاناً لاعتراض (رسل) على مقولة (ديكارت) . فهو يتكلم عن فترة زمنية تأتي بعد الفترة الزمنية التي يتكلم عنها (ديكارت) الذي لم يقل أبداً انه يكفي أن تفكر « الأنا » مرة واحدة لكي تكون

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص٥٤٨ .

(٢) انظر نفس المصدر، ص ٥٥٠ .

(*) اي ديكارت .

(**) السكولاستية فلسفة نصرانية سادت في العصور الوسطى (فلسفة المدرسيين) . ,

موجودة الى الأبد . وواضح من مقولة (ديكارت) ان ما عناه هو أن « الأنا » موجودة ما دامت تفكر . و (رسل) يؤكد رأيه السابق في انتقاد (ديكارت) بالقول[1] (ولكن هناك حاجة الى بعض الانتباه في استعمال حجة ديكارت . « انا أفكر لذا أنا موجود » تقول أكثر مما هو مسموح به على النحو الصارم . وقد يبدو وكأننا متأكدين من كوننا نفس الشخص اليوم كما كنا أمس ، وهذا بدون شك صحيح على نحو معين من الادراك . ولكن النفس الحقيقية صعبة المنال كما هي الحال مع المنضدة ، ولا يبدو أنها تمتلك اليقين المطلق المقنع الذي يخص ادراكات معينة . فعندما انظر الى منضدتي وأرى لوناً بُنيّاً معيناً ، فان ما هو أكيد في لحظتها هو ليس انني أرى لوناً بنياً ولكن بالاخرى « ان لوناً بنياً تتم رؤيته » . وهذا بطبيعة الحال يتضمن شيئاً (أو شخصاً) يرى اللون البني ، ولكنه بحد ذاته لا يتضمن ذلك الشخص الدائم نوعاً ما والذي نسميه « الأنا »، وبالنسبة للحد الذي يصل اليه اليقين ، فقد يكون ذلك الشيء الذي يرى اللون البني وجيز الوجود الى حد بعيد ، وليس نفس الشيء الذي يمتلك ادراكاً مختلفاً في اللحظة التالية) . و (رسل) هنا يتكلم عما اذا كانت « الأنا » مستمرة الوجود أم لا ، وليس عما يتكلم عنه (ديكارت) الذي يصف وجود « الانا » عندما تكون في حالة التفكير لأي فترة زمنية مهما كانت متناهية في الصغر . ان مسألة ما اذا كانت هذه الأنا هي نفسها في الفترة الزمنية المتناهية في الصغر اللاحقة أم لا مسألة أخرى . ومن الواضح فان (رسل) يعتبر الظواهر التي تكوّن « الأنا » على أنها متغيرة مع الزمن ، ولذا فانه يشك في أن تكون الانا اللاحقة هي نفسها الأنا السابقة . ويبدو أنه متأثر كثيراً جداً باكتشافات الفيزياء النووية التي تقول ان كل شيء في تغير دائم ودوري . ولكن الفيزياء تتكلم عن الأشياء المادية وليس عن الأشياء اللامادية . ويتضح أن (رسل) يفترض انطباق قوانين الفيزياء على الوجود الذي ما وراء الطبيعة ، او على الأقل فانه يستنتج التشابه . وقد لا

---

(١) انظر المصدر ٢٩، ٨ .

تكون الحالة كذلك لأن الوجود الذي ما وراء الطبيعة أكثر أساسية من الوجود المادي . واذا كانت الأنا ، وكما يقول (رسل) ، تتغير مع الزمن ، فان ذلك معناه انه توجد فترة زمنية بين الأنا الأولى والأنا الثانية لا يوجد خلالها شيء ، أي يحدث خلالها العدم المطلق . والعدم لا يمكنه أن ينتج أي شيء . واذا انعدمت الأنا فلن يكون بامكانها الرجوع الى الوجود . واذا تحطمت الظواهر المكونة للأنا ، واجتمعت مرة أخرى لكي تكوّن أنا أخرى فسوف ينفقد كل شيء ، والأنا الثانية سوف لن تتذكر الأنا الأولى . لان تحطيم جميع الظواهر المكونة للأنا والذاكرة ثم اعادة تجمعها مرة أخرى لتكوين أنا أخرى وذاكرة أخرى مشابهتين تماماً للأنا الأولى والذاكرة الأولى عملية معقدة جداً وغير ضرورية ، ويصعب تصورها . من ذلك يتضح انه ليس هناك تحطيم وتجميع للأنا . وعلى كل حال فان (رسل) لا يعترض على وجود الأنا المفكرة أثناء عملية التفكير . لذا فانه في الواقع لا يعترض على مقولة (ديكارت) ، ولكن ، ولأجل الجدال ، فانه ينغمس في موضوع آخر يختلف كلياً عما يريد (ديكارت) ان يقول ثم يحاول ربط هذا الموضوع الى مقولة (ديكارت) . ويمكن القول انه طالما أن (رسل) قبل هذه المقولة في الأصل فان المشكلة يمكن حلها بصياغة مقولة اضافية هي « انا استمر بالتفكير لذا أنا مستمر في الوجود » . والتوقف عن التفكير هو التوقف عن الوجود ، كما يريد (رسل) أن يفضي الينا ، وهو الموت . واذا فرض (رسل) رأيه علينا بالقول أن الظواهر المكونة للأنا تتغير خلال فترات معينة من الزمن سواءاً كنا مستمرين بالتفكير أم لا ، فانه سوف يخالف موقفه الأول الذي قبل فيه صيغة (ديكارت) الأولى والتي أضاف اليها بالقول أنك اذا أحسست بأي احساس فانك موجود . وعند ذلك فان السؤال الذي يطرح نفسه هو : كم صغيرة هذه الفترة الزمنية التي توجد ، أو لا توجد ، خلالها الأنا ؟ وبطبيعة الحال لا يمكن أن يوجد هناك اتفاق على شيء كهذا لأنه بامكاننا تصغير الفترة الزمنية التي لا توجد خلالها الأنا الى الحد الذي

تصبح فيه صفراً ، وبذلك نحصل على الأنا المستمرة في الوجود(*) .

والاعتراض الثاني الذي اعترضه (رسل) على (ديكارت) هو ان (ديكارت) كان عليه أن يبرهن وجود الأفكار . وهذا صحيح ، إلا أن الأفكار هي الأخرى ليست حقائق مُسلّم بها لأنها ليست مجموعة من الظواهر موضوعة بنمط نظامي معين ، وبذلك فانها تحتاج الى من يقوم بعملية التنظيم . والأفكار لا تصنع الأنا ولكن الأنا هي التي تصنع الأفكار . ذلك لأن الأفكار ليست أفكاراً قبل تنظيمها ، بل عبارة عن ظواهر متشتتة . لذا فان طلب (رسل) من ديكارت أن يصوغ افتراضه على أساس الأفكار وليس المفكر تفاهة تامة ، لأن المفكر بالضرورة يأتي قبل الأفكار كما يأتي الباني قبل البناء .

ان (رسل) لم يبرهن خطأ (ديكارت) باعتراضاته ، ولكن الخطأ في تفكير (ديكارت) هو شكّه الذي تصوره اسلوباً صحيحاً لمعرفة الحقيقة والوصول الى هدفه .

والمشكلة التي يعاني منها الفلاسفة في تفسير الوجود تكمن في اعتمادهم على المعلومات والاكتشافات العلمية المتوفرة في زمانهم ، والتي قد لا تكون صحيحة . والمثال على ذلك الأثير الذي استعمله (ديكارت) لتفسير استمرارية واتصال الوجود . ولما اكتُشِف ان الأثير غير موجود انهارت نظريته . ومثال آخر (ماركس) الذي اعتبر نظرية (دارون) في تفسير أصل الانسان صحيحة ، واعتقد ان الانسان تطور من الحيوانات الدنيا التي هي بدورها نشأت وتطورت من المادة . ولذا كان ذلك دلالة على عدم وجود الله بالنسبة له . و (ماركس) بطبيعة الحال ، وكثير من الذين لا زالوا يتمسكون بهذا الاعتقاد ، اعتبروا فكرة التطور حقيقة بالرغم من أنها لم تكن سوى استقراءاً مبتوراً استُنتج من ملاحظة التشابه بين الكائنات الحية . وحتى (برتراند رسل) الذي لام الفلاسفة على

(*) انظر الفصل الثاني عشر لمزيد من التفصيل .

اعتمادهم على الاكتشافات العلمية في زمانهم ، والتي اتضح أن كثيراً منها كان خطأ ، وقع في نفس الخطأ عندما بنىٰ افكاره على أساس العلم وقوانين الفيزياء ، وكان كثير التأثر بنظرية التطور الداروينية . فهو يقول[1] (يقال ان هناك ثلاث مراحل من التطور حدثت : المادة ، والحياة ، والعقل ، وبذا فليس هناك سبب يدعونا لافتراض أن العالم انتهى من التطور) .

ان استقراء فكرة التطور لم يأخذ بنظر الاعتبار الفروق الكثيرة الموجودة بين الكائنات الحية . وبدلاً من ذلك فانه ركز على الصفات والظواهر المشتركة بينها ، والذي يجعله استقراءاً ناقصاً . وبسبب انه لم يأخذ الموضوع من كل جوانبه فلا يمكن اعتباره استقراءاً مقبولاً . وان اعتماد (ماركس) على نظرية لم يقم البرهان القطعي على صحتها يجعل نظريته المادية تقف على أساس ضعيف ، وقد لا يكون هناك أساس على الاطلاق . وقد برهن العلم حديثاً أن المادة ليس سوى خاصية واحدة ، أو وجهاً واحداً من وجوه الوجود ، وليست الوجود كله . ولكن الماركسيين لا زالوا يؤمنون بمعتقدهم .

وعن التطور ، فاننا نعرف الآن أن (دارون) كان على خطأ في كثير من الأشياء ، وكان من الضروري تصحيح نظريته للحفاظ على فكرة التطور . وظهرت حديثاً نظريات تفند نظرية التطور كلياً .

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٤ .

الفصل الثالث

تأثير نظرية التطور على الفكر المعاصر

لم تكن قضية صعبة بالنسبة للأوربيين الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة قبول الفكرة القائلة ان الله أرسل ولده الى الأرض على هيئة انسان يحمل رسالة للبشر . فبالنسبة لأولئك الوثنيين من عبدة الأصنام كانت الفكرة اعتيادية ومقبولة تماماً . ولذا فان القديس بولص نجح في جذب اتباع أكثر من القديس بطرس الذي اعلن أن بولص منافق . وكان الاختلاف الرئيسي بينهما هو قضية كون عيسى ابن الله أم لا . ويتضح أن القديس بولص هو الذي طرح هذه الفكرة الا أن القديس بطرس عارضها . ولكن لم يكن أحد ليسمع المسكين بطرس (وهو أحد الحواريين) الذي قضى معظم حياته في زنزانة تحت الأرض أعدها له الرومان .

وكان لبولص ما أراد . فالمسيحيون أعلنوا أن عيسى ابن الله ، وهكذا أصبح . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً للبعض ، وكان لا بد من تبرير هذه الفكرة . لذا قيل أن الناس في فلسطين سمعوا صوتاً صادراً من السماء يقول « ان عيسى ولدي »، أو هكذا يقولون . ولكن لماذا احتاج ابن الله الى صوت يصدر من السماء ليؤكد هويته ؟ ألم يكن باستطاعته أن يبرهن للناس على ذلك دون الحاجة

الى صوت يصدر من السماء ؟ واذا كان كذلك فأي اله هذا الذي لا يستطيع فعل شيء بسيط كهذا ؟ ثم بعد ذلك قيلت قصص كثيرة . وحاولت الكنيسة التمسك بهذا الاعتقاد على مر التاريخ . وبهذا الصدد يقول (برتراند رسل)[1](لقد كان القديس سيريل متألماً عندما علم أن القسطنطينية قد زاغت عن الطريق بواسطة تعاليم بطريركها نستوريوس الذي آمن بوجود شخصين في عيسى ، احدهما انسان والآخر اله . وعلى هذا الأساس فان نستوريوس اعترض على ممارسة تسمية العذراء « ام الله » . فهي ، كما قال ، ام للشخص البشري ، بينما الشخص الالهي ، الذي هو الله ، ليس عنده أم . وعلى هذه النقطة انقسمت الكنيسة : بصورة عامة ، أساقفة شرق السويس فضلوا نستوريوس ، بينما اولئك الذين كانوا غرب السويس فضلوا سيريل . ولذا فقد دُعي الى اجتماع مجلس شورى كَنَسي في افيساس عام ٤٣١ م لاتخاذ القرار بشأن الموضوع . وقد وصل الأساقفة الغربيون أولاً ، وأغلقوا الأبواب بوجه الذين جاءوا متأخرين ، وقرروا على عجل ساخن من أمرهم على رأي سيريل الذي توجه بالشرف قائلاً « ان هذه الفتنة الكنسية ، وعلى مسافة ثلاثة عشر قرناً ، تفرض الوجه الحساس لمجلس الشورى الكنسي المسكوني الثالث . . وفي عام ٤٤٩ م ، وبعد وفاة القديس سيريل ، حاول مجلس السنودس(*)في افيساس أن يحمل النصر الى أبعد من ذلك ، وبذلك وقع في بدعة معاكسة لتلك التي وقع فيها سيريل . وهذه البدعة تسمى بدعة وَحْدِ يَطْبيعِي(**)، وتقول أن المسيح يمتلك طبيعة واحدة . . . . وعلى الأقل فان البابا ليوفي في عام معركة الشالون استطاع عقد اجتماع مجلس الشورى المسكوني في شالسيدون عام ٤٥١ م ، والذي أدان الوَحْدِيَطْبيعيون ، وقرروا نهائياً عقيدة

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(*) مجمع كنسي

(**) المذهب القائل ان المسيح طبيعة واحدة.

التجسد(*) الارثدوكسية ، وقد قرر مجلس شورى افيساس انه يوجد شخص واحد للمسيح ، ولكن مجلس شورى شالسيدون قرر أن المسيح يوجد في طبيعتين ، واحدة بشرية وواحدة الهية . وكان تأثير البابا عظيماً لضمان هذا القرار) . ومن هذا يتضح ان ادعاء عيسى ابن الله هو من صنع الانسان .

ولكن يبدو أن مجيء وذهاب ابن الله لم يحقق معجزة اصلاح البشرية المتوخاة ، وبدلاً من ذلك فانه عُذِّب بكل وحشية ولم يحدث شيئاً لأولئك الذين عذبوه أو للأرض ككل . وانه من حقنا أن نتوقع أن يحب الله ابنه أكثر من حبه للبشر ، وبذلك نتوقع أن يتخذ الله عملاً ما ضد أولئك الذين عذبوا ولده على أقل تقدير . ومن حقنا أيضاً أن نتوقع أن المسيح ، اذا كان ابن الله كما يزعمون ، وعندئذ فانه اله أيضاً ، يجب أن يكون باستطاعته أن يتجنب اعداءه على الأقل ويهرب منهم . واذا قلنا انه لم يفعل ذلك متعمداً ، لأي سبب كان ، فان ذلك سيكون أسوأ مثال لاتباعه ، لانه يدعو الناس عملياً لتقبل العذاب والاضطهاد حتى لو كانوا قادرين على تخليص أنفسهم منه . فأي اله هذا الذي يطلب من أتباعه أن يخضعوا الى أعدائهم حتى عندما يكون بامكانهم تجنبهم . وهذا ما لم يفعله أي أحد من معتنقي العقيدة على مر التاريخ . وعلى كل حال ، بدلاً من انقاذ الأرض فان ابن الله يبدو وكأنه فشل في مهمته الأولى وتراجع في معركته ضد البشر ، ولذا فانه سيعود ثانية في زمن أكثر ملائمة ليحقق ما لم يستطع تحقيقه في المحاولة الأولى . وكأن الله وابنه يخضعان للزمن .

لماذا ارسل الله ولده في ذلك الوقت بالذات ، وماذا كان يحدث عندئذ ؟ وهل ان ما حدث من ظلم قبل ذلك أو بعده لم يكن بالشدة التي تتطلب نزول ابن الله من السماء ؟ ان التاريخ يخبرنا بأن الانسان اقترف جرائم قبل وبعد ظهور عيسى أبشع مما كان يحدث آنذاك . فهذا هتلر وذاك موسليني ، وستالين

(*) اتحاد الالوهية والناسونية (اي الانسانية) في المسيح .

ونابليون وغيرهم من الطغاة . وها هم اليهود الصهاينة يقترفون أبشع الجرائم في فلسطين ، أكثر من ذي قبل بكثير . فلماذا لا يرسل الله ابنه مرة أخرى ، أو أحد ابنائه لتصحيح الوضع ؟ وهل ان لله ولداً واحداً أم عدة اولاد ؟ فطالما انه يمتلك ولداً فما الذي يمنع من امتلاكه عدة أولاد ؟ وما هو الشيء الذي أنجزه عيسى ولم يستطع عليه الأنبياء ؟ في الواقع أن الأنبياء الآخرين مثل موسى وداود وسليمان كانوا أكثر نجاحاً من عيسى في تشييد وأدامة دول حكمت بما أنزل الله . وقد نتوقع أن يتمكن ابن الله من تحقيق أكثر مما تمكن منه الأنبياء ، أكثر بكثير ، أو انه يسبب تغييراً جذرياً في حياة البشرية . ولكن الذي حدث هو أن عيسى وأتباعه عاشوا في الخفاء لعدة سنوات ، ثم القي القبض على عيسى وعذب وهاجر اتباعه هرباً من الموت .

ان ترقيع الكنيسة الدائم لمعتقداتها لم يكن ناجحاً في يوم ما . وقد حكمت الكنيسة في أوربا خلال العصور الوسطى واقترفت جرائم بشعة ، أفظع بكثير من تلك الحال ثار ضدها عيسى . واسوأ ما كان فيها انها اقتُرفت باسم الله والمسيح . وبطبيعة الحال فان الخطأ لم يكن في الله ولا في عيسى ، ولكنه في تفسير الانسان للرسالة السماوية بموجب ما تشتهي نفسه . وعندما بدأت الكنيسة تضمحل كدولة لم يستطع الناس ان ينفصلوا عنها كلياً . لذا فانهم انفصلوا عن روما تدريجياً مؤسسين مذاهب وتجمعات أخرى . وهذا ، سوية مع الاكتشافات العلمية التي بدأت تبيّن زيف المعتقدات الكنسية ، شجع الناس على التمرد ضد الكنيسة ، ثم ضد الدين ككل .

عندما تخلى الأوربيون عن الكنيسة ، ثم عن الدين ، ما هو البديل امامهم ؟ ولماذا رفضوا فكرة الله كلياً ؟ وهل كان الرفض لله أم للكنيسة ؟

في الواقع ان الناس في أوربا تخلوا عن الكنيسة لأنها لم تعد قادرة على تبرير معتقداتها التي عارضت العلم ، ولأن الناس ، وبعد ارتفاع المستوى الفكري لديهم ، أصبحوا لا يقبلون ما يقال لهم . وأي فكرة لا تلاقي الاقبال

مـا لم تبرر نفسهـا بطريقـة أو بأخـرى لجذب بعض العقـول اليها . ولا يمكن في الوقت الحاضر اجبار فكرة ما على الناس . وطريقـة القديس بـولص لا يمكن أن يكتب لها النجاح الآن .

وفي غيـاب عقيدة سمـاوية أخـرى ، فان البـديل الـوحيد أمـام المفكرين الأوربيـين كان رفض فكـرة الله والاتجاه نحـو عالمهم المـادي وحياتهم اليـوميـة . وبذلك بـدأت الأفكار المـادية تنتعش ، وكـان ذلك قبـل ظهور (مـاركس) على مسرح الأحداث واختلاق نظريته الشيوعية بكثير ، فقد ظهرت نظريات التـطور قبل ذلك والتي كان لها الأثر الكبير في اسناد الأفكار الماركسية .

ان ظهور فكرة التطور لم تكن سوى خـطوة طبيعية في الفكـر الأوربي بعد رفض الكنيسـة ومعتقداتهـا ، لأن السؤال اصبح : اذا لم يكن الله مـوجوداً فمن أين أتينا ؟ وبطبيعة الحال ليس هناك جواب غير القول اننا جئنا من الأرض التي تحتنا . ولكن كيف ؟ لا بد وأننا بدأنا صغاراً وأقل تعقيداً ثم تطورنا : اذن فهـو التطور ، الفكرة السحـرية التي حلت المشكلة . ذلـك لأن القول بـأننا جئنـا كما نحن عـلى هيئتنـا يتبعـه القـول انـه يجب أن يكـون هنـاك من صنعنـا . وهـذا الاستنتـاج يمثل جـريانـاً طبيعياً لهـذا الأسلوب من التفكير لأنـه ليس معقـولاً أن نتصور اننا ظهرنا الى الوجود فجأة على هيئاتنا كما نحن بطريقة الصدفـة . وهناك كثير من الملاحـظات التي سندت فكـرة التطور ، وكـل ما نحن بحـاجة اليـه هو النظر الى الكائنات الحية الأخـرى . وكانت الفكـرة التي اكتسحت رؤوس عقلاء أوربا هي انه ليس المهم الآن أن نبـرهن على كـل شيء مرة واحـدة . ولذا فـاننا سـوف نقبل الفكـرة أولاً ثم نحاول أن نجـد الأدلة عـلى صحتهـا بعـد ذلـك . وهكذا اقنع المؤمنون بفكرة التطور أنفسهم ، خاصـة بعد أن أصبحـوا متأكـدين من أن فكرة الله والمسيح ليست سـوى خرافـات من الماضي . وفي الـواقع ليس هناك من مسلك كان باستطاعة الفكر الأوربي أن يسلكـه . فقد وصـل الى نهاية مسدودة . والنظر الى السماء لم يعط الجواب فـاضطر الأوربي أن يـدير وجهـه الى

الاتجاه الوحيد المتاح له ، وهو الأرض . فجاء (دارون) في الوقت المناسب ، ومعه بدأ عصر جديد ، فقد أخرج الرجل الأوربي من مأزقه واعطاه فرصة جديدة ، وأملاً جديداً ، للبحث عن أصل الخليقة ، ولكنه لم يعط الجواب تماماً . وظهور (دارون) وفكرة التطور لم يكونا مسألة عفوية ، وكما يقول (جفري كودمان)(*) ان الوضعية كانت ناضجة لظهور فكرة التطور ولو لم يأت بها (دارون) لاتى بها غيره ، فقد كان (أَلْفْرَيد والاس) يعمل في نفس الموضوع ويحمل نفس الفكرة الا أن (دارون) سبقه في طبع كتابه عن القضية .

وقد غزت نظرية التطور الفكر البشري لأكثر من قرن من الزمان ، ولا زالت تسيطر على جانب كبير من هذا الفكر . ولما كان الاستنتاج المباشر لهذه النظرية هو ان آدم لم يُخلق كما تقول الأديان السماوية فان ذلك معناه ان الأنبياء كذبوا وان كذبهم ساد منذ القديم . أما الآن ومع التنوير العلمي في عصرنا الحاضر فان هذه السفاهات يجب أن تتوقف . فليس هناك انبياء ولا الله ، والأنبياء ليسوا سوى رجال مصلحين تقمصوا شخصيات مقبولة في ذلك الزمان وملائمة للتأخر والتخلف السائد حينئذ . وبذلك فان هذه النظرية كانت الدعامة المهمة والسند القوي لظهور المادية الحديثة . وتقول النظرية أن الكائنات الحية بدأت من خلية واحدة (أو عدة خلايا متشابهة) كانت قد انبثقت من المادة تحت ظروف خاصة وبطريقة الصدفة . على أن النظرية لم توضح كيفية تجمع المادة بالنِسَب الدقيقة للمكونات المختلفة المطلوبة لتكوين الخلية ، وكيفية ظهور الحياة . وكل شيء يخص الحياة ، وهو الجزء المهم في الموضوع ، يبقى على شكل افتراضات غامضة لا يمكن قيام البرهان عليها . وقد تمسك الماديون بالنظرية على أنها صحيحة لأنها لائمت أفكارهم ودعمت نظرياتهم في تفسير الوجود ، وأقوى برهان على ان الله ليس موجوداً . ولكن هؤلاء نسوا أن النظرية نفسها لا تقودنا بالضرورة للتأكيد على عدم وجود الله لان احتمال أن الله هو الذي أوجد

(*) انظر المصدر ١٠ .

الظروف للخلية الأولى لكي تنبثق يبقى ممكناً ، وليس هناك ما يبرهن على بطلان هذا الاحتمال . كما ويبقى السؤال عن أصل المادة الميتة نفسها ، والتي أتت منها الخلية ، بغير جواب ، ولا تستطيع النظريات المادية ونظرية التطور الدارونية أن تفسر أصل المادة ومن أين أتت فكلها تقف عند هذا الحد، عند المستحيل .

وقد يكون مناسباً هنا أن نذكر ان التفسير الذي أعطاه (دارون) وغيره من التطوريين للتشابه الذي يمكن ملاحظته بين الكائنات الحية ليس التفسير الوحيد الممكن أو الموجود . وسوف نتوسع في هذا الموضوع في الفصول القادمة .

وبالرغم من أنه ليس كل الناس شيوعيين ، إلا أن كثيراً منهم لا يؤمنون بالله . وحتى اولئك المؤمنين بالله فان ما يؤمنون به لا يخرج الى حيز التطبيق ليؤثر على حياتهم وطريقة معيشتهم فهم لا يمارسون عقائدهم على الواقع العملي ، وبدلاً من ذلك فانهم يعيشون حياة مادية لا تختلف كثيراً عن حياة الملحدين . والسؤال الذي نحن بصدده هو كيف أثرت فكرة التطور على تفكير الناس وحياتهم ؟ وهنا يمكن القول أن التطور قد ساهم في جذب الناس نحو الالحاد والمادية أكثر من ذي قبل ، وجعل بعضهم يفكر بالطريقة التالية : دار نقاش بيني وبين أحد الأشخاص حول موضوع الخليقة ، وكان هذا الشخص لا يستطيع اتخاذ القرار فيها اذا كان الله موجوداً أم لا . وهذه الريبة والعجز في التصديق ظاهرة عامة بين الناس في وقتنا الحاضر ، خاصة في أوربا . وللوصول الى نتيجة معه وضعت قلماً على الطاولة وسألته : ـ هل تتفق معي ان هذا القلم جاء على الطاولة بنفسه بواسطة الصدفة ؟

فكان جوابه : بالتأكيد كلا .

فسألته : ولم لا ؟

فأجاب : غير ممكن ، العقل لا يستطيع أن يقبل هذا الافتراض .

فقلت : حسناً ، وماذا عن هذه المنضدة ، هل تتفق معي أنها أتت بنفسها ؟

وباستعمال نفس المنطق كان جوابه : كلا .

فقلت : وماذا عن هذه الغرفة ؟

وكان الجواب نفسه : كلا ، لا بد وأن أحداً بناها .

عندها قلت : وهذه المدينة التي نعيش فيها ، هل جاءت بنفسها ؟

وجاء نفس الجواب : كلا .

ثم سألته : وهذه البلاد التي نعيش فيها ، هل بالامكان انها جاءت بنفسها بطريقة الصدفة ؟

قال : كلا .

وهنا سألته السؤال الأخير : وهل أتت الكرة الأرضية الى الوجود بنفسها ؟

فجاء الجواب المدهش : لا اعلم . . . . ربما !!

وواضح أن منطقه لم يستطع أن يخترق المسافة العظيمة لحجم الأرض . وهذا مفهوم لأن الكرة الأرضية كبيرة الحجم . ولكن الشيء المثير للدهشة هو أن نفس هذا المنطق بامكانه أن يخترق مسافة أعظم من الأرض ليصل الى خالق الأرض فينكر وجوده . وهذه اللااستمرارية أو الانفصال في التفكير مقبولة جداً وتعتبر منطقية عند الناس المتعلمين وذوي العقول العلمية في مجتمعاتنا الحاضرة . وأنا لا اعلم ، فقد يكون هناك تعريف للعلم والمنطق نحن لم ندركه بعد .

وبصدد انكار وجود الخالق يقول (رسل)[1](منذ زمن دارون ونحن نفهم بصورة أفضل لماذا تكيفت الكائنات الحية الى ظروفها . وانه ليست الظروف التي جُعِلت ملائمة لها ، ولكنها هي التي نمت لتلائمها ، وهذا هو

(١) انظر المصدر ٦٢٧ ص ١٧ .

أساس التكيف ، ولا توجد أدلة على الصنع فيها) . ويبدو أن (رسل) كان على عجل من أمره في اتخذا قراره بشأن هذه القضية المهمة ، وكأنه وجد ما يسعف فلسفته الملحدة ، فمبدأ الانتخاب الطبيعي ، وهو الذي يشير اليه في عبارته السابقة ، تم التخلي عنه من قبل مدعي التطور أنفسهم ، حيث وُجِد انه لا يفي بالغرض ، وبذلك أصبح من الضروري تغيير رأي (رسل) تغييراً جذرياً .

وبعد افتراضه بأن المبدأ أعلاه صحيحاً ، فان (رسل) يسأل السؤال التالي :[1](لماذا فضل الخالق الوصول الى غايته بواسطة عملية تدريجية بدلاً من الذهاب اليها مباشرة ، ان هؤلاء اللاهوتيين الحديثين لا يخبروننا) . ولكن وكما سنرى ، ان الله ذهب الى غايته مباشرة وليس خلال عملية تدريجية كما يزعم (رسل) . فالأدلة الحديثة تبين أن الانسان الحديث ظهر فجأة على الأرض على هيئته الحاضرة ، واضعاً فكرة التطور بأكملها في قفص الاتهام . واذا كان (رسل) يفترض صحة التطور بدون أدلة كافية فماذا يستطيع اللاهوتيون اخباره ؟ ان كل ما يستطيعون أن يقولون له هو أن الله خلق الانسان والكائنات الحية الأخرى ، وهو يأبى قبول ذلك . والسؤال الذي يخطر على الذهن هو : هل أن التطور استطاع أن يفعل كل هذا لعقول الناس ؟ أم ان الناس هم الذين تمسكوا بفكرة التطور بسبب ضياعهم العقائدي ؟ وهل أن فكرة التطور جعلتنا أكثر انسانية ، أم اكثر انانية ؟

قد يقول علماء التطور ان هذا لا يهمهم فهم يهتمون بالحقائق العلمية ، والحقائق العلمية وحدها ، الا أن هذا ليس صحيحاً لأنهم لم يحصروا أنفسهم ضمن نطاق الحقائق والاكتشافات العلمية فقط ، وإنما تعدوها الى الادلاء بآرائهم وطرح استنتاجاتهم ونسجوا نظرية عن الوجود اعتماداً على بعض العظام

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ص ١٨٠ .

والمتحجرات التي وجدوها بواسطة التنقيب . وعند التمعن في الموضوع بصورة موضوعية ، فانه من الصعب على المرء أن يتصور أن تفسير أصل هذه الظاهرة العجيبة (الحياة) يكمن في مجموعة من العظام والمتحجرات .

ونتيجة للايمان بفكرة التطور فقد ظهرت نظريات غريبة عن الأجناس البشرية . منها نظرية تقول أن الانسان الأفريقي متطور على باقي اجناس البشر وأنه أرقى أنواع البشر في حلقة التطور بسبب وجود الأدلة التي تشير اليها نظرية التطور ، على حد زعم تلك النظرية ، مع انه ليست هناك أدلة حضارية تسند هذا الادعاء ، بل الملاحظ أن أجناس البشر الأخرى كانت أفضل حظاً في تشييد الحضارات سواءاً المادية أم الفكرية ، والتاريخ يزخر بذلك . ولو كان الانسان الأفريقي هو المتطور لوجب أن يكون أحسن حظاً في تشييد حضارات تفوق حضارات الأجناس الأخرى ، والا فما معنى التطور نحو الأحسن !! وهؤلاء يضربون لنا أمثالاً بأن تجمعات بشرية قديمة وبدائية كانت في افريقيا ويُعتقد أنها أول تجمعات بشرية في التاريخ .

ولكن السؤال هنا لماذا لم تَسُد تلك الحضارات وتتطور اذن ؟ خصوصاً وأن الذي أنشأها هو الانسان الأرقى كما يزعمون ! ونحن هنا لسنا بصدد الحط من انسانية وكرامة الانسان الأفريقي ومقدرته على تشييد الحضارات ، فهو لا يختلف عن غيره من أجناس البشر ولا فرق هناك ، ولو توفرت له الظروف لاستطاع أن يشيد حضارات مماثلة لتلك التي شيدها الآخرون . ولكننا هنا بصدد توضيح زيف هذه المزاعم التي لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة التاريخية الأخرى . ونحن نرى كم أن هذه النظرية تناقض أفكار (نيتشة)(*)والنازية التي تمخضت عن أفكاره والتي أدت الى تدمير أوربا بحجة أن الانسان الآري هو الانسان الأرقى وهو الذي يجب أن يرث الأرض بعد تدمير وانهاء الأجناس البشرية

(*) الفيلسوف الالماني.

الأخـرى ، حيث اعتبر (نيتشـة) ان الانسان ، وبمـا أنه يمتلك الـوعي يجب أن يقـوم بعملية التـطور نحو الأرقى بصـورة واعيـة[**]، وذلـك بـابـادة الأجنـاس الأخـرى الأقـل تـطوراً بـواسـطة القـوة . و (هـربـرت سبنسر) ، الفيلســوف الانكليزي ، سماها « البقاء للأصلح » وهي نفس مقولة « الانتخاب الطبيعي » التي قالها (دارون) ، ولكـن بطريقة أخـرى . والنازيـة أكدت عـلى ان الانسان الآري هو الأكثر تطوراً ، وهو الذي يجب أن ينفذ هذه المهمة . والنازية وضعت الانسان الافريقي في أسفل سلم التطور ، وهذا يبين تناقضها مـع تلك النظريـة التي زعمت ان الانسـان الأفـريقي هـو الأكـثر تـطوراً ، بـالـرغم من أن كـلا النظريتين مشتقتان من نفس فكرة التطور .

وما فعله النازيون لم يختلف كثيراً عما فعله الانكليز أيـام الملكة فكتـوريا . و (جفري كودمان) يقول[1](انه من المؤسف ، في انكلترة ـ فكتـوريا المتـزمتة ، أن تسـود أفكار دارون عن النـاس ذوي الجلد الـداكن ، والتي أعـطت أسـاسـاً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون اعطى أساساً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون أعطى أساساً منـطقياً كـاذباً من نـاحية علم الاحيـاء ، ومظهـراً علمياً خـادعـاً ، لـلأوربيـين الـزاحفـين الى أراضي آسيـا وافريقيا والبـاسفيـك غـير المستغلة لنهب أنـاسهـا ومواردها . . . . وعلى التوالي فسر المستعمرون مهمهاتهم على أنها كانت لتحضير سكان تلك البلاد ، أولئك المتخلفين التعساء الذين هم في الـدرجة الـدنيا عـلى سلم التطور . لذا فان الملكة فكتوريا لم تبدي اي حرج عندما اغتصب سيسيـل رودس[***]جنـوب افريقيا وسرق امبـراطوريـات القبائـل السود ، من مـاسهم وذهبهم) .

(**) انظر كتاب هكذا تكلم زرادشت ـ نيتشة .

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(***) مؤسس روديسا، الان زائير.

ويبدو واضحاً أن أصل المشكلة يمكن الرجوع به الى فكرة التطور . فعندما ننظر الى التقسيم الذي وضعه (دارون لأجناس البشر (وقد يكون يكون بسبب تأثير عنصريته هو نفسه) نرى التشابه الملفت للنظر بين هذا التقسيم والطبقات التي وضعها النازيون لأجناس البشر على سلم الرقي الذي وضعوه ، على حد زعمهم . ويقول (كودمان) ان (دارون) كان يؤمن انه في التطور فان[1] (الارتقاء من الأشكال البسيطة الى الأشكال المعقدة حتمي . وتحت هذا المفهوم فان أنواع الانسان تسلقت على سلم التطور من الأسود الى البني الى الأصفر الى الأبيض) . وهذا هو نفس التقسيم النازي ، الا أن النازية عرضته بشكل اكثر تفصيلاً . ويستطرد (كودمان) فيقول[2](وبطريقة غير علمية تماماً اعطى دارون مغزى تسلسلياً لأجناس البشر المختلفة) . وهذا المغزى لا يتفق مع الحقائق التاريخية لحضارات وادي الرافدين ومصر أيضاً ، والتي أخذ منها (دارون) ، والانسان الأبيض ككل ، دينه ومُثُله وقيمه الخلقية المستمدة من تعاليم المسيح (ع) . والتفسير الوحيد للسلم الذي وضعه (دارون) للأجناس البشرية بهذا الشكل هو عنصريته المتأصلة ، والا فما معنى أن يطرح عالم في الاحياء فكرة كهذه ؟ ومن يعتقد أن النازية مسألة ألمانية بحتة فانه مخطيء ، لأن النازية ليست سوى وجهاً من وجوه هذه العنصرية البغيضة للانسان الأبيض ضد الملونين والتي ظهرت في المانية على شكل النازية ، وفي أمريكا على شكل القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناكازاكي ، وفي افريقيا على شكل عنصرية بغيضة ضد سكان البلاد السود الاصليين ، وقبل ذلك في استراليا فانقرض سكانها الاصليين (الابرجنيين) ، وفي امريكا ، فانقرض الهنود الحمر . وعنصرية (دارون) الذي كان ينتمي الى الطبقة الاستقراطية في انكلترا يمكن تحسسها من اعتراض زوجته (آني) على دفن عالم

---

(١) انظر المصدر ١٠، ص ٤٥ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٥ .

الاحياء الانكليزي « أَلْفْرَيد رسل والاس »، الذي كان صديقاً لدارون ولكنـه لم يكن ارستقـراطيـاً ، اعتـرضت عـلى دفنـه بجـانب قبـر (دارون) في كنيسـة ويستمنستر . ويخبرنا (كودمان) انه[1](كانت هناك طلبـات بأن يُـدفن بجانب دارون في كنيسة ويستمنستر ، ولكن « آني » زوجـة دارون رفضت ، وبذلـك تم دفنه في التراب الانكليزي الذي كان يحبه حبـاً جماً ، وبـدلاً من ذلك نُصبت لـه لوحة تذكارية في كنيسة ويستمنستر تبعد خطوات عن قبر دارون) . وطبعـاً فان السبب الـوحيـد الـذي يمكن التكهن بـه لـرفض « آني » دفن « والاس » قـرب (دارون) هـو لانه ليس من الـطبقة الاستقـراطية ، والا فـما هـو الاعتـراض ؟ والملاحظ أن هؤلاء الناس كانت عنصريتهم بشعـة الى حد أنها طـالت الطبقـات الأخـرى من شعـوبهم ، والتي اعتبـروهـا أقـل منهم منـزلـة . ولم يكن علم « والاس » وعقله يشفعان له . ولم تنظر اليه « آني » عـلى أنه عـالم جليل ، ولكن مجرد فرد من الطبقات الدنيا ، ويبقى وضيعاً في نظرهـا مهما ارتقى ، بحيث انـه حتى عند الموت لا يستحق الدفن قربهم . هكذا هم الذين جـاءونا بهـذه الفكرة التي لم يستطع العلم تبريرها لحد الآن .

وهناك نظرية غريبة تمخضت عن فكرة التطور ، وقد جاء بها (بييرتايلهارد دي شاردين)[*]الذي كان عالم احياء وقسّاً بنفس الوقت . ونظريته تقول انـه ، وباستمرار التطور ، فان البشرية سوف تتكامل الى مخلوق واحد . والبشرية تسير باتجاه توحيد البشر بأجمعهم الى مجموعـة واحدة مشتـركة ـ التفكـير . ويبرر (دي شاردين) آراءه بالقول ، لما كانت الطاقة قد تـطورت الى مادة ، والمـادة تطورت الى حياة ، والتي بدورها تطورت الى العقل والارادة ، فان الخطوة المقبلة ستكون تـطور عقول الجنس البشـري بأكمله الى وحـدة عضويـة واحـدة حيث سيعمـل

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(*) انظر المصدر ١٩ .

الناس بتآلف وتوافق نحو هدف واحد بالضبط كخلايا الجسم الواحد . وواضح أن هذه النظرية تصلح أن تكون فلماً من أفلام علم الخيال أكثر مما هي تأملات علمية . ويبدو أن (دي شاردين) غافل تماماً عن حمامات الدم والمذابح البشرية على مر التاريخ ، وعن عنصرية قومه البيض في افريقيا الجنوبية . أو لعله غير مكترث ، فهو يبدو كالانسان الذي يعيش في عالمه الخاص ولا يعلم ما حوله . وأنه لمن الغريب أن نرى قسّاً يؤمن بفكرة التطور المخالفة لتعاليم كتابه المقدس ، انه تناقض يرقد في شخص واحد . لا بد وأن هذا الشخص كان تعيساً ، أو انه لم يكن طبيعياً ، أو ليس قسّاً حقيقياً ، لأنه من الصعب فهم كيف ان هذا الرجل استطاع التوفيق بين الانجيل والتطور . فاذا آمن بالتطور فانه لم يؤمن بالانجيل الذي يقول أن الله خلق آدم على هيئة الانسان ، وبذلك فانه ليس قساً حقيقياً . وعلى أي حال ، فان (دي شاردين) لم يخبرنا في نظريته عن تصوراته للهدف من وراء تكامل العقول البشرية .

ولكي يتضح لنا تأثير فكرة التطور على عقول العلماء الأوربيين ومفكريهم دعنا نرى الالماع المخيف في رأي (بيجورن كورتين) الذي لا يلاحظه معظم الذين يقرأون كتابه . فبأسم علم الاحياء ، ولاجل التطور المقدس ، يقول[1](ان البحث في علم الأحياء يفك الرموز الجينية وقد يصل في المستقبل الى النقطة التي نستطيع عندها أن نبدأ بالسيطرة على تطورنا بصورة مباشرة ، بدلاً من الطريقة المؤلمة والملتوية للانتخاب الاصطناعي أو الطبيعي) . اذن فهو ينادي بطريقة أقل ألماً لتقدم الانسان من الناحية البيولوجية . ولكن ما هي هذه الطريقة الأقل ألماً ؟ يستطرد (كورتين) فيقول (ان جميع الكائنات في الطبيعة على قرن مأزق : أنها تحتاج الى انتخاب للحفاظ على الصحة وقابلية الحياة . ولكن الانتخاب مؤلم للفرد . فلو استطاع الانسان أن يحرر نفسه من المعضلة ،

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

فانه سيكون قد ربح الحرية الحقيقية ـ وهذه ستكون حالة فريدة في تاريخ الحياة على الأرض) . انها وبلا شك رائحة نازية . فهو يسمي منع الناس عن ممارسة حقوقهم الغريزية وامتلاك الأطفال بأنه تحرير واعتاق . وهذه الحقوق يحتفظ بها لأقلية معينة (وبدون شك ستكون هذه الأقلية هي الرجل الأبيض ، أو بالأحرى أقلية منهم وليس كلهم) . وما لم يمكن انجازه بواسطة الابادة للأجناس البشرية قد يمكن انجازه بواسطة الاقناع وغسل الأدمغة . وهذه الدعوى لا تمثل الا طريقة قديمة وخادعة للظلم والاضطهاد ، ولكن هذه المرة لكل الأجناس ، وليس لبلد أو أقلية . يا له من تفكير مظلم وجنوني .

فالانسان يجب أن يحصل على الحرية الحقيقية بتحرير نفسه من انسانيته. أليس هذا هو ما تتضمنه كلمات الرجل ؟ (وكورتين) يتحدث عن خطر ازدياد السكان الكبير في البلدان المُعدَمَة والتي قد تكتسح الانسان المتحضر ، فيقول[٢](عند التحرك أكثر الى داخل مناطق المُعدَمين ، نجابه اشكالاً جديدة للاقعاد أو الموت بواسطة العنف . وهنا فانه الحرمان الذي يصبح العامل الرئيسي ، وفي المقام الأول ، فانه الجوع . . . ومعدل الولادات العالي يوازَن بواسطة معدل وفيات أعلى ، خاصة بين الأطفال ، واذا استمر الاتجاه الحاضر ، فقد تحدث هذه الوفيات بتكرار اكثر) . وهنا فانه يتكلم عن العنف والمجاعة والجوع وكأن هذه الأشياء ظواهر طبيعية ، أو ان أولئك الناس الجائعين غير قادرين على زراعة أراضيهم . وهو بذلك يتغافل عن التدخل السياسي المتعمد في البلدان المُعدَمَة بواسطة القوى العظمى لضمان مصالحها الانانية . وكعالم من العلماء كان الأجدر به أن يعي الوضعية الحقيقية السائدة في هذه المناطق من العالم ، والتي تُفرَض بالقوة المصطنعة ، وليس بالتطور الطبيعي أو البيولوجي ، واذا كانت هذه هي الحالة السائدة فانه من الطبيعي أن تحصل المجاعة المتكررة . ولكن ما بال أولئك المتحضرين المتطورين ذوي الحظ السعيد والثروة

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٩ .

الـوفيـرة لا يهبّـوا لمساعـدة الجائعـين ؟ وأين الانتخاب الـطبيعي عندمـا يمـوت الأطفـال من الجوع ؟ وهـل سيعيش الطفـل الأوربي اذا تعرض للمجـاعة ؟ أي كائن حي سيعيش اذا تعرض للجوع ؟ ولكن لا حول ولا قوة الا بالله !!

ويستمر كورتـين بالقـول[1](وعندمـا تزداد أعـداد هؤلاء السكان ، فـان الجـوع يميل الى التسـابق في المقدمـة ، وذلـك لأنـه بنفس الـوقت تُمتص المـوارد الطبيعية بالاستغلال الوحشي بمظاهر عديدة . . . واذا أصبح الجـوع هو العـامل الرئيسي للابقاء على عدد السكان واطئـاً ، فلربما أن الأفـراد الحَذِقـين والأنانيـين فقط هم الذين يبقون ، وبذلك يعطون جيناتهم كميراث الى أجيال المستقبل) . ونحن نتساءل ماذا حدث للوجه الانساني للبشريـة ، الا تمد الشعـوب المتحضرة يد المساعـدة ؟ وماذا عن الشعـور الانساني للنـاس الذين تصيبهم المجـاعة ، الا يساعد بعضهم بعضاً ؟ وهل ان المجاعة تلغي الشعور الانساني والعقول المنطقية والثابتة الى الـدرجة التي يتحـول فيها كـل الناس الى وحـوش فيبقى منهم الأناني فقط لأنه سوف يأخذ كل شيء لنفسه ؟ انه يصور هؤلاء الناس وكأنهم أقرب الى القرود لمجرد أنهم لا يمتلكون التكنولوجيا التي كان قومه السبب في حرمـانهم منها بالقوة والتقتيل والابادة . وعلى أي حال ، أي تطور هذا الـذي يأمـل أن يكون الأناني هو الباقي والمزدهر ؟ أليس هذا هو الرجوع الى الوراء بـالتطور وليس الى الامـام ؟ ونحن نتساءل ، لـو أن بلداً مثل انكلترا التي لا تمتلك الا القليـل من الموارد الطبيعية ، لو أن العالم توقف عن تصدير الأغذية اليها ، الا تحدث مجـاعة كتلك التي تحدث في البلدان المُعدَمَة ؟ الا يبين هذا الوضعية الزائفـة السائـدة في البلدان المُعدَمَة ؟

ويستمر (كورتـين) بالقـول[2](طالمـا ان جزءاً واسعـاً من العالم في حـالة

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٥٩ .
(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦٠ .

حرب مستمرة تقريباً ، فان هذا النوع من الانتخاب في عمل وتأثير) . ونحن نتساءل ، هل ان هذا يعني أن أوربا أنهت عملية الانتخاب الخاصة بها بسبب الحروب التي مرت بها ؟ وكيف يكون القتل من مسافة بعيدة بواسطة الآلة الحربية المشتراة أو المستعارة من الآخرين انتخاباً طبيعياً ؟ فقد يُقتَل رجل قوي بواسطة رجل ضعيف يضغط على نابض المدفع . وماذا عن الحرب النووية التي تقتل كل الأحياء ؟ كيف يفسرها التطور ؟ اننا لا نرى في رأي الرجل الا دعوة حاقدة الى تغذية الحروب لقتل الملّونين والحفاظ على الجنس الأبيض من أن يصبح أقلية صغيرة في هذا العالم . فالقتل والابادة هما الاسلوبان المناسبان لا غيرهما .

اذا كانت هناك لعنة نزلت على الأرض في هذه الحقبة الزمنية فانها فكرة ذلك الرجل الذي طرح مفهوم التطور الذي استغلته المادية لاسناد نظرتها التي بدلت الانسان الى وحش متمدن .

وانه ليس من الشمولية ان نتصور الوجود كله بانه ما نحس به فقط . فهناك أشياء كثيرة توجد في عالمنا ولكننا لا نستطيع تحسسها ، كالأشياء البعيدة جداً التي لا نستطيع رؤيتها ، والأصوات التي ترددها أعلى ، أو اوطأ ، من مدى سمع الأذن . وهناك أشياء غير موجودة ولكننا نراها ، كالسراب مثلاً . وبهذه المحدودية كيف يستطيع أي فرد أن يتصور أنه يستطيع الوصول الى سر ماهية الوجود ؟

و (ماركس) يقول لنا انه وجد السر فوضع نظريته المادية التي فسرت الوجود على حد زعمه ، فقال ان الانسان نتاج لأدوات الانتاج . ولكن اذا كان الحال كذلك ، فلا بد وان (ماركس) نفسه نتاج لأدوات الانتاج وبذلك فان فكره نسبي أيضاً ، فكيف ارتفع الى المطلقية التي فسرت التاريخ ؟ ان احدى استراتيجيات الخداع الماركسية ، والمادية بصورة عامة ، هي طرح اسئلة معينة تتعلق بالخالق . وعندما لا يستطيعون الاجابة عليها يستنتجون ان الله ليس

موجوداً . وهم يتغافلون (وقد يكونون متعمدين) عن حقيقة أنهم عندما لا يستطيعون الاجابة على هذه الأسئلة فانه لا يعني ان الأجوبة غير موجودة . ولكنهم يفرضون استحالة الأجوبة ويستنتجون ما يروق لهم . وأحد هذه الأسئلة (القديمة جداً في التاريخ) هو الآتي : اذا كان الله خلق كل شيء فمن خلق الله ؟

وانه لحقيقة انه مهما كانت تصوراتنا عن الأشياء ، فان ذلك لا يغير من حقيقة هذه الأشياء شيئاً . واذا كان الله موجوداً وكانت الجنة والنار موجودتين ، فان (ماركس) الآن يعاني من مشكلة حقيقية وكذلك يكون جميع أتباعه ، وسوف لن يكون باستطاعته مساعدتهم أو مساعدة نفسه .

وعندما يزعم الماديون أننا جئنا من لا شيء ونرجع الى اللا شيء ، فهل لديهم أدلة مادية تجريبية على ذلك ؟ أليس هذا هو استعمال افتراض لا مادي للبرهان على المادية ؟ أليس هذا غش وخداع ؟ كيف يزعمون أنه لا يوجد شيء ما وراء المادة ثم يستعملون حجة لا مادية لتبرير ادعائهم ؟ أليس هذا بحد ذاته برهاناً على الوجود اللامادي ؟ و (كودمان) يؤكد الوجود اللامادي بالقول[1](ان المادية البحتة ، وكما نفهمها ، لا تكفي لتفسير اللحظات الظاهرية للاتصال العقلي والاستبصار[*]، حيث تم الحصول بطريقة ما بواسطة العقل على معلومات دقيقة قابلة للاختبار بدون مساعدة دخل فيزيائي) . والمادية بدأت تفقد شعبيتها الآن بين كثير من العلماء ، خاصة بعد الاكتشافات العلمية الحديثة في الفيزياء وعلم النفس .

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(*) القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر .

الباب الثاني

التطور

الفصل الرابع

نظريات الخلية الحية الاولى

فكرة الخلية الأولى والحقائق العلمية

عند طرح فكرة الخلية الأولى تتبادر الى الذهن اسئلة كثيرة ، منها : هل صحيح ان الكائنات الحية بدأت من خلية واحدة وتطورت أم أن هناك خالق صنع الأشياء وأعطاها قابلية التغير مع الظروف والمحيط ولكن الى حد معين فقط ؟ هل كانت هناك خلية واحدة انبثقت بطريقة الصدفة وابتدأت كل شيء ؟ كم يستطيع علماء الأحياء أن يخبرونا ، وماذا أخبرونا لحد الآن ؟ هل أن علم الاحياء علم حيادي يلزم نفسه بالاكتشافات العلمية فقط كبقية العلوم أم انه استُعمل بتحيز نحو معتقد معين يؤمن به العلماء الذين يحاولون اثبات هذا المعتقد بأي طريقة كانت مستعملين الخصائص والقابليات التي تمتلكها الكائنات الحياة ؟

تقول لنا فكرة التطور ان الكائنات الحية تطورت من مادة ميتة بواسطة ولادة كائن حي بطريقة الصدفة على شكل خلية بسيطة حية . ونحن هنا ، في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، سوف نركز على مناقشة صحة هذا الافتراض

ابتداءاً من تناقضات آراء العلماء بخصوص الموضوع ، ومروراً بالافتراضات اللامنطقية التي وضعت ، ثم انتهاءاً بالمسألة المنسية التي لا يذكرها أحد ، وهي مسألة المعلومات التي احتاجتها الخلية لكي تبقى وتتطور . فاذا توصلنا الى الاستنتاج بأن الخلية لا يمكن أن تكون قد انبثقت بطريقة الصدفة ، فان الاحتمال الآخر الذي يبقى هو وجود الصانع بالضرورة . وسوف نرى على أي حال ، انه لا يوجد أساس علمي للنظرية ولا رأي متفق عليه بين العلماء بشأن الطروحات المختلفة المقترحة .

وخذ (جون مينارد) الذي يذكر مقطعاً من مجلة Scientific American , Inc . يخبرنا فيه عن قلة المعلومات الحقيقية المتوفرة للعلماء الذين يدافعون عن التطور[1](لقد رأى شارلز دارون في تنوع الكائنات الحية قواعد التطور الذي عمل على توليد الكائنات الحية ، وهي التغيير والتنافس والانتخاب . ومنذ زمن دارون فقد تم نوعاً ما اكتساب فهم للأحياء الجزيئية والفيزياء الأرضية والكيمياء الأرضية والذي لم يكن يتصوره أحد في القرن التاسع عشر . ولكن هل أن هذا يجعل تقفي التطور رجوعاً الى الفترة ما قبل وجود الكائنات الحية ممكناً ؟

كجواب أول ، كلا ؟ فالسجل ما قبل الأحياء ، وبموجب معرفتنا ، قد تلاشئ أو ازيل تماماً بواسطة الأجيال اللاحقة للحياة وان المتحجرات الراقية الباقية ـ الرموز الجينية والرسائل الجينية للكائنات الحية الحاضرة وطرق التفاعل المعروفة للكيمياء الأرضية ـ تعكس معلومات متناثرة الى درجة بحيث ان احداً لا يستطيع أن يصف التطور ما قبل الحياة بتفصيل أكثر من تطور القرود العليا على سبيل المثال) .

المقطع أعلاه يلخص قصة التطور بأكملها تقريباً . وعند تفحص هذا

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٠

المقطع يمكننا أن نستكشف ما يلي :

- دارون رأى تغيرات وتشابه بين الكائنات الحية ، فاستنتج أن هناك عملية انتخاب .

- ومنذ ذلك الوقت تم اكتساب معرفة أعمق في علوم الأحياء والفيزياء الأرضية والكيمياء الأرضية .

- ليست هناك معلومات عن تاريخ ما قبل الاحياء .

- توجد متحجرات عليا(*) فقط .

- توجد بعض المعرفة عن الرموز والرسائل الجينية . . الخ للكائنات الحية الحاضرة .

- اعتماداً على هذه المعلومات تم تشييد نظرية تقول أن الكائنات الحية تطورت من خلية واحدة (أو عدة خلايا) انبثقت بطريقة الصدفة .

الا ان التمحيص الجيد لهذه المعلومات المتفرقة يبين الآتي :

- ان (دارون) ركز فقط على التشابه بين الكائنات الحية التي تعود الى نفس النوع أو الفصيلة . وقد أهمل الفروقات بين هذه الكائنات ، والتي هي في معظم الأحيان اكثر من التشابه . وتفسير (دارون) ليس التفسير الوحيد لهذا التشابه ، فقد يُعزىٰ الى اسباب اخرى لا تقل منطقية ، وقد تكون اكثر منطقية من فكرة التطور .

- ان معرفة علم الاحياء الجزيئية والرموز الجينية الخ تأتي من دراسة الاحياء الموجودة الآن فقط ، ولا يمكن نسبها بأي طريقة من الطرق الى الأشياء ما قبل الحياة . فان ما قبل الحياة وما بعدها موضوعان منفصلان بعضهما عن

(*) المقصود انها متحجرات لحيوانات تعتبر راقية في سلم التطور

بعض سواءاً من ناحية طبيعة كل منهما أو من ناحية الزمن . وربطهما عملية لا معنى لها .

ـ ان الأدلة الوحيدة التي يمتلكها التطوريون موجودة في شظايا العظام المتحجرة المتناثرة والتي جُمعت من هنا وهناك ، والتي تختلف في طبيعتها وتفصل بينها ملايين السنين . ومن هذه العظام بُنيت النظرية . وليس هناك دليل علمي لهذه النظرية عدا مقارنة الوجود ما قبل الاحياء مع طبيعة الكائنات الحية الحاضرة . وبطبيعة الحال فان الكائنات الحية الحاضرة لا تكشف سوى عن طبيعتها الآن والتي يمكن أن تُنسب الى صانع . وبالرغم من أن الكاتب يعترف بأن المعلومات المتوفرة ليست كافية لتقفي التطور رجوعاً الى الفترة ما قبل ظهور الحياة على الأرض (والتي فيها ، بدون حق ، يفرض أن تطور الحياة قد وقع فعلاً) فانه يرجع فيقول انه ممكن .

وباختصار ، يبدو أن النظرية ليست اكثر من تأمل لما يُعتَقَد انه قد حدث اعتماداً على عظام مبعثرة وعلى خصائص الكائنات الحية الموجودة الآن والتي يمكن نسبها الى صانع بواسطة نظرية اخرى ليس هناك برهان ضدها . واستقراء نظرية التطور من الصعب وصفه بالعلمية فيما لو نظرنا الى التعريف التالي للعلم الذي يذكره (برتراند رسل)[1](عندما يخبرنا رجل العلم نتيجة تجربته ، فانه يخبرنا أيضاً كيف أجريت التجربة ، ويستطيع الآخرون أن يعيدوها ، واذا لم يحصلوا على النتيجة نفسها فانها لا تُقبل كحقيقة) . وبالنسبة للتطور فاننا نعلم ان التجارب التي يجريها علماء الأحياء تبين قابلية الكائنات الحية على التكيف وتغيير بعض القابليات ، ولكن ليس التطور الى كائن حي جديد . وهذه القابليات يمكن تفسيرها في اطار ذاتها وموضوعها فقط . أما ربطها باسلوب يوحي الى أن نظرية التطور صحيحة فانه قفزة كبيرة لا يمكن قبولها بهذه البساطة وبدون تساؤل .

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ١٧٨ .

و (رسـل) يستمر بتعـريف العلم بالقـول[1] (يعتمد العلم عـلى الادراك والاستدلال . ومصداقيته سببها أن الإدراكـات هي بقدر مـا يناقِش أي شخص مـلاحِظ) . ولكن فكرة الخليقـة بموجب نـظرية التـطور لا يمكن اختبارهـا بـأي طـريقة كـانت مما يخـرجها عن الإطـار العلمي بموجب التعـريف المار . ونحن لا نعلم كيف أصبحت هذه النظريـة مقبولـة علمياً . وكـما قلنا سـابقاً فـان القضية بأكملها تبدو أنها ليست أكثر من انتاج لتصورات بعض العلماء . وقـد يبدو هـذا الرأي شديداً نوعاً ما . ونحن لا نتنكر لما أنتجـه علماء الأحياء من تـراث علمي عـظيم ساهم في خـدمة البشـرية الى حـد كبير جـداً . ولكن عنـدمـا يصبحـون متحيزين ويوجهوا الاكتشافات العلمية باتجاه تأكيد قضية يؤمنون بها سلفاً فـانهم يخرجون من ميدان العلم الى ميدان آخـر . و (رسل) يؤكـد[2] (ان العلم يجب أن يكون حيادياً) . والتطوريون ليسوا حياديين عندما يحاولون البرهنة على قضية يؤمنون بها . فالحقائق التي يكتشفونها عن عمل الأنظمة الحية تخص كيفية عمـل هـذه الكائنـات فقط وليس كيف اختلقت في البدايـة . ولذا فـان طرح نـظريـة للخليقة من هذه المعلومات هي قضية أخرى تماماً .

والتـطوريون الـذين تتملكهم الفكرة القـائلة أن الحياة انبثقت عـلى شكل خليـة بسيطة يحـاولون اختـراع نظريـات لجعل الفكـرة متماسكـة . ولكن هـذه النظريات تتخللها طفرات كبيرة لربـطها بعضهـا ببعض ، وهذه الـطفرات غـير مقبـولة ، لأن القفـز من خـطوة الى اخـرى بـدون تبـريـر معقـول للوصـول الى الاستنتاج القائل أن الحياة ابتدأت بطريقـة الصدفـة يقودنـا الى التساؤل فيـما اذا كـان هؤلاء النـاس علماء أم منجمـين ! ! مثـلاً ان (سمث) يقـول[3] (ان الكينـونات التي تمتلك خصـائص التكـاثـر والتغـير والـوراثـة حيـة ، وتلك التي

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٣) انظر المصدر٦ ، ص ٧ .

تنقصها واحدة أو أكثر من هذه الخصائص ليست حية) . وهذا التصريح قد يبدو علمياً لأول وهلة ، ولكن عند التمعن به فان المرء لا يستطيع ، وبموجبه ، أن يعتبر البغل ، أو المرأة العاقر ، احياءاً أم لا . وهذا النوع من القفزات في الآراء ، والأخطاء التي تتبعها هو ما يفعله علماء الأحياء عندما تأتي المسألة الى قضية الخليقة لكي يصلوا الى نظريتهم . وسنرى كثيراً منها في الفصول القادمة . ولكن سنبقى الآن مع حجج العلماء لاستكشاف كم هم قريبون ، أو بعيدون ، عن حل مشكلة أصل الحياة . يقول (سمث)[1](ان مشكلة أصل الحياة اليوم ، وبالرغم من أنها لا زالت بعيدة عن الحل ، فانها تُدرّس بصورة نشيطة من كلا الجانبين التجريبي والنظري) . و (أندري كوياكس) يقول[2](كيف تظهر الكائنات الحية ؟ وكيف تنقرض ؟ بصورة أساسية ، نحن لا نعلم العناصر الجوهرية ونحن مترددون ، وأفضل العقول غير متفقة) . ثم يستطر بالقول (لقد حاول رول أن ان يقتفى الأثر رجوعاً الى الأصل الأول . . . وقد يمكن للقوىٰ الفيزيو ـ كيميائية أن تمتلك القابلية يوماً ما لتبيان كيف ، وتحت أي ظروف ، استطاعت الحياة أن تتكون وتنبض في قلب البيئة الميتة) . ولكن اين العلم والاكتشافات التي يستند عليها ؟ انه لا يقول . و (روث مور) تقول[3](ان بعض المعتقدات المتزمتة التي تم التمسك بها طويلاً يجب ان تُراجع والكتب المدرسية يجب أن تعاد كتابتها ، لأن كثيراً مما قيل وبعض الحقائق المؤيدة لذلك تبين الآن أنها غير صحيحة) . وهذا هو العلم الذي أملىٰ علينا نظرية الخليقة و (بيتر رسل) هو الآخر يقول[3](في الحقيقة أن مسألة كيفية بدء الحياة لا زالت قضية يدور حولها جدال كثير) . هذا هو قرب علماء الأحياء الذين

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٧.
(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٥ .
(٣) المصدر ١ ، ص ٣.
(٤) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤١ .

يتمسكـون بفكرة التـطور من أصل الحيـاة . ويبدو أن قـربهم منها كقـرب رجال الفضـاء من نهاية الكـون . وما مـوجود الآن ليس أكـثر من آراء مختلفـة لأنـاس مختلفين . وكثير من هذه الآراء يُكتَشف انها خاطئة ، وقد تكـون الآراء التي تحل محلها ، والتي تعتبر صحيحة الآن ، هي الأخرى خاطئة أيضاً ويتم التخلي عنها في أوقات لاحقة . فحقائق الأمس لم تكن حقائق ، وحقـائق اليوم قـد لا تكون حقائق أيضاً . ومهما اعتقدنا فان اعتقادنا لا يغير من حقائق الأشيـاء . وبالـرغم من الـوقت المبكـر لاعـطاء الحكم فـان (سمث) عـلى عجـل من امـره لاتخـاذ القـرار ، فهو يقـول[1] (اننـا لا نستـطيـع بعـد الآن أن نتـرك الأشيـاء الى نَفَس الخالق) . وهو متـأكد ممـا يقول ، ولكنـه لا يمتلك التبريـرات التجريبيـة لاسناد رأي كهـذا . وهـذا النـوع من التفكـير اعتيـادي هـذه الأيـام . فهـا هـو (دي كـايوكس) يقـول[2](في السابق ، كـان الانسان مضـطراً لـلاعتمـاد عـلى تصوراته وحدسه بصـورة رئيسية . واليـوم فانـه يحصل عـلى دعم اكثر فـأكثر من الحقـائق) . وسؤالنا هنـا هو : أي حقـائق هـذه ؟ أهي الحقـائق التي في تبـدل مستمـر ؟ وهـل ان استقـراء نـظريـات التـطور والخليقـة من المتحجـرات ليس حدساً ؟ ان النظرية بأكملها ليست الا حـدساً وتصـورات معتمدة عـلى قطع من المتحجرات التي لا علاقـة تربط بينهـا سواء من نـاحية طبيعتهـا أو الزمن الـذي يفصل بينها . وهل يوجـد تصور اكبـر من ذلك ؟ . هـل يستطيـع أي من علماء الأحياء أن يؤكد أن حقائقهم هي حقائق لا جدال فيها ولا يمكن تحديها ؟

ويستمر (سميث) بالقول[3](لقد تبين أنه بالرغم من أن دارون لم يفكـر جـدياً في المشكلة ، فـان نظريـة التطور تـزودنا بـالوضـوحية المُرْضِية الـوحيـدة للحيـاة ، وعليـه فـانها تعـطي الـطريقـة الـواضحـة والوحيدة لصيـاغـة مشكلة

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

أصلها) . يا لها من غرابة !! فمع كل الحقائق التي تبين أنها أخطاء فان صياغة (أو ربما الأفضل أن نقول تخيل) اصل الحياة يصبح الطريقة الوحيدة الواضحة . و (دي كايوكس) يخبرنا بأن[1](الحياة ظهرت على الأرض قبل ثلاث أو أربع مليارات من السنين . وقد اشتُقت من المادة غير العضوية ، أو على الأقل كل شيء يشير الى ذلك) . وهذا يعطينا ريبة مقدارها مليار سنة ، أو ٢٥ ـ ٣٠ ٪. وهي فترة زمنية لا يمكن لأحد أن يتصورها . ولكن أي الأشياء التي تشير الى أن الحياة اشتُقت من المادة غير العضوية ؟ انه لا يتكلم عنها . الا اذا كان الواضح هو المقصود ، وهو أن أجسامنا تتكون من نفس مكونات الأرض .

و (ريتشارد ليكي) هو الآخر متسرع في اتخاذ القرار ، فهو يقول [2](في زمن ما ، كثير من الناس اعتقدوا أن الحيوانات والنباتات التي نراها في عالمنا اليوم خلقت مرة واحدة من قبل الله . ولكن الآن نحن نعرف أن كل هذه الحيوانات والنباتات ظهرت تدريجياً ، وأن الأشياء الحية الأولى كانت صغيرة وبدائية وتشبه بكتريا عصرنا الحاضر) . و (ليكي) متأكد من نظريته بالرغم من أن معرفته تعتمد على الحقائق التي ليست حقائق ، وعلى قطع العظام ، وخصائص الكائنات الحية الحديثة والتي يفسرها على أنها تطورت من لا شيء . فهو يفترض افتراضات ثم يعتبرها صحيحة ، ويقارن الخلايا الحية الاولى مع البكتريا الحاضرة . وهذه المقارنة ليس لها أساس علمي . فالبكتريا احياء متطورة جداً . ولكي يتضح لنا ذلك ، دعنا نأخذ الفيروسات التي هي أبسط من البكتريا في تركيبها وأوطأ منها على سلم التطور ونرى كيفية تكاثرها . (دي كايوكس) يخبرنا انه في التجارب العلمية عندما تزرق الفيروسات الملتهمة للجراثيم الى جسم البكتريا فانها ، وكما تبين التجارب ، تتكاثر بعملية ذات

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٧ .

مـرحلتين . الأولى ان مـادة البكتريـا تتحطم الى قـطع مشابهـة للحائط الـذي يتهـدم الى طابـوق متفرق . الثـانية ان هـذه القطع تتجمـع مرة اخـرى الى كتل صغيرة تشبه الفيروس . وهذه الكتل هي الفيروسات الجديدة . وتأخـذ العملية ثلاثين دقيقة ، ونتيجتها ولادة مائتي فيروس باستعمال أكثر من تسعة أعشار مادة البكتـريا . أمـا الجـزء البـاقي غـير المستعمـل فـانـه يُتـرك كفضـلات . و (دي كايوكس) يشير الى انه[1] (باستطاعتنا مقارنة الفيروس مع الحماة التي تريد كَنَّتها أن تفعل كل شيء كما تفعل هي . او باستعمال مقارنة أكثر فلسفة ولطافة ، فان الفيروس هو المثال المبسط للرسول ، لأنـه يحول الآخـرين الى نفسه . وعـلى أي حـال ، فان رسـوله يتضمن صـراعـاً ، وهـو تحـطيم الأواصر القـديمـة . وهـذا الأواصر هي البـروتين البكتيـري) . ويبدوا أن الفيـروس يعـطي أوامـر معقـدة جداً ، وهذه الأوامر تنفذ عمليات معقدة لتحطيم كائن حي ثم تستعمل مكوناته في ترتيب جديد لتوليد كائنات حية جديدة مختلفة . لذا فان الفيروس ليس بتلك البدائية التي قد يتصورها بعضنا . بـل على العكس من ذلـك ، فهو نـظام دقيق وعالي التنظيم . ولأولئـك الذين يعتقـدون أن الفيروس يمثـل أصل الحيـاة يقول (دي كـايوكس) ان[2] (كـل الفيروسـات التي تمت دراستها لحـد الآن تستطيـع التكاثر فقط بواسطة الاستنبات* داخل البكتـريا الحيـة أو داخل خـلايا أخـرى ، وعلى حسابها . وهي متطفلة ، وبسبب هذه الخاصيـة ، فانها لا يمكن أن تكـون أصل الحياة) . لأن الخـلايا الأولى كـان عليها أن تتغـذى على المـادة الميتة وليس الكائنات الحية ، حيث لم تكن هناك كائنات حية بعد .

وعلى أي حال ، وكـما سنرى ، فـان الأدلة الجـديدة تبـين انه ليس هنـاك

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٩٢ .
(٢) انظر المصدر السابق، ص ٩٢ .
(*) اي الزرع في خلايا حية .

تطور تدريجي . فالكائنات ظهرت على شكل مجموعات كما هي عليه .

النظريات ونقدها

كيف انبثقت الخلية ؟

يقول التطوريون انها جاءت بطريقة الصدفة . (جاك مونارد) يقول[1](الصدفة والضرورة . . دارون ، ومن عالم الصدفة البحتة ، حيث تدخل الصدفة الى حال الضرورة ، لأكثر الحقاق غير القابلة للتغيير) . اي أن عمل دارون الذي لم يعرف الكلل لسنوات طويلة من عمره لم يكن سوى صدفة بحتة وضرورية كان يجب أن تحدث . و (مونارد) لا يخبرنا لماذا كانت هذه الصدفة ضرورية ، فلا علم ولا تحليل ولا أسباب ولا قوانين . وها هو ، وكأي من الذين يؤمنون بالتطور ، يتيه في صحراء الخيال ليحط على تصور يتوخى منه أن يقنع الناس بنظريته ، فهو يقول[2](وحتى اليوم يبدو أن كثيراً من العقول المشهورة ليست عندها القابلية لأن تقبل ، أو حتى تفهم ، ان من مصدر ضوضاء كان باستطاعة الانتخاب الطبيعي ، وبدون أي مساعدة ، أن يصوغ موسيقى محيط الكائنات الحية . وفي الواقع فان الانتخاب الطبيعي يعمل على منتجات الصدفة ولا يستطيع أن يتغذى في أي مكان آخر) . وهذا ليس ما ادعاه (دارون) على أي حال . فدارون ارتأى أن الأصلح يبقى ويسود ، وليس في هذا أي صدفة .

و (بيتر رسل) يخبرنا[3](ان اكثر النماذج(*)شهرة تفترض ان المحيط الجوي البدائي كان يتكون من خليط من الهيدروجين والأمونيا والميثان وثاني

(١) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤١ .

(*) اي نظريات خلق الخلية

اوكسيد الكاربون وكبريتيد الهيدروجين وبخار الماء وغازات أخرى بسيطة متكونة من اتحاد الذرات الخفيفة . وقد افتُرض أن هذه الغازات كان باستطاعتها أن تتحد لتكوين المركبات الكيمياوية الضرورية للحياة) . اذن فالنظرية تبدأ بنموذج يفترض الأشياء ، وليس سوى افتراضات وتصورات لا علاقة لها بالواقع أو حقيقة ما كان ، أو لم يكن ، موجوداً . وهي بداية ربما تكون خطأ بأكملها مما يجعل النظرية تقف على قرن ثور (كما كان القدماء يؤمنون أن الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور) . اذن هي بداية مشكوك فيها . وهذه البداية تذهب الى اكثر من ذلك بافتراض أن الغازات كان باستطاعتها أن تتحدد وليس « انها اتحدث » . شيء أقرب الى التخمين منه الى العلم . ولكن كيف تصوروا افتراضاً مدهشاً كهذا ؟ (بيتر رسل) يستمر بالقول[1](هناك سند معتبر لهذه النظرية يأتي من التجربة المشهورة التي قام بها ستانلي مِلَرْ عام ١٩٥٣ . . . ففي قارورة في المختبر صُنع الحساء البدائي ، من الماء والميثان والنتروجين والأمونيا وآثار من الهيدروجين ، والتي أخضعها لشرارة كهربائية (لمحاكاة البرق) . وخلال ساعات تكونت أنواع كثيرة من المواد العضوية مثل السكر والالديهيد والحوامض الكربوزيلية(**) والحوامض الامينية) . اذن فان السر العظيم بأكمله يكمن في قارورة ، وفي تجربة بينت ظواهر كيميائية معينة ، ثم استُنتِج منها كيف تمت الخليقة . وهذا الاستنتاج يشبه الاستنتاج الذي نخرج به اذا رأينا عشرة أشخاص امريكيين سود بأن كل الأمريكان سود . قد يكون حقيقة أن هؤلاء العشرة السود امريكيون . وقد يكون حقيقة أيضاً أن تلك المواد العضوية قد تكونت في القارورة . ولكنه ليس حقيقة أن كل الأمريكان سود ، كذلك فانها ليست حقيقة أن تكون المواد العضوية معناه خلق الحياة . فالمواد العضوية لا زالت مادة وليست حياة . والفرق بين المادة والحياة ليست المادة العضوية ،

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤١ .

(**) حوامض خشبية .

ولكنها الحياة نفسها . فالجسم الميت كله مواد عضوية ، وليس هذا فقط ، فهو نظام في منتهى التعقيد ، ولكنه مع ذلك ميت ولا يمكنه أن يكون حياً أبداً . وقطعة الخشب كلها مواد عضوية ، ولكنك اذا دفنتها في الأرض لا تنمو الى شجرة مطلقاً . وكذلك فان البذرة التي تمثل الوحدة الأكثر استعداداً للنمو الى شجرة لا يمكنها أن تنمو الى شجرة مطلقاً اذا كانت ميتة بالرغم من أنها كلها مواد عضوية منظمة على شكل نظام قابل للنمو . فالمسألة اذن ليست المواد العضوية ، ولكنها الحياة نفسها . وبقدر ما تكون مخطئاً في الاعتقاد أن كل الأمريكان سود فان التطوريون مخطئون في اعتقادهم عن أصل الحياة . فالمواد العضوية متوفرة بكثرة في كل مكان ولكنها لا تستطيع أن تخلق الحياة . ان التفكير في المادة العضوية حقل معين والحياة حقل آخر . والمواد العضوية انتاج لتفاعلات كيمياوية من نوع معين ، لا اكثر ولا أقل ، بينما الحياة ظاهرة اخرى برمتها . والحياة تحوّل المواد اللاعضوية الى مواد عضوية في النباتات ، ولكن ليس العكس ، فالمواد العضوية لا تحول المادة (سواء العضوية أو اللاعضوية) الى حياة . و (بيتر رسل) يقول[1] (وقد بنيت تجارب أخرى ان وجود المحيط الجوي الغني بالميثان والأمونيا لا يبدو ضرورياً . فنفس الجزيئات يمكن تكوينها في بيئات غنية بثاني أوكسيد الكاربون أيضاً ، وحتى في المحيطات المتجمدة الباردة جداً . . وأكثر من ذلك ، فان تكوينها ليس محدوداً بالضرورة الى الأجرام السماوية . فقد بينت التجارب أن هذه الجزيئات الأساسية تستطيع أن تتكون حتى في الفراغ التام تقريباً ، وبدرجات حرارة تقترب من الصفر المطلق . . . . وبالفعل فقد تم حديثاً ايجاد كثير من هذه المركبات في الفضاء البعيد) . وهذه الاكتشافات تؤكد أن هذه المركبات ليست سوى مركبات كيميائية كأي مركبات أخرى ، ولا تحمل أي علاقة مع الحياة . وإذا أردنا أن نقول أن المادة العضوية تقود الى الحياة فانه باستطاعتنا أن نقول أن وجود المادة نفسها يقود الى الحياة ،

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٢ .

لأن ذلك لا يمثل سوى الرجوع خطوة الى الوراء ليس الا .

و (كيم مارشال) تعترف على مضض بأن[1](التجارب التي أنتجت الحوامض الأمينية والعناصر الأساسية للنواة الحية في القناني كانت تثير الاهتمام ، ولكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط) . كم تبدو سهلة !! انها مشكلة واحدة فقط . ولكن ما هي طبيعة هذه المشكلة ؟ ان (كيم) تشرح ، فتقول (ان هذه الجزيئات لم يكن لديها طاقة من لدنها . فلم تتمكن من الأكل أو الحركة أو التكاثر . وبكلمة أخرى لم تكن حية) . هذه هي المشكلة التي تقول عنها انها مشكلة واحدة فقط . ونحن نتساءل اذا كان هؤلاء العلماء يتوقعون من هذه المواد أن تأكل وتتكاثر ، أي أن تصبح حية ، فلم لا يتوقعون من جسد ميت أن ينهض من موته ، أو من قطعة خشب أن تنمو الى شجرة ؟ ونحن نريد أن نفهم ، ما هو الفرق بين توقع المادة العضوية الميتة المصنوعة في قنينة أن تصبح حية وتوقع بغل ميت أن ينهض ويهرب ؟ ويتضح أن الأولى بالنسبة لهم علمية أما الثانية فانها سخافة مستحيلة . وهو ليس جنوناً توقع الحوامض الأمينية أن تتغذى وتتكاثر ولكن توقع قطعة الخشب الميتة أن تتغذى وتتكاثر فانه جنون . ونحن نرى أن رجوع الخلية التي كانت قد ماتت مرة أخرى الى الحياة أقل استحالة من ان تتحول مادة عضوية مجردة الى خلية حية ، لأن الخلية الميتة تمتلك كل شيء كان حياً على أقل تقدير بينما المادة العضوية لا تمتلك من ذلك شيئاً . ويبدو أن علماء التطور اهدروا جهوداً مضنية ووقتاً طويلاً لكي يدركوا حقيقة من حقائق الوجود المهمة التي يمكن لأي انسان عادي أن يلاحظها ، وهي أن الميت لا يمكنه أن يصبح حياً . والشيء الذي لا يدركه هؤلاء الناس هو أن وضع المادة بأي شكل من الأشكال أو أي صورة من الصور ليس أكثر من اللعب بها ، سواءاً بحجوم صغيرة أو كبيرة . وفهم كيفية عمل

(١) انظر المصدر ٧، ص ٣١ .

الخلية الحية لا يقودنا الى فهم كنه الحياة ولا الى خلقها . فنحن نعلم مم تتكون الأرض وكيف يعمل النظام الشمسي ، ولكننا لا نستطيع أن نصنع أي شيء مماثل لهذا النظام ، حتى بحجم أصغر .

(بيتر رسل) يستمر بسرد تصوراته عن النظرية ، فيقول[1](ان البحار البدائية وبحيرات الصخور الأرضية ربما كانت المشهد المناسب للخطوة التالية في مسرحية التطور) . وهنا فانه ينسىٰ انه لما كانت المواد العضوية قد تكونت قرب درجة حرارة الصفر المطلق وفي الفراغ الخ ، فلماذا لم تنبثق الحياة في ظروف كتلك ؟ وهو ينسى ايضاً أن تكوّن المواد العضوية في تلك الظروف يبين بكل وضوح أن وجود المواد العضوية وحده لا يقود الى تكوين الحياة . و (كيم مارشال) تسأل بالقول[2](ان السؤال هو : كيف أن الحوامض الامينية والنواة التي تخوض في المحيط البدائي تنظمت الى جزيئات أكبر وكونت الخلايا الحية ؟) ونحن لا نفهم لماذا تسمي المحيط بدائياً . وربما أنها تتخيل الحياة البدائية ، ولذا فان المشهد يبين أن كل شيء كان بدائياً . فالماء كان بدائياً والصخور كانت بدائية ، الا اننا لا نفهم ما يعني ذلك ، فلربما كانت بأنواع مختلفة وتطورت لما هي عليه الآن أيضاً . ولكن ليس هناك من دليل على ذلك . فالماء والصخور كانت ولا تزال نفسها . و (بيتر رسل) يرى الجواب لسؤال (كيم مارشال) كالآتي ، فهو يقول[3](هنا فان الظروف كانت صحيحة لهذه المواد الكيمياوية لكي تتجمع مع بعضها البعض لتكوين جزيئات أكبر مثل الحوامض الأمينية والأنزيمات والبروتينات) . وهكذا يمر أعظم حدث على الأرض دون تفسير . فالأشياء حدثت وفقط . . . طفرةٌ وقفرةٌ ثم بدأت الحياة . . الظروف كانت ملائمة للحياة أن تنبثق . ولكن دعنا نقارن هذه العبارة مع العبارة القائلة (ان

---

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

(٢) انظر المصدر ٧ ، ص ٣١ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

الله خلق الحياة) ، أليس ان هذه العبارة أكثر عقلانية من العبارة الأولى ؟ و (بيتر رسل) ، ومثل بقية الناس والعلماء ، لا يستطيع أن يفسر كيف ولماذا تجمعت تلك المواد الكيمياوية لتكوين جزيئات أكبر . وهذا يذكرنا بالفكرة التي ورثتها الكنيسة والقائلة « ان الله نور يسقط في القلب . والعقل غير قادر على الوصول الى معرفة الله »، والتي في الواقع يجب أن توضع كالآتي « ان معتقدات الكنيسة لا يمكن للعقول المنطقية أن تقبلها لأن كثيراً منها أقرب للخرافة منها الى الحقيقة . ولذا فأما أن تقبلها بدون نقاش أو لا تقبلها ، واترك الحقائق عن الله جانباً ». ونفس الشيء مع نظرية التطور ، فالحياة بدأت ولكنهم لا يعلمون كيف . الا أن التطوريين ، وليس كرجال الكنيسة ، لا يمكنهم أن يطرحوا الحقائق جانباً . وبدلاً من ذلك فانهم يضفون على آرائهم روح العلمية بغطاء خادع ومموَّه . ولكن ليس بذلك النجاح الذي يودون .

و (سمث) ، ولانقاذ الموقف ، يحاول أن يعطي وصفاً للظروف التي أدت الى تكوين الجزيئات الكبيرة ، التي يتكلم عنها (بيتر رسل) ، فيقول[1](ان تأثيرات الأشعة الشمسية على هذه المادة الفائقة البرودة المتبقية من تكاثف النظام الشمسي ربما كان باستطاعتها انتاج جزيئات عضوية كبيرة بحجم بوليمرات[*]الاحياء) . اذن فانها أشعة الشمس التي فعلت ذلك . ولكن ، ولسوء حظ هذه النظرية ، فقد وُجِدَ أن أشعة الشمس لا تكفي لإنجاز المهمة . وكما سنرى فان أشعة الشمس تقتل هذه الجزيئات في الواقع .

و (بيتر رسل) يستمر بالقول[2](وبمرور الزمن تجمعت هذه الجزيئات الى مجموعات وسلاسل أكثر تعقيداً) . ومرة أخرى لا تُعطىٰ أسباب لتجمع هذه الجزيئات ولا لكيفية التجمع . وليس مهماً طبعاً ما دام التطور صحيحاً وهو ما

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١١ .

(*) بوليمر = مركب عضوي ذو جزيء كبير ومعقد .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

حدث بالفعل (بموجب اعتقادهم) . وهكذا ، ومرة أخرى ، نرى كيف يتعلق الانسان بفكرة يؤمن بها ويحاول تبريرها حتى بأسفه الطرق . أما (سمث) فانه يدرك المشكلة العويصة التي يمكن أن يقع فيها فيما لو ادلىٰ برأي كرأي (رسل) ، لذا فانه يعترف بأن[1](الحساء البدائي قد واجه كارثة طاقة فعلاً : فأشكال الحياة الأولى احتاجت الى استخلاص الطاقة الكيميائية بطريقة ما من الجزيئات الموجودة في الحساء . وبالنسبة للقصة التي نرويها هنا ليس مهماً كيف فعلت ذلك ، لأننا نفترض نظاماً ما لخزن الطاقة وإيصالها اعتماداً على خزان طاقة للفوسفات) . اذن ، وبالنسبة له ، فانه ليس مهما كيف حدث التطور . ونحن نسأل : اذا كانت هذه هي الحالة فعن أي شيء يتكلمون ؟ وماذا يحاولون أن يصفون أو يثبتون ؟ وأين الحقائق العلمية ؟ ليس هناك حقائق ، ولكن فقط افتراضات بدون أي تبرير منطقي .

الى هذا الحد فان القفزات التي افتُرِضت لتكوين الحياة (وبدون أسباب معطاة بطبيعة الحال) هي الآتي :

- تكونت مواد عضوية .
- هذه المواد العضوية تجمعت مع بعضها البعض في البحار .
- ارتبطت هذه المواد لتشكيل مجموعات وسلاسل .

والآن كيف تستمر القصة ؟ (بيتر رسل) يخبرنا عن المواد العضوية ، فيقول[2](ان الجزيئات التي كانت أكثر اتزاناً بقيت موجودة لفترة أطول واتحدت مع أخريات لتكوين وحدات أكبر من ذلك ، وهي الجزيئات الضخمة ، والتي يحتوي بعضها على آلاف من لبنات البناء الأساسية والملايين من الذرات) . والسؤال هنا هو : اذا كانت كل هذه لا زالت مركبات كيميائية ، واذا كانت

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢ .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

متشابهة ، فلماذا كان بعضها متزناً وبعضها غير متزن؟ وكيف تجمعت هذه الآلاف منها اذا كانت بهذا الصغر الذي لا يمكن رؤية الملايين منها بالعين المجردة ؟ لا بد وأن الحالة الوحيدة التي مكنتها من التجمع مع بعضها البعض هو ان مليارات ومليارات منها كانت قريبة بعضها من بعض ، وهذا يقتضي وجودها بأعداد هائلة . وهذا العدد أكبر من الخيال ، ومن الصعب تصور كيف أن هذا العدد الهائل تكون ، ومن الصعب أيضاً التصديق بأن كل الجزيئات كانت متشابهة . فها هو (بيتر رسل) يشير الى أن[1](ان بكتريا الاستريشيا القولونية التي تعيش في امعاء الانسان تعتبر أبسط اشكال الحياة . ومع ذلك فان واحدة من هذه الخلايا تحتوي على أربعة جزئيات DNA وحوالي ٤٠٠,٠٠٠ جزيء RNA ، وحوالي مليون خلية بروتين ، و ٥٠٠ مليون جزيء عضوي أصغر . . . . وفي كل خلية استريشيا القولونية يوجد حوالي ٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (اربعون مليار) ذرة . والخلايا الأكثر تعقيداً ، مثل خلية العضلة ، فقد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (ترليون) ذرة ، وبعض الاميبا الكبيرة قد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ذرة . . . . وليست هناك أشكال من الحياة معروفة بأقل من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائة مليون) ذرة . وبالنسبة للأعداد المجردة ، يبدو أن هناك حد أدنى لا تظهر الحياة تحته) . وفي الواقع فان تجمعاً كهذا لكي يحدث ، بجانب كل الأسباب الأخرى ، فلا بد وأن اللبنات العضوية قد غطت البحار والمحيطات كلياً . وأنه لمن الصعب على أي انسان أن يبرهن أن ذلك قد حدث في الظروف المقتَرَحة ، لأنه اذا كان فعلاً قد حدث بهذه الطريقة فلا بد وأنها كانت الظاهرة السائدة ، والتي تجعلنا نتساءل : لم توقفت اذن عند نقطة معينة ؟ واذا لم تتوقف ، فلماذا لا نرى تكون الحياة المستمر ؟ ويبدوا أن الموضوع كله هو محاولة تطبيق نموذج على ظاهرة تلاحَظ الآن

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٥٦ .

(وهي الحياة) .

وبعد تكوين الجزيئات الضخمة حدثت المعجزة فـ (بيتر رسل) يخبرنا بأن[1](بعض هذه الجزيئات العملاقة « طورت » قابليتها على معرفة الجزيئات الأخرى الأصغر حجماً) . والاعلان عن هذا التصريح مهلك اذا فهمنا ما هي المعرفة . وسوف نركز على هذا الموضوع في وقت لاحق ، ولكننا الآن نسأل السؤال التالي : كيف طورت هذه المواد هذه القابلية وهذا الذكاء ؟ ولأي سبب ؟ الجواب نجده طبعاً في الصدفة و « الحظ » و « الخطأ » المقترحة كطريقة سهلة للخروج بالمستحيل . وطبعاً فان هذا من السفاهة بحيث لا يمكن قبوله . وعلى كل فان المعجزة تكتمل بعد ذلك بواسطة معجزة أخرى ، فـ (بيتر رسل) يقول[2](وبهذه القابلية فان بعض الجزيئات الضخمة «وخاصة جزيئات حامض الديوكسير يبونواقي DNA » استطاعت أن ترتب الجزيئات الأخرى الصغيرة بسلسلة متتالية معينة . وبواسطة بناء متتاليات مشابهة لنفسها فانها انجزت جوهر التكاثر) . وهذه قفزة كبيرة جداً تحاشت تفسير كيفية تكون نظام الـ DNA الفائق التعقيد ، حيث يذكره (رسل) دون شرح أو تفصيل . وفجأة فان قوة ما لا يُعرف مصدرها جعلت بعض الجزيئات ترتب الجزيئات الأخرى ، بدلاً من العكس . وهذه الجزيئات أصبحت تمتلك ذكاءاً بينما الجزيئات الأخرى ليس كذلك . ويتضح أن النظرية تقول بأن الذكاء انبثق قبل الحياة . يا للعجب !!

و (بيتر رسل) يخبرنا بأنه[3](حالما تم تكوين الجزيئات المعقدة التي تكرر نفسها ، فانها بدأت تكوّن تجمعات غير وثيقة الارتباط مع الجزيئات الأخرى الضخمة والمعقدة) . وبطبيعة الحال فاننا لا نعلم لماذا أو كيف . ولكننا نرى

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٤٣ .

معـرفـة وذكـاءاً يـظهـران الى الـوجــود دون تفسـير . ويضيف (بيــتر رســل) بـالقول[1] (ان جـزيئات أكـثر فـأكـثر اشتـركت في التجمـع ، الى أن وصلت في النهاية الى مـرحلة أصبح فيهـا التجمع وحـدة متكاملة . وبهـذه الطريقـة ولدت أبسط الخـلايـا قبـل ٣,٥ مليـار سنـة) . ونحن نسـأل بـأي طـريقــة ؟ أَبهـذه الافتراضات التي هي أبعد ما تكـون عن العلمية ؟ وهـل كانت هـذه الجزيئـات متشـابهـة أم مختلفـة ؟ فقـد يكـون كـل واحـد منهـا عـلى شـاكلتـه ويختلف عن الأخريات . أين البرهان على أنها كلها كانت متشابهة ؟ ولماذا يفترض أنها كانت متشابهة ؟ أي صدفة هذه التي جعلت المليارات من هذه الوحدات متشابهة هكذا بكل شيء ، سواءاً التركيب ، أو عدد الذرات ، أو الوظيفة ، أو الطبيعـة الخ ؟ يبدو أنها ، فيما لو حدثت فعلاً ، اقرب لأن تكـون مصممة من قبـل صانـع على أن تكون صدفة . وحتى بتقدم العلم والتكنولوجيا الحديثة فاننا غير قـادرين على صنع تركيب ميت ، وليس حياً ، كتلك الوحدات المعقدة .

و (كيم مـارشال) تؤكـد[2] (انه بـالتأكيـد كانت هنـاك قوى مـدمرة عـلى الأرض البـدائيـة) ، ثم تسـأل (ولكن مـا هي القـوى التي كـان بــامكـانها أن تستخرج الحياة من ذلك الحساء الكيميائي ؟) .

أما (سمث) فانه متحفظ حول الموضوع ، ويجيب بحذر، فيقول[3] (كل المفاهيم حول « الحساء البدائي » والذي خرجت منه الحياة تتفق على انه احتـوى ليس فقط على السكر الخـاص ، والحوامض الأمينيـة ، والمواد الأخـرى التي هي الآن ضرورية للمفاعلات الكيميـا ـ احيائيـة ولكن أيضاً جـزيئات أخـرى كثيرة والتي هي الآن ليست أكثر من تحف مختبريـة . ولذا كـان من الضروري بـالنسبة

---

(١) انظر المصدر السابق، ص٤٤ .

(٢) انظر المصدر ٧، ص ٣٢ .

(٣) انظر المصدر ٦، ص ١١ .

للمصدر المؤسس أن يكون ذا انتقاء بالغ الدقة منذ البداية) . وهنا فان (سمث) يتفوه بها أخيراً كضرورة « مقدرة المصدر المؤسس وذكائه » . ان هـذا صحيح ولا جدال فيه لأن الانتقاء معناه التمييز ، والتمييز هو أحد خصائص العقل المفكـر . لذا فان المصدر المؤسس كان عالي الذكاء لأنه كان دقيق الانتقاء . وهـذا يقودنـا الى القول بأن صانعاً عـاقلاً جعـل الأشياء تحـدث فيها لـو كانت قـد حدثت كـما يقولون فعلاً . و (سمث) يستمر بالقول[1](كان عليه أن يتحمل جهداً ضخـماً لا يطاق من الجزيئات الصغيرة التي كـانت بايـولوجيـاً « خطأ » ولكنهـا كيميائيـاً ممكنة . ومن هذه الخلفية كان على المصدر المؤسس أن يستخـرج تلك الجزيئـات التي ستكون في النهائية البحر الاحادي المعياري المصنّع روتينياً لكـل البوليمـرات الاحيائية ، وكان عليه أن يـربطهـا بطريقـة يُعتَمَد عليهـا ، وبشكل خـاص) . وهذا هو اعتـراف صريـح وواضح لـذكاء المصـدر المؤسس ، والذي نسميـه الله تعـالى . والقصة التي قـرأناهـا تتضمن احتواء نـوع من المعلومـات والمعـرفـة . وسـوف نـأتي إلى هـذه النقـطة بشيء من التفصيـل في الفصـل القـادم ، ولكننـا سنستمر هنا مع نظريات قصة الحياة لكي نستكشف ونستنفذ كليـاً الافتراضـات غـير المنطقيـة التي يطرحهـا علينا التـطوريون ، ونبـرهن بمـا لا يقبـل الشـك أن النظرية ليس لها ما يبررها على الاطلاق .

من الواضح أن النظرية الســابقة قـادت أصحابهـا الى نهاية مسـدودة لأنها أوصلتهم الى ضرورة وجود المؤسس العـاقل ، واذن كـان هناك تخـطيط عاقـل ، أي كانت توجد حياة وعقـل قبل خلق الكـائنات الحيـة على الأرض ، وهـو الله تعالى . وهذا معناه وجود الصانع ، فـاذن ليست هناك ضـرورة للأخـذ بنظريـة التـطور . ولذا فـان نظريـة أخرى يجب أن تُقتـرح لتحل محلهـا وتبرر المعتَقَـد . (كيم مارشال) تخبرنا عن نظرية أخرى لكيفية نشـوء الحياة ، فتقـول[2](احدى

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١ .

(٢) انظر المصدر ٧، ص ٣٢.

أحدث النظريات تقول أن شواطيء الطين على حافات المحيطات لعبت دوراً مهماً في تكوين الخلايا الاولى . وبالنسبة لهذه النظرية ، فان ماء المحيطات الحسائي المملوء بالدقائق الكيمياوية كان ينجرف على شواطيء الطين بواسطة المد المتصاعد . وعند الجزر يترك بعض الماء فيتبخر تحت الشمس تاركاً الدقائق الكيميائية على الطين . . . . الكُرات الدقيقة التي تنجرف من الطين كانت تمثل الرزمات الصغيرة للجزيئات العملاقة الملائمة للخلايا الحية . والعلماء يسمونها الخلايا الأصلية ، والذي معناه انها كانت قريبة لأن تكون خلايا حية ، ولكن كانت تنقصها بعض المقومات الجوهرية) . ويبدو أنه ليس هناك جديد في هذه النظرية فيما يخص انبثاق الحياة ، ونفس الانتقاد الذي وُجّه الى النظرية السابقة يمكن أن يُوجَّه الى هذه النظرية . ولكن قد نتساءل ، بما ان المحيطات لا زالت موجودة ، والشواطيء لا زالت موجودة أيضاً ، لم لا نرى انبثاق الحياة باستمرار ؟ لماذا حدثت ولادة الحياة في الماضي فقط ثم توقفت بعد ذلك ؟ يبدو أن علماء التطور تتملكهم فكرة (وقد يكون دون وعي منهم) تقول أن الظروف الملائمة لتحويل المادة الى حياة سادت في الماضي فقط ، وليس الآن ، دون أن يعطوا أي سبب لهذا الاعتقاد . و (كيم مارشال) تستمر بالقول[١](كيف وصلت هذه الخلايا الأصلية الى النقطة التي استطاعت فيها أن تنمو وتتكاثر ؟ يعتقد العلماء انه ولمدة سنين طويلة سبح عدد لا يحصى من الخلايا الأولية في البحار متحدة مع بعضها البعض ومع مواد كيميائية أخرى) . وهنا فان الكلام لا زال عن كيمياء المادة الميتة . ثم تستمر فتقول[٢](اولئك اللاتي امتلكن الغلاف الأقوى تماسَكْن مع بعضهن البعض ، بينما أولئك اللاتي امتلكن غلافاً ضعيفاً تحطمن بواسطة الأمواج أو بواسطة أشعة الشمس فوق البنفسجية الكثيرة) . لاحظ التناقض بين هذا الرأي الذي يقول أن أشعة الشمس دمرت

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٢ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

الدقائق الكيمياوية الأولى ورأي (سمث) الذي قال أن الأشعة أنتجت جزيئات عضوية . وعلى أي حال ، فان (كيم مارشال) تتكلم عن نفس المركبات الكيمياوية المتزنة وغير المتزنة التي تكلم عنها (بيتر رسل) ولكن بتعابير مختلفة باستعمال مصطلح الغلاف . وبطبيعة الحال ، فانها لا تعطي أسباباً لكيفية أو لماذا تكوّن الغلاف ، الذي يتألف من ملايين الذرات ، لحماية المكونات الداخلية للدقائق الكيمياوية من الخروج والانتشار الى المحيط ، ولماذا كان بعضها قوياً والبعض الآخر ضعيفاً .

وتستمر (مارشال) بالقول[1](بعض هذه الدقائق الناجية امتصت مواد كيمياوية خلال غلافها وبنت جزيئات أكبر في داخلها . و وهذه الخهلايا الاولى كانت تمتلك طريقة بدائية « لأكل » الكيمياويات من الماء الذي حولها) . اذن ، وكما يبدو ، أن الأكل قد بدأ قبل الحياة في هذه النظرية بخلاف النظرية الاولى التي نصت على أن الذكاء جاء أولاً ، وسوف نرى كمية المعلومات التي تحتاجها الخلية لكي تتمكن من التغذية في الفصل القادم ، ولكن يبدو أن (مارشال) تقول أن الأكل جاء أولاً وليس الحياة . واذا فرضنا أن هذا صحيح فعندئذ من حقنا أن نتوقع الكائنات الميتة تتغذى . ولكننا لا نعتقد أن عاقلاً يجرؤ على القول أنه شاهد كائناً ميتاً يأكل . وعلى أي حال ، فان النظرية لا تخبرنا فيما اذا كانت الكيمياويات المأكولة مواد عضوية مشابهة للخلايا الآكلة أم أنها كانت مواد لاعلى التعيين . ذلك لأن الحالة الثانية تعني أن الخلايا الاولى حولت المادة الى مادة عضوية ، وهذا شيء لا تذكره النظرية لأنه قضية حساسة ، فالكائنات الحية وحدها هي التي تحول المادة اللاعضوية الى مواد عضوية . أما الحالة الاولى فانها تعني أن الخلايا الاولى كان باستطاعتها التمييز بين المواد العضوية والمواد اللاعضوية . وهذه عملية تحتاج الى ذكاء ، وهو من خصائص الكائنات الحية أيضاً . ونحن نتساءل فيما اذا كان أولئك العلماء الذين وضعوا هذه النظرية

(١) انظر المصدر السابق، ص٣٣.

واعـين على هـذه التعقيدات التي تتضمنهـا نـظريتهم أم لا !! ويتضـح أن هـذه الأفكـار تخرج من العلماء بسبب اليـأس والحرج الـذي ينتابهم ، ولكن ذلـك لا يجعل هذه الأفكار صحيحة .

وتستمـر (مارشـال) بإخبـارنا عن كيفيـة بـدايـة التكـاثـر بعـد الأكـل ، فتقول[1](ولكن عندما نمت الى حجوم اكبر ، فان اغلفتها لم تستطع التوسع أكثر ولذا فقد انفجرت معظمهـا وتحطمت . ولكن بعضـاً من الخلايـا الاولى صادف وان امتلكت غلافاً من نوع مختلف . وعندمـا كبرت الى نقـطة معينة لم تنفجـر ، ولكنهـا انقسمت الى خـلايـا أولى أصغـر . . . وهــذه الخـلايـا المنقسمـة بقيت وتكاثرت تدريجياً) . ولكن النـظرية لا تبـين كيف حدث الانقسـام . هل كـان الانقسام الى نسخ متشابهة أم الى اشكال مختلفة وغير مترابـطة ؟ وهل أن الخـلايا الأولى الصغيرة التي جاءت نتيجـة للانقســام امتلكت غلافـاً قويـاً أيضاً ؟ وهـل استمرت في عملية الأكل والانقسام ؟ هكذا وبدون دوافع ؟ أم أنها كانت تعرف ماذا تفعل ؟ واذا كانت على علم بواجبها ، كيف أتتهـا المعرفـة ومن أين ؟ وهل جاءت المعرفة قبل الحياة ؟ أم كانت هنـاك قوة عـاقلة تخطط وتعمـل ؟ وعلى أي حال أين البرهان الذي يثبت أن بعض الخلايا امتلكت غلافاً أقوى من غيرهـا . ليس هنالك أي برهان على أي شيء . والقصة كلها من نسج الخيـال . وتستمر (مارشال) بالقول[2](وعلى مر السنـين ، أصبحت بعض الخلايـا الأصلية أكبـر وأكـثر تعقيداً) بـدون سبب طبعاً. وهـذه القفزة من خـلايـا صغيـرة الى خـلايـا اكبر واكثر تعقيـداً بدون الانقسـام هذه المـرة،ثم تقول (ويعتقـد العلماء أنه قبـل حوالي ٣,٥ مليار سنة ، كانت هناك خلية واحدة على الأقل استطاعت أن تمتص مواداً كيمياوية من الماء ، وكبرت ، وثم انشطرت الى نسختـين مطابقتـين للخلية

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) انظر المصدر السابق، ٣٣.

الأصليـة . وكل واحـدة من هـذه بـدأت « تـأكـل » وتنمـو حتى انشـطرت هي الأخرى) . وطبعاً ليس هنـاك من سبب أو تبريـر . وحتى لو فـرضنا أن الخليـة الأولى انشطرت الى نسختين مطابقتين للأصل ليس هناك برهـان علمي يثبت أن هـذه النسخ استمـرت بعملية النمـو والانشطار الى نسـخ أخرى مـطابقـة لهـا . فالقضيتان لا تتبع احداهما الأخرى ، والافتراضات تمثل قفزات كبيرة نوعـاً ما ، وهناك كثير منها . وعلى سبيل المثال ، دعنا ننظر الى هذه الطفـرة ، (مارشـال) تقول[1](وهذه كانت الخلايا الحية الاولى . وكـل واحدة استلمت رسـالة كـاملة من « امهـا » ـ كُل ، انمـو ، انقسم ، وانقل هـذه الرسـالة الى الامـام) . ومـرة اخرى هناك افتراضات كثيرة ، واحتمالات كثيرة ، وقفزات كثيرة ، فالافتـراض الأول وهـو أن الخلية الأولى امتصت مـواد كيمياويـة ، وهو ليس بـالضـرورة مـا حـدث . الافتـراض الثـاني أن الخـلايـا الأولى نمت . الافتـراض الثـالث أنها ، انشطرت الى نسخ متشابهة ، الافتـراض الرابـع أن هذه النسـخ بدأت تفعـل ما كـانت تفعله الخليـة الأم ، الافتـراض الخـامس أنها نقلت الـرسـالـة الى الأمـام للاجيال القادمة والتي بحـد ذاتها قفـزة كبيرة كـما سنرى . ويبـدو أن الخلية الأم صاغت الرسـالة « كـل ، انمو ، انشـطر ، وانقل هـذه الرسـالة الى الامـام » ثم اعـطتها الى الخليـة النسل . ولكن كيف استـطاعت الخلية الأم أن تصـوغ هـذه الرسالة ؟ ولأي سبب ؟ وماذا عن المعلومات المعقدة التي تطلبتها العملية والنظام المعقد الذي اختـرعته للقيـام بالمهمـة ؟ ليس هناك جـواب لأي من هذه الأسئلة يمكن مشاهدته في النظرية .

وعـلى كـل حـال ، دعنـا نـرى كيف يحـدث سـوء الفهم . (مـارشـال) تقـول[2](ان العملية الأسـاسيـة للنمـو بـواسـطة الانشـطار الى اثنـين (وتسمى الانقسام الفتيلي) والتي عثرت عليها الخلايا الأولى القـديمة صـدفة قبـل ملايـين

(١) انظر المصدر السابق، ص٣٣.

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٤.

السنين لا زالت تستعمل من قبل كل أشكال الحياة في يومنا هذا) . ولكن هل القصة هكذا فعلاً أم أنها على عكس ذلك ؟ أليس الاستنتاج ، معكوساً في الحقيقة ؟ أليس الواقع هو أن العلماء لاحظوا أن اشكال الحياة الحاضرة تستعمل عملية الانشطار للتكاثر فقادهم ذلك الى القول ان أشكال الحياة الاولى استعملت مبدأ الانشطار أيضاً لأنه ليس هناك عملية للتكاثر أبسط من الانشطار ؟ وما فعله علماء التطور هو ليس تفسير ما حدث ولكنهم مجرد عكسوا الملاحظات التي لاحظوها الآن ثم زعموا أن هذا ما حدث في الماضي ، وطبعاً بدون برهان علمي من أي نوع . وهذا شيء محزن للعلم ، وهو ليس علمياً على الاطلاق . أين التجارب العلمية التي تثبت هذه الادعاءات ؟ وماذا حدث للعلم عندما وصل إلى هذه القضية ؟ لماذا تحول الى ما يشبه التنجيم ؟ فالعلماء يلاحظون ما يحدث في الخلايا الحية الآن ثم يزعمون أنه ما حدث للخلايا الاولى . وكان عليهم أن يخبرونا ماذا حدث عندئذ والذي يدلنا على ما يحدث الآن . أن عكس قابلية الانشطار التي لاحظوها في الخلايا الحية الحاضرة لا يمكن قبوله كتبرير منطقي . وهو اعتقاد خاطيء لا يمكن قبوله فلسفياً .

وعلى أي حال ، (مارشال) تعود الى مشكلة المعرفة ، ولكن بدون أن تكون واعية على أهمية موضوع نظرية المعرفة الذي سوف نناقشه في الفصل القادم ، فتقول[١](كل خلية حية احتوت الرسالة « كل ، انمو ، انشطر ، وانقل هذه الرسالة الى امام ». ولكن كيف استطاعت هذه الخلايا أن تفهم الرسالة ؟). نعم كيف ؟ فالفهم نوع من الذكاء فكيف انبثق الى الوجود ؟ وبطبيعة الحال فانها لا تجيبنا على هذا السؤال المهم ، ولكنها تخبرنا عما وجد العلماء في الخلايا الحية الحاضرة[٢]فتقول (في عام ١٩٥٣ ، حل أربعة من العلماء الغموض) .كلا ، انهم في الواقع لم يحلوا الغموض عن الكيفية التي

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦.

أصبحت فيها الخلية قادرة على فهم الرسائل ، وهو الذي تقصده (مارشال) . وكل الذي فعلوه هو انهم اكتشفوا كيف تستطيع الخلية الحية الحاضرة أن تفهم الرسائل . وهذا يختلف عن القول أن العلماء اكتشفوا كيف فهمت الخلية الأولى الرسائل . وعلى كل حال ، أنها تقول أن هؤلاء العلماء[1] (فهموا تركيب الجزيئات العملاقة المسماة DNA « وهي مختصر لحامض ديوكسير يبونواتي Deoxyribonucleic »، والتي تحتوي على رسائل الخلية . . . . وقد اكتشفوا أن جزيئات الـ DNA، تشبه في مظهرها حبل السلّم، والتي سموها السلولب المزدوج) اذن فان ذكاء الخلية يكمن في الـ DNA ،وهو عقل الخلية . وفي الواقع فانه حاسبة صغيرة جداً . وكيفية عمله معقد جداً ، ولذا سوف لن ندخل في تفاصيله وما تخبرنا به مارشال يكفي ، فهي تقول[2] (ان « حبل » و « خطوات » الـ DNA كما قالوا « أي العلماء الأربعة» مصنوعة من أربعة أنواع من العناصر الأساسية للنويّات مربوطة مع بعضها البعض بطريقة خاصة تستطيع أن تحمل الرسائل الرمزية للحياة . الـ DNA موجود في وسط جميع الخلايا الحية . ويعمل كذاكرة ومركز سيطرة للنمو والتكاثر . وكل « خطوة » في السلم المفتول عبارة عن « كلمة » رمزية من البيانات تخبر الخلية عن كيفية بناء نفسها خطوة فخطوة ، ومتى تنشطر الى اثنين) . وأنه لواضح أن برنامج الـ DNA معقد الى حد يصعب معه تصوره . ولكن مَنْ كتب هذا البرنامج ؟ وهل من الممكن أن يكون قد أتى بنفسه ؟ ومن هو الذي يعطي الأوامر في هذا البرنامج ؟ ومن هو الذي ينفذ هذه الأوامر ؟ وبطبيعة الحال فاننا هنا نتكلم عن أوامر صارمة ومحددة ، وعن نظام معقد يتضمن تخطيطاً ويحتوي على أجزاءاً مختلفة وظيفياً وفسيولوجياً . فبعضها يعطي الأوامر والبعض الآخر ينفذ . وكلاهما، بطبيعة الحال، يحتاج الى ذكاء لأداء

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٦ .

وظيفته سواء اصدار الأوامر أو فهمها وتنفيذها . و (مارشـال) تقول[1](وهـذه القابلية الرائعة على الانقسام الى حبلين متشابهين وبناء المقدرة هي الأساس لكل أنواع الحياة على الأرض ولولا الـ DNA لما استطاعت الخلايا ان تتكاثر) . نعم ان هـذا صحيح ولكن مـاذا يعني الـ DNA بحد ذاتـه ؟ لا شك أنـه يعني ذكاء ، ومعرفة . . . أليس كذلك ؟ اذن فان الحياة هي ذكاء ومعرفة ، وليس مجرد أكوام من المواد العضوية . وهنا تصل النظريـة الى نهاية مسـدودة كسابقتهـا . فالخليـة الأولى احتاجت الى معرفة . ولذا يجب ايجاد طريقـة ما لتبـرير النـظرية والأفكـار التي تتضمنهـا . ولكن كيف ؟ بطبيعـة الحال ليس هنـاك طريق آخـر غير عكس الملاحظات التي يمكن مشاهدتها في الكائنـات الحية ، بـالضبط كعكس خاصيـة الانشطار التي مرت سابقاً . و (مـارشال) تقـول[2](لقد كـان صورة أبسط من DNA اليوم ، ذلك الـذي أعطى الخـلايا الحيـة الأولى القابليـة على الانشـطار ونقـل الرسـالـة الى امـام قبـل حـوالي ٣,٥ مليـار سنـة ، وابتـدأ قصـة الحيـاة المـدهشة) . يـا له من علم هـزيل ، فخيـال العلماء وتصورهم لم يـذهب خطوة واحـدة أبعد من الـ DNA . فبقيت عقـولهم محدودة بتقنيتـه ولم يستطيعـوا تصور تقنيـة أخرى لأداء نفس الـوظيفة . لـذا فكل مـا كان بـاستطاعتهم أن يقتـرحوا للخليـة الأولى هو DNA أي أنـه ليس أكثر من مـلاحظات لاحـظوها عـلى الخليـة الحية الحاضرة . ولكي يكون اقتراحهم مختلفاً عن الواقـع الحاضر نـوعاً ما قالوا انه كان DNA أبسط ، ولكن السؤال هو : ما هي درجـة البساطـة التي يتكلمون عنها ؟ وكيف كان الـ DNA الأول ؟ مـا هو تشـريحه ؟ وكيف أتى الى الخليـة ؟ وكيف فرض نفسه كعقـل يعطي الأوامـر الى الأجزاء الأخـرى ؟ وكيف استطاع اقناع هذه الأجزاء أن تطيع أوامره وتنفـذها ؟ وهـذه الأجزاء أيضـاً احتاجت الى ذكاء وقابلية لفهم الأوامر وتنفيذها . فنحن هنا نتكلم عن نظام متعدد الأجزاء .

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٨ .

ولكن لا جواب يأتي من العلماء على أي من هذه الأسئلة . ونحن نتوقع أن يخبرنا العلماء عن آلية بدائية تشكلت في الخلية البدائية ، ذلك لأن الـ DNA، مهما كان بسيطاً ، فهو معقد جداً ويمتلك ذكاءاً مفرطاً ، ولا يمكن تصوره انه انبثق هكذا من عند ذاته . ان ظهور الـ DNA بحد ذاته قفزة لا تُضاهىٰ ، وهي تحويل المادة الميتة الى مادة حية . انه الحياة نفسها . فأما أن تكون أو لا تكون ، وهو الموضوع باكمله . ولكن يبدو أن العلماء لا يقفون عند هذه القضية بالكفاية التي تستحقها لكي يقوموا بالتمحيص المطلوب . وقد يكون سبب ذلك أنهم يستعملون اسلوب عكس الملاحظات .

ولكي تتكون عندنا فكرة عن تعقيد الخلية الحية ، ننظر الى ما يقوله (بيتر رسل)[1](ان ملايين الجزيئات العملاقة التي تكوّن الخلية الحية هي نفسها منظمة على شكل عُضَيّات (وهي اجزاء الخلية) . والتي هي بدورها منظمة بطرق خاصة ، وتتبادل الفعل مع بعضها البعض بأوقات محددة ولغايات محدّدة ، والتي الآن فقط بدأ علماء الأحياء يفهمونها . . . . وتعمل العناصر بطرق تساعد بعضها بعضاً بصورة متبادلة وتلقائية . ولذا فهناك أقل ما يمكن من التعارض الذاتي بينها ، ان لم يكن هذا التعارض معدوماً) . وواضح من هذا أن النظام هو من أعقد الأنظمة الموجودة على الأرض وأكثرها دقة ، والذي لا يمكن تفسيره بشروح بسيطة مبتورة الأواصر كتلك التي يقدمها لنا التطوريون .

و (مارشال) تلتفت بعد هذا الى نقطة مهمة عندما تقول[2](لقد عاشت الخلايا الحية الأولى حياة ملؤها المخاطر ، وأنها لأعجوبة ان أيّاً منها بقي) . ولكن بما أنها بقيت ، فان التطوريين لا بد وأن يجدوا مخرجاً . وهذا يشبه قصة المسيح (ع) ، فلأنه لا أب له لا بد وأنه ابن الله . ولكن ماذا عن آدم ، كيف

---

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٧ وص ١١٠ .

(١) انظر المصدر ٧ ، ص ٣٨.

جاء هو الآخر بدون والِدَيْن ؟ ولماذا هـو ليس ابن الله ؟ وإذا كان الله قـادراً على خلق آدم بـدون أم وأب الا يستـطيـع أن يخلق عيسىٰ من أم فقط ؟ ويبـدو أن التطوريين ورثوا هذا المفهوم من خلفياتهم . « شيئـاً لا بد وأَنْ يكـون قد حـدث لتلك الخلايا مما جعلها تعيش وتبقـى». هكـذا يقولـون ، بدلاً من التخـلي عن النظرية والتفكير بوجهة نظر أخرى مختلفة عنها كلياً . وتستمر النظرية بالقول أن بعض هذه الخلايا تحولت الى خلايا مفترسة وبدأت تأكـل خلايـا أخرى ، ولـذا فقـد بدأ الانتخـاب الطبيعي . وبـطبيعة الحـال ، عندمـا تصل القصـة الى هذه النقـطة فان مـا تبقى ليس صعب الترقيـع ، حيث أن الحياة قـد بـدأت . ولكن ليس هناك سبب يعطيه العلماء لتحول هذه الخلايا الى خلايا مفترسة. وقد تكون فكرة أخرى مقتبسة من الطبيعة. فالحيوانات المفترسة موجودة . وعلى أي حال فان القصة تبقى نظريـة ، أو مقترحـاً ، بدون أي اثبـات علمي من أي نوع كـان .

وأغرب ما في النظرية هو أنها تفترض أن الخلايا الحية الأولى كانت تعيش في ثاني أوكسيـد الكاربـون ، بينما كـان الأوكسجين سـماً قاتـلاً لها . ولكن عنـدمـا بـدأ الأوكسجين يملأ المحيط الجوي ، تتبدل القصـة لتقول أن الخـلايا بـدأت تتغذى عـلى الأوكسجين (الـذي كان سـماً قـاتـلاً في البـدايـة) وتـطرح ثـاني أوكسيـد الكاربون (الذي كان الغاز الذي تعيش عليه الخلية ، والآن هـو سم قاتـل) .

وهـذا الانعكاس المدهش شيء لا بد من الوقوف عنده ، وطرح بعض الأسئلة : كيف يتحول السم الى غذاء ؟ ولمـاذا يصبح ثـاني أوكسيد الكـاربون سـماً ، وقد كان غذاءاً ؟ لماذا لم يبقىٰ غير مؤذ عـلى الأقل ؟ أليس هـو تطوراً ؟ ولمـاذا تغذت الخلية على الأكسجـين وليس النتروجـين ؟ وكيف يمكن تفسير هـذه الفجوة ، أو بالأحرى القفزة المدهشـة ، والتي حولت الغـذاء الى سم والسم الى غذاء ؟ عـلى أنه يمكن القول بكل تأكيد أن الخلية احتاجت الى كمية كبيرة جداً من المعلومات لكي تحتضن تغييـراً كهذا ، لأنـه لا يمكن لأي تغير أن يحـدث بـدون معلومـات ومعرفة . وجـدير بـالذكـر هنا أنـه كان عـلى الخلية ، ولكي تبـدأ بالتغـذي على

الأوكسجين ، أن تخترع عملية التمثيل الضوئي ، وهي عملية معقدة جداً وتتطلب نظاماً دقيقاً ، فكيف جاء هذا النظام الى الوجود هكذا من نفسه ؟ وما هي كمية ونوعية المعلومات التي تطلبها والتي كان على الخلية امتلاكها ؟ وبطبيعة الحال ، ومرة اخرى ، فان العلماء لا يذكرون ذلك وليس هناك من تفسير له في أي مكان من النظرية . وبناء النظرية يمكن تصوره كمن يريد أن يبني داراً فيرمي الطابون والسمنت وقضبان الفولاذ والشبابيك والأبواب والماء . . الخ على قطعة من الأرض ، ثم يرتبها بعضها فوق بعض ويتوقعها أن تربط نفسها على شكل دار تلقائياً . وليس هناك أي ذكر للهندسة التي تتطلبها هذه العملية ولا لرجال البناء. ان الذي نريد توضيحه هنا هو انه لا يبدو ان احداً من هؤلاء الذين يؤمنون بالتطور مكترث بالمعلومات والذكاء الذي تتطلبه التغيرات التي حصلت على المادة لكي تتحول الى خلية . وهذه نقطة مهمة جداً لم تتطرق لها نظرية التطور ، وقد اختار العلماء أن يهملوها .

والسؤال هو كم من المعلومات احتاجت الخلية لكي تصبح حية ؟ وكم احتاجت من الذكاء ؟ .

ويجب ان نتذكر أن الخلية الحية ليست مجرد مجموعة من الجزيئات ، فهذه الجزيئات يجب أن ترتب بنظام خاص عالي التعقيد . وليس هذا فقط ، فالخلية الميتة تمتلك نفس النظام المعقد الذي تمتلكه الخلية الحية ، ولكنها مع ذلك ميتة . ولذا هناك عنصر آخر ضروري للحياة ، هو جريان الطاقة والمعلومات خلال أجزاء هذا النظام بالاضافة الى الترتيب المعقد له . و(بيتر رسل) يؤكد هذه الحقيقة بالقول[1](والقضية الحاسمة بالنسبة للتعقيد هو جريان المادة والطاقة والمعلومات بين المركبات العديدة والأنظمة الفرعية . . . . وفقط عندما تصبح الطاقة منظمة بطريقة خاصة تبرز ميزات المادة وتُظهر نفسها ، وفقد عندما تصبح

---

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٩ ـ ٦١ .

عدة وحدات من المادة متجمعة على شكل نظام بطريقة معينة يبرز الوعي ويُظهِر نفسه . . . . وكل كائن حي من الاسشريشيا القولونية الى الحوت الأزرق ، عبارة عن تجمع عالي التنظيم من المادة والطاقة . وبمرور الزمن ، فان الأنظمة الحية المستقلة ، ليس فقط تحافظ على درجة عالية من التنظيم الداخلي لها ، ولكنها تبني هذا التنظيم أثناء نموها وتطورها أيضاً) .

وعلى أي حال ، سوف ننظر الى هذه النقطة في الفصل القادم لمحاولة الحصول على جواب لهذا السؤال وتمحيص احتمال حدوثه ، لتحديد ما اذا كان قد حدث فعلاً . أما هنا ، فيمكن القول أن ما اقترحته النظريات يمكن اختصاره كما يلي :

الظروف كانت مناسبة

الخلايا انبثقت.

الخلايا تطورت.

استنتاج

لقد أجرينا تحقيقاً في نظريات الخليقة السائدة التي تفترض أن الحياة كانت قد انبثقت على شكل خلية ، فتوصلنا الى نتيجة تشير الى أن هذه النظريات ليست سوى تخمين لا يستند على أي برهان أو دليل علمي . وتتوفر عدة آراء حول الموضوع ، ولكن ليس هناك اتفاق بين العلماء حول أي منها . والنظريات الموجودة هي آراء لأشخاص ليس الا . وقد بينت التجارب زيف هذه الاعتقادات ، أو على الأقل عدم ضرورة صحتها . كما أنها لا تستند على أسس فلسفية مقبولة ، وتتخللها قفزات لا يمكن تفسير حدوثها . وبذلك فان النظريات غير متسقة أو مترابطة .

الفصل الخامس

المعلومات التي احتاجتها الخلية الحية الأولى :

المعرفة التي احتاجتها الخلية :

سوف نعتبر جدلاً أن الخلية الأولى انبثقت من المادة كما تصفها النظرية الدارونية لظروف خاصة وبطريقة الصدفة ، ثم ننظر الى مقدار المعلومات التي احتجتها هذه الخلية لكي تعيش وتتطور . ولما كانت هذه الخلية قد انبثقت نتيجة تحول المادة الى الخلية الحية ، فلا بد وأن هذه المادة امتلكت شيئاً جديداً لم تملكه قبل تحولها الى الخلية الحية . كما أن هذا الشيء لا بد وأن يكون زيادة نحو الأحسن والأرقى ، وهو الحياة . أي أن المادة امتلكت الحياة التي هي أرقى وأصبحت خلية حية . (وهذا استنتاج يتفق مع نظرية التطور نحو الأرقى على فرض قبولها . فالزيادة هي الحياة) .

ولكن ما معنى الحياة ؟ انها قابلية الخلية على الحركة والتغذي والتنفس والنمو والتكاثر الخ . وهذه القابلية معرفة ، والمعرفة ذكاء . أي أن الخلية الحية أكثر ذكاء من المادة فهي تسخر المادة لرغبتها . وهذا الادراك لأمكانية تسخير المادة ، والقيام بهذا التسخير فعلاً ، وهذا الاحساس بالرغبة للقيام بذلك ،

كلها نوع من الذكاء والمعرفة حصلت عليها الخلية الحية لحظة انبثاقها . أي أنها ولدت معها . فالخلية لم تكن مجرد ذرات تجمعت عشوائياً ولكنها كانت تجمعاً لهذه الذرات بتركيب دقيق ونظام يتكون من عدة اجزاء ، كل جزء له وظيفته ، وحياته ، وذكاؤه ، والخلية وحدة متكاملة ، وعالم بحد ذاته ، وذو شأن يخلب اللب في وجوده . يقول (ج . ليدْ ياردْستَبنْزْ)[1] (ولدرجة كبيرة ، فان الأشياء الحية مدينة في طبيعتها الى الطريقة التي تنتظم فيها المكونات بأنماط مرتبة ، والتي هي أكثر استقراراً من المواد نفسها) . و (بيير تايلهارد دي شاردين) يقول[2] (لقد كُتِبت مجلدات عن الخلية ، ولا تكفي مكتبات بأكملها لاحتواء الملاحظات الدقيقة التي تخص تركيبها ، ووظائف البروتوبلازما والنواة والطريقة التي تنشطر فيها وعلاقتها بالوراثة . ومع ذلك ، فانها بنفسها ، لا زالت كتاباً مغلقاً ، ولا زالت مبهمة كما كانت دائماً . وتبدو ، وكأنها ، حالما نصل الى عمق معين في تفسيرنا ، نجد أنفسنا مختَزَلين الى رسم علامات الزمن أمام حصن لا يمكن اختراقه) . وكل هذا بسبب الحياة الموجودة في الخلية . فالصعوبة والاعجاب سببهما هذه الحياة التي هي بأبسط أشكالها عبارة عن نوع من الذكاء الذي مكّن الخلية من الاستمرار في الحياة والتكاثر والتطور ، وهي شروط ثلاثة لا بد من توفرها اذا كانت الخلية الحية قد تطورت الى الانسان .

ونود أن نشير هنا الى ان الافتراض الذي تطرحه نظريات التطور من أن التغذية أو التكاثر (بواسطة الانشطار) حدثت قبل أن تصبح الخلية حية لا يمكن قبوله مهما كانت الخلايا بدائية ، وذلك لأن التغذية والتكاثر من خصائص الكائن الحي ، وليس العكس . أي أن الخلية يجب أن تكون حية لكي تكون عندها القابلية على التغذية والتكاثر ، لا أن تتغذى وتتكاثر ثم تصبح حية . فالتغذية والتكاثر عمليات منظمة بدقة فائقة وتتحكم فيها قوانين دقيقة تتطلب

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٢) انظر المصدر ١٩ ، ص ٧٤ .

نوعاً من الذكاء مهما كان هذا الذكاء بسيطاً . وبطبيعة الحال فان الذكاء لا يمكن أن يوجد بدون حياة ، فهو أحد خصائص الأشياء التي توصف على أنها حية .

الاستمرار في الحياة :

الخلية الأولى استمرت بالحياة ، ولو لم تستمر لما تطورت الى الكائنات الحية الموجودة على الأرض (على حد زعم نظرية التطور) . والسؤال هنا ما هي المعرفة التي احتجاتها هذه الخلية لكي تستمر في الحياة وتتفادى الموت ، والتي مكنتها من التغذية والتنفس الخ ؟ الجواب على ذلك يصبح واضحاً بعد تمحيص النقاط التالية :

أ ـ الغذاء :

لكي تتمكن الخلية من أخذ الغذاء فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ ان الغذاء هو سر ديمومة الحياة وهو الوسيلة الوحيدة لاستمرار الحياة ولا يمكن الاستمرار بدونه .

ـ انها يجب أن تتناوله ، وفي الأوقات المناسبة ، أي الشعور بالجوع .

ـ ان ما يحيط بها من مواد بعضها غذاء نافع وبعضها سام ومضر ، أو على الأقل ليس مفيداً .

ـ عليها أن تميز أي المواد نافعة وأيها ضارة .

ـ كيفية الاستفادة من الغذاء الذي تأخذه ، أي الاحتياج الى نظام للتغذية .

ـ ان عملية التغذية تنتج فضلات سامة وعليها أن تطرح هذه الفضلات ، وأن عدم طرحها يؤدي الى الهلاك والموت .

ـ كيفية طرح هذه الفضلات ، أي ايجاد نظام لطرح الفضلات .

ب ـ التنفس :

لكي تتمكن الخلية من التنفس ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ ان الأوكسجين ضروري للحياة ، ولا تستمر الحياة بدونه . وإذا فرضنا أن الخلية تبدلت من التغذي على الكاربون الى التغذي على الأوكسجين (حيث أن نظرية التطور تذكر ذلك كأحد الاحتمالات) فان ذلك معناه أن الخلية قررت أن تبدل طريقة حياتها كلياً .

ـ ان الأوكسجين غاز وطريقة تناوله تختلف عن طريقة تناول الغذاء .

ـ لذا كان على الخلية ايجاد نظام لتناول الأكسجين ، وهو نظام التنفس .

ـ ان هناك غازات أخرى في المحيط وعليها أن تفرق بين كل واحد منها لكي تعرف من هو الأوكسجين فتأخذه .

ـ ان الغازات الأخرى غير مفيدة لعملية التنفس فلا تأخذها وبدلاً من ذلك تطرحها مع الفضلات . كما أن ثاني أوكسيد الكاربون المتولد من عملية التنفس سام ومضر ويسبب الاختناق والموت ولذا عليها أن تطرحه الى الخارج .

ـ كيفية ايجاد نظام للاستفادة من الأوكسجين مع الغذاء ، أي عملية الاحتراق الداخلي .

حـ ـ الضوء :

ـ لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الضوء ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ الضوء موجود ومهم للحياة .

ـ كمية الضوء الضرورية للحياة .

ـ كيفية استلام الضوء والاستفادة منه . أي نظام التمثيل الضوئي .

د ـ الحرارة :

لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الحرارة ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ الحرارة الزائدة عن حاجتها تقتلها .
ـ الحرارة القليلة لا تكفي والبرد الشديد يقتلها .
ـ تجنب الحرارة الفائضة والبرد الشديد مفضل لاستمرار الحياة وعليها أن تفعل ذلك .

النمو والتكاثر :

لكي تتمكن الخلية من النمو والتكاثر ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ انها ولدت لتبقى .
ـ التكاثر هو الطريقة الوحيدة للاستمرار .
ـ التكاثر هو أفضل الطرق للتطور .
ـ انها ستموت يوماً ما وهذا الموت معناه فناء الحياة فيها .
ـ كيفية التكاثر .
ـ عليها أن توصي الخلية النسل بجميع ما تحمله من علم ومعرفة وقدرة مع جميع الأسباب الضرورية لهذه المعرفة . وعليها أن توصي الخلية النسل أن توصي مَنْ بعدها من النسل بهذه المعلومات .

ـ أفضل الطرق لنقل المعلومات الى الأجيال القادمة هي الوراثة .
ـ امتلاك (او ايجاد) نظام الوراثة .
ـ لكي يتم التكاثر يجب أن تنمو أولاً لكي تنشطر الى خليتين متساويتين في كل شيء .

التطور :

لكي تتمكن الخلية من التطور ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ انها ولدت ليس لتبقى فقط وإنما لكي تتطور ايضاً الى كائن حي أكثر تطوراً وتعقيداً ، فالغاية لم تكتمل بايجاد الخلية . وعليها أن تتطور وإذا لم تتطور فانها سوف تحطم جميع الآمال التي علقتها عليها المادة .

ـ لذا كان عليها امتلاك قابلية التطور .

ـ يجب أن تنقل هذه الخاصية الى النسل الجديد .

ـ ان التطور يأخذ وقتاً طويلاً ، لذا عليها أن توجد ظاهرة الطفرة الوراثية لتقصير زمن التطور .

معارف منظمة ومعقدة :

فيما تقدم تعرفنا على بعض المعارف الأساسية التي كان على الخلية الجديدة أن تمتلكها ، على أن هذه ليست جميع العلوم الضرورية التي كان على الخلية معرفتها . ومنها يتضح أن الخلية كان عليها أن تحتوي على معلومات كثيرة وبمنتهى الدقة والتعقيد لكي تستمر وتتكاثر وتتطور ، والا فانها سوف لن يكتب لها البقاء . ويمكن ملاحظة ما يلي على هذه المعارف .

١ ـ معارف معقدة :

ان عملية التغذية وعملية الحركة هما في الحقيقة تحويل المادة الى طاقة وهذه العملية تحاج الى معارف معقدة وعميقة . فامكانية تحويل المادة الى طاقة تحكمها قوانين في منتهى التعقيد ، وقد اكتشف الانسان هذه الامكانية حديثاً بعد تقدم العلم ونظريات الرياضيات والفيزياء (بحيث أن فهم هذه النظريات يصعب على الانسان العادي) ، وبعد اختراع الأجهزة المتطورة المستعملة في

التجربة . ولكن الخلية الأولى عرفت كل ذلك وعملت به . كما أن عملية التنفس عملية كيمياوية معقدة ، وقد عرفتها الخلية وعملت بها .

٢ ـ معارف غيبية أو مسبقة :

أ ـ اختارت الخلية طريق التكاثر لادخال أكثر ما يمكن من المادة الميتة الى الخلية الحية ، وللاستمرار بالحياة . وسواءاً كان هذا الطريق هو الطريق الوحيد لانجاز ما تصبوا اليه أم لا ، فلا بد وأنها توصلت اليه باعتباره أفضل الطرق تمشياً مع فكرة التطور نحو الأحسن، أي أن الخلية عرفت أن هذا هو أفضل الطرق. هذه المعرفة لا بد وأن تكون قد أتت عن أحد طريقين. الأول أن الخلية (أو المادة) أجرت عمليات حسابية معقدة عن مختلف الطرق و وتوصلت الى أن أفضلها هو طريق التكاثر . وهذا يتضمن معرفة معقدة جداً وعميقة لجميع الاحتمالات الأخرى ، وأن اخلية (أو المادة) لم تحتج للتجربة لمعرفة الطريق الأفضل ، بل توصلت اليه عن طريق نظري ، أي ميتافيزيقي . وهذا بحد ذاته تناقض مع المادية .

الاحتمال الثاني أن هذه المعرفة أتت عن طريق غيبي مجهول .

ب ـ اختارت الخلية طريق التكاثر لاستخدامه في التطور ، حيث أنها قررت أن أفضل الطرق لإحداث الطفرات والتطور يجب أن يكون عن طريق النسل الجديد وليس عن طريق إحداث التطور في الخلية الأم . ولا بد أن الخلية (أو المادة) . وبعد حسابات معقدة ، توصلت الى أن إحداث الطفرات في النسل الجديد أفضل من تطوير الخلية الأم ، أو أنها توصلت الى عدم امكانية تطوير الخلية الأم فاتجهت هذا الاتجاه للتكاثر . وتجب الملاحظة هنا أن الأم لو لم تكن تعرف ذلك لحاولت تطوير نفسها لا أن تموت ويتطور النسل الجديد .

ج ـ اختيار الخلية طريق التغذية والتنفس واجراء عملية الاحتراق الداخلي لا بد وأن يكون على علم مسبق بأن الأوكسجين هو العنصر الوحيد الذي

بالامكان استخدامه حيث أنه العنصر الوحيد الذي يساعد على الاحتراق . وإلا لماذا اختارت الخلية الأوكسجين ولم تختر الغازات الأخرى بالرغم من توفرها في الجو ، وأحياناً بنسبة أكبر من نسبة الأوكسجين ، كغاز النتروجين مثلاً .

د ـ الخلية تطورت الى نباتات وحيوانات . والحيوانات أرقى من النباتات على سلم التطور . من ذلك نستنتج أن الحيوان هو الغاية المنشودة من عملية التطور اذا كان التطور فعلاً يهدف الى أنواع عليا من الأحياء كما تزعم النظرية . ويلاحظ أنه بوجود الحيوان والنبات معاً فقط يستطيع الحيوان أن يعيش . فالحيوانات في النهاية تعيش على النباتات ، لأنه حتى الحيوانات المفترسة تعيش على الحيوانات التي تتغذىٰ على النباتات . ووظيفة النباتات هي استعمال ضوء الشمس لتحويل مكونات الأرض الى غذاء (على شكل مواد عضوية) والحفاظ على نسبتي الأوكسجين وثاني اوكسيد الكربون ثابتتين بالقيمتين الضروريتين لادامة الحياة .

ولما كان الحيوان هو الأرقى الذي تنشده المادة من مشروعها العظيم ، فلا بد وأنها (أي المادة) اتخذت القرار بتطوير خط مائل من الكائنات الحية ، وهو النبات ، لا لانه الغاية المنشودة ولكن لكي يخدم الكائن المتطور المنشود وهو الحيوان ، الذي تطور بعدئذ الى الانسان ، ويوفر له الظروف الأفضل . أي كان على جزء من الخلايا أن تتطور الى الحيوان باعتباره الأرقى وهو الخط الأصل الذي أرادته المادة في تطورها نحو الأرقى . وكان على الجزء الآخر من الخلايا أن يتطور الى نبات لا لشيء سوى لخدمة الحيوان . وهذا علم مسبق وتخطيط دقيق يحتاج الى قوة ذكية جداً لتدبيره .

ولما كان الانسان هو الكائن الوحيد الذي تطور فأصبح أرقى الحيوانات ، فلا بد وأنه هو الكائن المنشود الذي وُجِدَتْ الطبيعة بأكملها لخدمته . ولو لم تكن هذه هي الحالة لكان هناك أكثر من كائن حي متطور لتأمين وجود الاحتياط

فيما اذا انقرض أحدهما ، ولكي يستمر مشروع الحياة العظيم ولا ينقطع بعد وصوله الى هذا الحد المتطور أو يجابه نكسة كبيرة مثل الرجوع الى مستوى اوطأ من الكائنات الحية ثم الصعود مرة أخرى .

ان تطور الانسان وحده ليكون أفضل الكائنات ظاهرة تلفت الانتباه ، حيث يبدو أن الطبيعة قد صُنِعَتْ (بواسطة التطور أو غيره) لخدمة الانسان . و (برتراند رسل) يشير الى ملاحظة مهمة في هذا الصدد ، متكلماً عن تأكيد الأديان السماوية بأن الله صنع الطبيعة لخدمة الانسان فهو ، وبعد تمحيص الموضوع ، يقول[1] (حقاً تبدو غاية الله من خلق الكون تخص الانسان بصورة رئيسية) .

الحقيقة الخافية :

عندما نتأمل في المعلومات التي كان من الضروري أن تمتلكها الخلية عند انبثاقها (اذا كانت قد انبثقت فعلاً) نجدها نفس المعلومات الأساسية الموجودة في خلية الكائن الحي الموجود في عصرنا . وسبب ذلك هو أن أي خلية يجب أن تمتلك معلومات كهذه لكي تكون حية مهما كان نوع الخلية ووظيفتها . وهذا يقودنا الى الاستنتاج بأن الخلية الاولى لم تكن مجرد خلية بسيطة أو بدائية تحركت ولذا أصبحت حية ، بل انها احتوت في نفس الوقت على معلومات كثيرة وفي منتهى التعقيد . وهذه الحقيقة غفل عنها دارون ويغفل عنها التطوريون .

الحادث اذن لم يكن مجرد صدفة واحدة ، أو صدفة عادية ، بل انه (وعلى فرض القول انها صدفة) كان مجموعة كبيرة من الصدف اجتمعت في آن واحد وبترتيب في منتهى الدقة وبالمقادير اللازمة لانتاج شيء محدد ، بلا زيادة ولا نقصان ، لا في العدد ولا النوعية ولا الترتيب . فان كانت هذه صدفة حقاً فانها بلا ريب صدفة غريبة ، وأغرب من الخيال ولا تتفق مع أي قانون عقلي، أو أي

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢٣ .

قانون آخر في الكون . لان العقل انما يعتمد على المنطق في استنتاج الأسباب والمسببات للعلل ، والمنطق لا يقبل وقوع هذه الصدف الكثيرة العدد ، والمتناهية في التعقيد . ولكن هناك بعض الناس يعتقدون فعلاً أن هذه الصدف حدثت بهذا الأسلوب الغريب ، والأغرب منه أنهم يعتبرونها علمية ومنطقية . ولو تصورنا أن هؤلاء الناس يجدون حجراً على الطريق ويسألون عن الذي وضعه هناك ، وكان الجواب انه جاء بنفسه بطريقة الصدفة كما انبثقت الخلية بطريقة الصدفة (ولو أنها صدفة أقل تعقيداً) فهل سيصدقون ذلك ؟ بل حتى لو أنهم رأوا الحجر يتحرك بنفسه الى الطريق لظنوا أن عيونهم تخدعهم . لماذا ؟ الجواب بسيط ويكمن في أن قوانين العقل البشري لا تقبل هراءاً كهذا . ولكن العجيب في الأمر أن نفس هؤلاء الناس يصدقون هراءاً أكبر من القول بأن وجود الحجر في الطريق صدفة ، اذ أنهم يصدقون اجتماع كل تلك الصدف الكثيرة لانتاج الخلية بالرغم من عدم رؤيتهم لها ، وبالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على ذلك .

ما الذي يجعل الناس يصدقون هذا ؟ وأكثر من ذلك يعتقدونه حقيقة علمية ؟

نحن نعتقد أن السبب هو ثقة الناس بمن يعتقدون أنهم ذو علم ومعرفة ، وتأثرهم بالوسط الذي يعيشون فيه ، اضافة الى جهلهم في أمور كثيرة والذي يجعلهم يصدقون ويعتقدون بما يظهر لهم وكأنه حجة منطقية . المشكلة أن هناك أفكار كثيرة تبدو منطقية ، ولكنها مبنية على أسس ونقاط انطلاق خاطئة ولكن الناس لا يبحثون عن أصل الأشياء أو أسس الأفكار . فهذه عملية تحتاج الى وقت وجهود ، ومعظم الناس لا يزعجون أنفسهم بها ، ويمكننا أن نلاحظ أنه ليس من الصعب بناء فكرة تبدو منطقية ولكنها تستند على قاعدة غير منطقية ، اذ قد يكون الافتراض الأول غير مقبول كما نرى ذلك مع الماركسية . وفي قضايا المحاكم يحاول الحاكم أن يجمع أكثر ما يمكن من المعلومات حول القضية التي

ينظر فيها لكي يكون حكمه مستنداً على أساس قوي . واذا لم يجمع المعلومات الكافية فقد لا يكون حكمه صحيحاً ، لأن معلومات قليلة اضافية قد تعكس قرار الحكم اذا توفرت .

وذلك الذي يعتقد بصدفة خلق الخلية ، وبنفس الوقت لا يعتقد بصدفة وجود الحجر في الطريق ، يناقض نفسه بكل تأكيد . اذ لو كان اجتماع كل تلك الصدف لانتاج الخلية ممكناً ، فما المانع من أن يكون الحجر موجوداً صدفة أيضاً ؟ إما أن نقبل الاثنين معاً ، وهنا سوف يحدث خلل لا يمكن اصلاحه لأننا في هذه الحالة سوف لن يمكننا أن نقبل ، أو نستعمل أو نعتمد على قوانين الاستقراء والبرهان العقلي ، وأي شيء يصبح بالامكان اعزاؤه الى الصدفة ، وعندئذ تنهار نظرية المعرفة بأكملها .أو أن نرفض الاثنين معاً ، وفي هذه الحالة سوف لن يختل أي توازن ونستطيع أن نستعمل الأسس العقلية في البرهان والاستنتاج والاستقراء والمنطق بنفس الطريقة التي أوصلتنا الى جميع أنواع المعرفة .

أما اذا أصر التطوريون على رأيهم فعليهم في هذه الحالة أن يفسروا لنا كيف اجتمعت كل تلك الصدف بهذا الترتيب المتناهي في العظمة والدقة لانتاج أعظم حدث في وجودنا ، وهو الحياة والعقل . وليس مقبولاً أن يستمروا بتحسين صفات أنواع من النباتات ، والحيوانات ويلقونها كبرهان على التطور ، ثم يربطونها بطريقة ما ليوحوا بأن الخلية انبثقت بالطريقة التي يزعمونها .

العقل المدبر :

ان نظرة بسيطة الى المعارف المعقدة والمعارف الغيبية أو المسبقة الآنفة الذكر والتركيب المعقد لمكونات الخلية ونظامها المتطور يدلنا على أن هناك عقلاً واعياً ومدبراً بمنتهى الحكمة والذكاء وراء تلك العلوم والمعارف . فلو رأينا برنامجاً للحاسبة الالكترونية يؤدي وظيفة معينة أو يحل معادلة رياضية معقدة

لبُهرنا بعظمة الانتاج ولعرفنا أن كاتب البرنامج انسان ذكي . ولـو قارنـا برنـامجاً كهذا بالبرنامج الموجود في الخلية والذي يمكّنها من أداء وظائفها لـظهر البـرنامـج الأول تافهاً بالنسبة له . فاذا قلنا أن كاتب برنامج الحاسبة انسان عـاقل وذكي ، واذا قلنا باستحالة وجود ذلك البرنامج لوحده بطريقـة الصدفـة ، فمن الطبيعي اذن أن نقـول باستحـالة وجـود برنـامج الخليـة لوحـده بطريقـة الصدفـة ، ومن الطبيعي ان نعتقد ان كاتب هذا البرنامج عاقل وذكي أيضاً ، لأننـا لا يمكننا ان نتصور أن المادة الجامدة الميتة بامكـانها أن تفعل ذلـك كله ، فنحن لا نجد فيهـا الذكاء والتخطيط المطلوبين لعملية دفع الكائنات الحية في اتجـاه خاص ولغـاية أو نهاية معينة .

استنتاج :

لقد فرضنا أن الحياة ظهرت على الأرض على شكل خلية كما تقول نظرية التطور ، فتوصلنا الى أن هذه العمليـة ، فيما لـو كانت قـد حدثت فعـلاً فانها لا يمكن أن تكون صدفة . ذلك لانها لم تكن صدفة واحـدة ولكـــن عدداً لا نهائياً (تقريباً) من الصدف التي اجتمعت في نفس الوقت بنظام دقيق مبرمج ومتطور للوصول الى غاية محددة (هي الخلية الحية) . وقد وجدنا أن هناك تخطيطاً وعلماً غيبياً ، كان قد ساهم في تعبيد الطريق لهذا المشروع الضخم .

واذا فرضنا أن الحدث كان صـدفة فـان ذلك يقـودنا الى نكـران بديهيـات العقل وقوانينه ، والتي بدورها تقود الى انهيار نظرية المعرفة بأكملها .

اذن فالحدث (فيما لو كان قد وقع) ليس صدفـة وإنما مخـطط له من قبـل عقـل واع وفي منتهى الحكمة والـذكاء ، وهـو الخـالق . وهـذا ينـاقض النـظرة المادية ، وبنفس الوقت فانه برهان على وجود الخالق .

ان استحـالة وقـوع تلك الصدفـة تقودنـا الى قبول افتـراض أن الله خلق الأشياء كلها ، وقد يكون الخلق ليس عـلى شكل خلية تطورت كـما يزعمـون ،

خاصة وأنهم ليس لديهم برهان مقبول وقطعي على صحة هذا الافتراض .

الفصل السادس

التطور ونقده

التصورات المهيمنة على فكرة التطور :

تنقسم الكائنات الحية بموجب نظرية التطور الى كائنات أدنى وكائنات عليا . الكائنات الأدنى صغيرة الحجم وأقل تعقيداً عادة أما الكائنات العليا فانها اكبر حجماً وأكثر تعقيداً ، الا أن تعقيد الكائن الحي كنظام يحمل أهمية أكبر من حجمه .

وهناك فكرتان كانتا تسيطران على تفكير دارون ولا زال نفوذهما يؤثر على علماء التطور لحد الآن ، وهما :

- ان الكائنات الحية تتكون من أجناس دنيا وأخرى عليا .
- ان الأجناس العليا تطورت من الأجناس الدنيا .

وهتان الفكرتان مصدرهما ملاحظات رآها (دارون) وزعم أن الكائن الحي ضمن أي جنس يعاني من تغير مستمر ، وأن هذا التغير ترثه الأجيال اللاحقة ، وأن كل الكائنات الحية تنتج اجيالاً جديدة اكثر مما يبقى (من هذه

الأجيال) . (كودمان) يقول ان دارون[1](علل بأن النسل الجديد الذي تغيراته تلائم البيئة بصورة أفضل هو الذي يُنتَخَب طبيعياً للبقاء والتناسل . وقد زعم دارون أن نتيجة هذه العملية التي استمرت لمليارات من السنين هي التقدم الحتمي من أشكال الحياة البدائية القديمة الى أشكال الحياة الحديثة المعقدة ، تاركة في أثرها مجموعة هائلة من الأجناس المنقرضة) . وكانت ملاحظات (دارون) مبنية على التشابه بين الأجناس فقط وليس التشابه والاختلاف كلاهما معاً .

وتتملك العلماء الفكرة القائلة أنه بما أننا نرى تغيرات بطيئة حولنا ، فان التغير هو الشيء المهيمن على الوجود ولذا فان الحياة في تغير أيضاً ، ويتبع ذلك أن التطور حاصل . ولكننا لا نرى ذلك كلياً . فالتغير قد يحصل ، الا أنه بالتأكيد لا يعني أن التطور يحصل أيضاً ، لأن التطور ليس أي تغير كان ، ولكنه تغير من نوع خاص . فهو تغير كامل للجنس على مر الزمن .

وكان من بين الأدلة المهمة التي استعملت للبرهان على وقوع التطور اكتشاف متحجرات الكائنات المنقرضة . وقد استنتج العلماء انه إذا كانت بعض الأجناس قد انقرضت فلا بد وأن اجناساً جديدة ظهرت ، وأخرى في ظهور مستمر . ولكن هذا الاستنتاج لا يعتمد على سند قوي . فبعض الأجناس القديمة قد تكون انقرضت ليس لأنها أصبحت غير قادرة على مقاومة البيئة ، ولكن ربما بسبب الأمراض أو التغييرات الجيولوجية . وقد بينت الأدلة الحديثة ان انقراض الأجناس القديمة يمكن اعزاؤه الى أسباب خارجية وليس الانتخاب الطبيعي . فالكائنات الحية الصغيرة ، الأقل تطوراً ، كالفيروسات والجراثيم ، بامكانها أن تقضي كلياً على أجناس أكثر تطوراً منها اذا توفرت لها الظروف للانتشار على شكل وباء . فالسل ، على سبيل المثال ، كان يقتل ملايين الناس

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٣ .

في الماضي حتى وجد الطب الأدوية الملائمة لمعالجته . وتوجد بعض الجراثيم القوية التي اذا دخلت جرثومة واحدة منها الجسم فانها تكفي للتكاثر وقتل الانسان مهما كان ذلك الانسان قوياً ، ومرض الايدز (فقدان اكتساب المناعة) مثال صارخ على ذلك في وقتنا الحاضر . فأين التطور ؟ وليس بعيداً أن تكون الجراثيم قد قضت على أجناس بأكملها في الماضي ، وليس هناك ما يفنّد هذا الاحتمال .

وقد تمخضت عن فكرة التطور مشكلات ومجادلات فلسفية كثيرة ، وبذّر الانسان جهوداً ضخمة يصارع هذه المشاكل لأكثر من قرن من الزمان . وأخيراً بدأت فكرة الانتخاب الطبيعي التي طرحها (دارون) تنهار مع الأدلة الحديثة . (رُوث مُور) تشير الى ان[1]كل واحد من هذه المجموعات (أي مجموعات الأجناس) تختلف عن كل المجموعات الأخرى . وهناك لا استمرارية ، وفجوة بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول ، مستشهداً بأقوال بعض العلماء ،[2](ليس هناك أدلة للتدرج بالنسبة لأي صنف من البشر أو القرود. . . فكل جنس اختفىٰ وهو بنفس الهيأة التي كان عليها عند الأصل .

ـ (ستيفن كولد ونايلز الدرج المتجرات ، ١٩٧٧) .

بين علماء المتحجرات ، هناك علماء يدرسون سجلات المتحجرات ، وهناك انشقاق متزايد عن رأي دارون الذي ما زال سائداً .

ـ (جيمس كورمان « السلحفاة أو الأرنب البري » في الاكتشاف ، تشرين الأول ١٩٨٠) .

ويستطرد كودمان فيقول :

---

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .
(٢) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٤٨ .

ليس هناك أدلة تذكر بأن أجناس الانسان القديم أو الأجناس التي قبله عانت من تغيرات تطورية خلال حياتها . ويظهر أن شبه ـ القرد الاسترالي ، والانسان القديم ، وانسان النياندرتال كانت على نفس هيئتها على طول عمرها) . وبعد هذا نسأل : هل ان هناك تطوراً قد حدث فعلاً ؟ أم أن الكائنات تتكيف للبيئة فقط ؟ و (كودمان) يقول[1]ان الجيولوجي لويس اكازيز ، وهو أحد الأصوات المؤثرة في المنشأة العلمية الأمريكية ، وَصَمَ النظرية بأنها خطأ علمي وغير صحيحة في حقائقها وغير علمية في طريقتها وخادعة في مقصدها . . . . فليس هناك أدلة على ارتقاء الأجناس الحديثة من الأجناس القديمة) . وحتى (برتراند رسل) الذي كان يؤمن بالتطور لم يستطع قبول النظرية بدون انتقاد ، فهو يقول[2] (أن التطورية(*)، وبالرغم من اشارتها الى بعض الحقائق العلمية ، فانها تفشل في أن تكون فلسفة علمية حقيقية بسبب عبوديتها للزمن ، وانشغالاتها الأخلاقية المسبقة ، واهتمامها الغالب بمشاغلنا الأرضية وقَدَرنا) . ويتضح أن المشكلة تكمن في الهاجس الذي يتملك بعض العلماء بأن الحديث تَطَوَّر من القديم . ولكن أين الدليل ؟ ان دليلهم على ذلك هو التشابه الموجود بين الأجناس الحية . ولكن دعنا نفترض أن عقلاً ذكياً خلق هذه الأجناس وصاغها بمستويات بحيث أنها تختلف بعضها عن بعض بالتدرج بينما تبقى القضايا الأخرى متشابهة ، فما هو الخطأ أو اللامنطق في هذا الافتراض ؟ وفي الواقع فانه ليس من الضروري أن تكون الأجناس مختلفة بعضها عن بعض كثيراً على أي حال ، وليس من الضروري أن يجعلها الخالق مختلفة . فلكي توجد الكائنات الحية على حالتها الحاضرة كان من الضروري أن يتغذىٰ بعضها على بعض ، وأخيراً بعضها يتغذىٰ على التربة . ولذا توجد

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٢٦ ، ص ٣٠.

(*) اي فكرة نظرية التطور.

النباتات والحيوانات والانسان . وكل واحد منها مصنع يصنع الغذاء للآخر في دورة كاملة . واذا افترضنا أسلوباً آخر للتغذية فانه سيكون بمثابة افتراض ظاهرة أخرى جديدة للحياة تختلف عما هو موجود الآن ، وهذه مسألة أخرى تماماً .

وتمتلك جميع الكائنات الحية ذكاءاً من نوع معين ، وهذا الذكاء ضروري لادامة حياتها . والانسان يمتلك العقل المبدع . ولما كانت الكائنات الحية تنتقل من مكان الى آخر على سطح الأرض (بضمنها النباتات التي تنتقل بذورها بواسطة الهواء أو الطيور والحيوانات الأخرى) فمن الضروري لها أن تمتلك قابلية التكيف لظروف البيئة التي تختلف من منطقة الى أخرى على الأرض ، كما أنه ليس من الضروري للأجناس الحية المنفردة أن تبقى موجودة ولكن توازن الحياة الكلي هو المهم والذي يجب أن يبقى . لذا فان التوازن بين الكائنات الحية يجب يكون السائد ، وهكذا فهي خلقت بحيث أن بعضها غذاء لبعض في دورة كاملة ، بضمنها الانسان الذي يصبح غذاءاً لمخلوقات أخرى بعد الموت . ولكن هذه النظرية لتفسير الوجود لا يقبلها المفكرون العلمانيون لأنها تطرح أسئلة كثيرة أجوبتها غير ممكنة أحياناً الا بواسطة شيء خارق للطبيعة (كرسالة سماوية) . وبالنسبة للمفكر الأوربي فان المعتقدات الكنسية عاجزة تماماً عن اعطاء أي جواب مقبول . لذا فان الأوربي يصطدم مرة أخرى بنفس المشاكل القديمة المستعصية .

وسوف نرجع الى هذا الموضوع في الفصول القادمة لاعطاء الأجوبة على اسئلة كهذه . أما الآن فاننا سنبقى مع التطور ونظرياته لكي نستكشف المشكلات التي تعاني منها هذه النظريات بصورة أعمق .

ادلة التطور وتمجيد الأفراد :

يصور لنا علماء التطور ان هناك أدلة علمية كافية لاثبات نظرية التطور . فما هي هذه الأدلة ؟ وأين هي ؟

وللجواب على ذلك يقول (كـودمان)[1] (ان المدافعين عن دارون أصـروا على أن الأدلة التي تسند نظريته تنتظر مـدفونـة في السجلات الجيـولوجيـة ، وان « الحلقـات المفقودة » بـين الأجنـاس لا بـد وأنها ستكتشف بـواسـطة البحـوث والتنقيبـات الاضافيـة) . ولكن ما لم يعيـه هؤلاء الناس هـو أنـه حتى في حـالـة اكتشاف العظام والمتحجرات فليس هناك من دليـل على أنها تـطورت بعضها من بعض ، فالعظام وحدها ليست كافية لكي تحكي لنا الحكاية بأكملها . و (رُوث مُور) تذكر الدكتـور (واشبورن) بـانه يقـول[2](والى حد معـين فان الـوظيفة لا تنعكس في العظام . ولا يمكنك حل هذا اللغز بالنـظر الى العظام فقط ، ذلـك لان الجواب ليس هناك . فالجواب يوجد في الكيفية التي بواسطتها أدى الانسـان أو الحيـوان وظيفته) . وهـذا يضع كـل ما يسمىٰ بـأدلة التـطور والاستنتاجـات المعتمدة عليها في شك حقيقي . وتستطر (رُوث) بالقول أنه بعد تجارب عديدة على الجرذان [3]ولدهشته المستمرة ، فان واشبورن وجد أن الاختلاف كان قليلاً لا يذكر مهما صُنع بـالعظام . فبعض العـظام كانت تنمـو مرة أخـرى كما كـانت عليـه . وفي النهايـة ، فان ازالـة أقسام كبيـرة لم يسبب اختـلافـات تـذكـر عـلى الحيوان) . وتستمر بالاشارة الى أن (واشبورن) يقول [4]بدأنا بدراسة العـظام والعضلات . وعند الانتهاء كنا قد وصلنا الى القرار بأن العظام كانت نسبيـاً غير مهمـة ما دامت مـوجودة ، وأن العضـلات كـانت غـايـة في الأهميـة) . واذاً ، وبالرغم من أن الأدلة ليست في العظام فان العلماء استمروا بصياغة استنتاجاتهم اعتماداً عليها . وسبب ذلك أنه لم يكن لديهم الخيار ، فالعظام وحدها تبقى ولا تتـآكل أمـا العضلات فـانها تتآكـل . وعلى كـل حال ، هنـاك مشكلة أخرى في

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٦ .
(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٤ .
(٣) انظر المصدر السابق، ص ٤٠٩ .
(٤) انظر المصدر السابق، ص ٤٠٩ .

العظام يشير اليها (سميث) بالقول ([1]انه ذلك السجل للمتحجرات الذي يبين فقرات زمنية طويلة فيها قليل من التغيرات ، أو لا تغيرات ، تطورية أصلاً وتتخللها فترات عاجلة[*]من التغيرات . . . والمشكلة المستمرة الوجود في علم الأحياء التطوري كانت غياب المتحجرات الوسطية . فالتحولات التدريجية الطويلة الأمد للسلالات المفردة من الأجناس نادرة ، وبصورة عامة فانها تتضمن زيادات بسيطة في الحجم أو تأثيرات بيئية ووراثية تافهة . وبصورة نموذجية يتكون السجل من سلالات أسلاف ـ أجيال متتالية ثابتة من ناحية الهيئات خلال الزمن وغير مربوطة بأجيال وسطية) . وهذه كانت مشكلة حقيقية لم تستطع نظرية (دارون) أن تعطي تفسيراً لها . وواضح أنه في حالة وجود الفجوة الزمنية الطويلة فان الحلقة المفقودة التي تربط بين الجنسين على جانبي الفجوة لم يمكن اكتشافها . وهنا فان هناك احتمالين . الأول هو عدم ترك أي متحجرات لتلك الحلقات المفقودة (وهو غريب جداً) . والثاني أن تلك الحلقات المفقودة (المزعومة) لم تكن موجودة أصلاً . وليس هناك من سبيل في معرفة أيها الصحيح . ولذا فان الحل يجب أن يُفتَرَض ، وبذلك فانه يعتمد على الرأي الشخصي وليس الحقائق . وهذه كانت هي المشكلة مع التطور منذ البداية ـ الآراء الشخصية . ويخبرنا (كودمان) باستشهاده بفقرة من « الحلقات المفقودة » للكاتب (جون ريدر) انه[2](خلال دراسة متحجرات الانسان ، كانت العناصر المترابطة للتفسير ونظرية الادراك مرتبطة بقوة بشخصية العالم المقترِح وقابليته على الاقناع دائماً . لذا فقد هيمن الأفراد الطموحين على هذا العلم الذي تقدم بقوة الجدال بقدر ما تقدم بقوة الدليل) .

ولكن في حالات كثيرة ، حتى تلك الآراء كانت قد اتخذت بحماس وعلى

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢٦ و١٦٣ .

(*) المقصود قصيرة .

(٢) انظر المصدر ١٠ ، ص ٨٥.

عجل ، وبدون دليل كافي أو دراسة كافية . و (ل . س . ب . ليكي) يقول ([٢]وآراؤنا تُتخذ بواسطة تقديرات سريعة ، وغالباً لا واعية ، لمدى واسع من الخصائص التي تجتمع مع بعضها لتكوين صورة لجنس من نوع معين . وهنا فان التفسير الشخصي لقيمة الدليل الموجود أمام الاختصاصي يلعب دوراً كبيراً لا محال ، ولذا فاننا نجد مرات ومرات أن المتحجرات البشرية وبقايا الكائنات التي أدنى من البشر تصنف كأجناس لنوع واحد بواسطة بعض العلماء ، أو تصنف على أنها تمتلك مراتب جينية معينة أو متميزة . ان الحقيقة المجردة بأن شيئين «سواءاً كانا جمجمتين أو سنّين أو قطعتين من الخشب » يمتلكان نفس الطول والعرض والارتفاع لا يعني أنهما يمتلكان نفس الشكل أو انهما متشابهان من ناحية الهيئة . ان المسألة بعيدة كل البعد عن ذلك . . . وان دراسة تطور الانسان لا زالت في مرحلة الطفولة . لأنه ، وبصورة رئيسية ، فان أدلة المتحجرات المتوفرة لحد الآن والتي يمكن الاعتماد عليها لوضع استناجات مقبولة كانت دائماً نادرة نوعاً ما) . وبعد كل هذا فانه لمن العجيب أن نرى بعض الناس ذوي العقول العلمية يصرون على اعتبار التطور كحقيقة وواقع . وعلى أي حال فان علماء التطور أنفسهم في خلاف شديد حول الموضوع . و (رُوث مُور) تقول[٣](لقد كان من الصعب جداً أن نكون متأكدين . ولما لم تكن هناك ثقة في معظم الحالات ، فقد ظهرت اختلافات جدية في الآراء حول عمر كل متحجرات الانسان أو متحجرات قريبي ـ الانسان المهمة تقريباً) . و (دورثي هنشو بيتنت) تؤكد على[٤](وجود اختلافات كثيرة بين علماء التطور أنفسهم حول الأهمية النسبية للعوامل المختلفة التي تؤثر في مسار التطور ، سواءاً في الماضي او الحاضر) . و(اندري كايوكس) يحلل نظريات التطور المختلفة ، فيقول

---

(١) انظر المصدر ١٥، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ ، ١٧١ .

(٢) انظر المصدر، ١، ص ٧.

(٣) انظر المصدر ٩ ، ص ١٢٥ .

[1]عندما نجابَه بهذه الآراء المختلفة اختلافاً كبيراً ، نحن نتساءل كيف أنها ظهرت . وهي تُنسب جزئياً الى الفترات الزمنية وحتى الى شخصية الاختصاصي ، كما نعتقد) . من هذا يتضح أننا قد خُدِعنا بطموحات الناس وأذواقهم واعتقاداتهم الشخصية التي تُعرض علينا على أساس أنها حقائق علمية .

والأدلة العلمية نادرة بصورة مثيرة للدهشة ، ولدهشتنا يقول (روبرت اندري) [2]مثالان فقط لمتحجرات القرود القديمة موجودة في أي مكان على سطح الأرض) ، وعلى هاتين الجمجمتين بُنِيَت نظرية كاملة لتطور الانسان . و (رُوث مُور) تقول [3]لا توجد النظرية في أي مكان كاملة لحد الآن) . ويتضح ان ما حدث هو أن فكرة ما قد طُرِحت وَجَذَبت بعض العقول ، وسار وراءها جيش من العلماء محاولين جر اعتقادات الناس وراءهم . ولا يمتلك معظم الناس أي فكرة عن الاختلافات الواسعة والكثيرة بين العلماء أنفسهم ، وكم من الأخطاء وقعوا ولا زالوا يقعون فيها في محاولة اثبات اعتقاداتهم حول التطور وحقيقته . وحتى دارون نفسه ، الذي كان المؤسس لهذه الفكرة ، قد وُجِدَ على خطأ .

ضد التطور :

لقد خلقت الأدلة الجديدة مشكلات كثيرة لنظرية التطور وعرّضتها لانتكاسات حقيقية ، وأشارت باستمرار ضد التطور . (كودمان) يقول[4](اليوم يتخلىٰ كثير من العلماء عن دارون ويستبدلونه بنظرية تقترح أن الأجناس الجديدة

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٧ .
(٢) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢٤٧ .
(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٩.
(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ .

ربما ظهرت نتيجة لطفرة نوعية كلية نحو الأمام ، والتي تفسر ظهور الانسان الفجائي بصورة أفضل) . و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى ([1]اننا ربما يجب علينا أن نراجع أفكارنا بين الحين والآخر أيضاً فيما يخص مهد الانسان وأين يقع . . وأثناء كتابتي لهذا الفصل جاءت أخبار عن اكتشافات جديدة مهمة لبعض متحجرات القرود في أوربا . . ولذا بعد ترجمة معاني هذه الأدلة الجديدة فلربما يجب علينا أن نغير أفكارنا مرة أخرى حتى ، وكما نأمل ، تصبح الصورة مكتملة كلياً يوما ما) . ولكن هل أنهم يبحثون عن شيء قد لا يكون موجوداً على الاطلاق ؟ وهذا هو أحد الاحتمالات التي تشير اليها الأدلة الجديدة . (رُوث مُور) تقول [2]لقد رُسِمَت الصورة لحلقة مفقودة وانسان بدائي . وكلاهما صَوَّرا مخلوقات ضخمة خرقاء تشبه القرود وكانت تتحرك بخطوات ثقيلة غير منتظمة بسيقان منحنية ورؤوس مندفعة الى الامام . ولكن العظام الحقيقية ، عندما اكتُشِفت ، حطمت هذه الصورة . فالمتحجرات بينت ان الانسان ـ القرد كان يمشي كالانسان الحديث ويمتلك جسماً منتصباً كجسم الانسان الحديث قبل أن يصل دماغه الى حجم دماغ الانسان لفترة طويلة) . ولذا فانها تؤكد[3](ان الصورة ، التي كانت مقبولة لفترة طويلة يجب تغييرها) . وهذه هي الكيفية التي يغير بها علماء التطور آرائهم باستمرار . وفي الواقع لو أننا القينا نظرة سريعة على نظريات التطور فاننا سنلاحظ تغيرات رئيسية حدثت فيها ، ولذا فقد طُرحت نظريات جديدة لتصحيح النظريات السابقة الخاطئة ، والتي كان الناس يعتبرونها صحيحة لفترة طويلة من الزمن . والنظريات الجديدة تتطلب افتراضات وترقيعات كثيرة قبل أن تؤخذ مأخذ الجد . و (ج . ليديارد ستبنز) يعترف[4](بأننا ندرس، كحقائق تاريخية ، كثيراً من الحوادث الاحتمالية المرتبطة

---

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٦ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٦ .

(٤) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

بارتقائها وسقوطها . والأدلة التي يمتلكها البيولوجيون الآن حول ظهور وانقراض المجموعات الحيوانية الرئيسية خلال العهود الجيولوجية الماضية تشبه ذلك في طبيعتها ، وتحمل في طياتها نفس الدرجة العالية من الاحتمال) . ولكن ما يُغْفَل عنه هنا هو أن التاريخ ليس بتلك الأهمية القصوى لحياة الانسان حتى لو أخذت احتمالات خاطئة بخصوصه بينما قضية الخليقة باستطاعتها أن تغير طريقة حياتنا وأخلاقنا ومُثُلنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض جذرياً ، فهي باستطاعتها أن تقلبنا كلياً الى هكذا أو هكذا ، ولذا فانها ، وبكل تأكيد ، يجب أن تؤخذ بجدية حقيقية بواسطة الناس الذين يعتبرون أنفسهم علماء ومفكرين يحملون مسؤوليات تجاه المجتمع الانساني . وعلى أي حال ، فان الموضوع بأكمله ، وكما يقول (ستبنز) مجرد احتمال وليس أكيداً . وبالرغم من ذلك فانه يُعرَض علينا وكأنه حقيقة علمية . الا أنه أبعد ما يكون عن العلم الذي نرغب أن نضع ثقتنا فيه .

نظريات التطور وتبريراتها ونقدها :

توجد ثلاث نظريات لتفسير التطور بصورة عامة . نظرية (لامارك) التي تعطي الدور الأساسي في التطور للبيئة . وكان لامارك عالماً فرنسياً أعلن عن نظريته قبل (دارون) بكثير (حوالي عام ١٨٠٢) . ويعتقد (لامارك) ان الأجناس تتفاعل لتغيير نفسها لغرض ملائمة البيئة أي أنها تعمل وتجهد نفسها للحصول على التغير اللازم . ومعنى ذلك أن سبب التغير الذي يحدث في خصائص الكائن الحي هو حاجة ذلك الكائن الحي لهذا التغير الذي يساعده على البقاء والديمومة ، مثلاً ، أن العضلات القوية للركض تصبح جزءاً من الكائن الحي . والتغير الجديد هذا ينتقل الى النسل الجديد لأنه (كما تزعم النظرية) يصبح جزءاً متأصلاً من الكائن . وهذه النظرية تعاني من مشكلات كثيرة وحلقات مفقودة كثيرة ، ولذا تم التخلي عنها تماماً من قبل العلماء .

ثم جاء (دارون) بعد ذلك في عام ١٨٥٩ (وكان عالماً انكليزياً) ،

فطرح نظريته التي تؤكد على الانتخاب الطبيعي كسبيل للتطور التدريجي . وهذا معناه أن الطبيعة تنتقي الكائنات الحية الأقوى والأصلح ، أي أن الظروف هي التي تقرر ، ويتم التغير في الكائن الحي المفرد . وهذه النظرية جابهت مشكلتين . الأولى انه وُجِدَ بأن التغيرات في الكائنات الحية تحدث على شكل طفرات كبيرة وليست تدريجية . الثانية أن هذه التغيرات لم تحدث في الكائنات المفردة ، ولكن للجنس كنوع بأكمله . و (سميث) يشير الى انه [(1)] (بينما التنافس هو أساس الانتخاب الطبيعي بين الكائنات الحية ، فان التنافس وحده ما كان ليعمل في الأزمان ما قبل الحياة لانتخاب المجموعات الجزيئية الأصلح ، ولذا فان أنواعاً أخرى معينة من المساعدة كانت ضرورية) . من الواضح أن المسألة يجب أن تكون هكذا لو أن الحياة كانت قد انبثقت فعلاً كما يقولون ، لأن الخلية الأولى لم يكن معها ما ينافسها . وأنها لمسألة في منتهى البساطة ولكن (دارون) ومؤيديه من العلماء لم يدركوا ذلك لفترة قرن من الزمان . لذا فان نظرية ثالثة ، تسمى نظرية الطفرات الوراثية ، ظهرت عام ١٩٥٠ . وهذه النظرية تؤكد على ظهور الخصائص الفجائية (والعشوائية) الجديدة عن طريق الصدفة كسبيل للتطور بواسطة طفرات تسببها تغيرات عشوائية في الجينات . وكانت هذه النظرية طريقاً للخروج من المأزق بعد أن وصل التطوريون الى نهاية مسدودة مع الانتخاب الطبيعي الذي اقترحه (دارون) . ولكن هذه النظرية عانت من مشكلة أيضاً ، وهي أن هذه الطفرات وحدها ليست كافية لجعل الكائن الحي يتلائم مع الظروف لأن التغيرات (ولكونها عشوائية) قد لا تنتج الأصلح دائماً . لذا فان الرأي السائد الآن هو أن هناك عاملين يؤثران معاً في تطور الكائنات الحية ، وهما الطفرات التي تولد خصائص جديدة والانتخاب الطبيعي الذي يؤدي مهمة الصقل النهائي .

---

(١) انظر المصدر ٦، ص ١١ .

وعن الانتخاب الطبيعي يقول (روبرت اندري) ([1]ان دارون حاول أن يعطي تفسيراً للفروقات بين الأجناس على هذا الأساس وحده ، وفشله كاد يسبب انهيار النظرية بأكملها تقريباً . ولكن هناك شكلاً آخر من الصدفة الطبيعية لم تكن معروفة في زمن دارون . وهذه هي الطفرة الوراثية . . . ونظرية الطفرات الوراثية قد انقذت نظرية التطور) . وسؤالنا هو : هل أنها انقذتها فعلاً ؟ أم أنها اكثر التبريرات لا منطقية على الاطلاق لأي شيء في الوجود وليس للتطور فقط ؟ وهل أن هذه الطفرات ، أو الصدفة ، تعطي نتيجة ؟ ويجيب (اندري) بالقول ([2]واحدة من مائة من هذه الطفرات بالامكان اعتبارها جيدة ، وبصورة عامة نستطيع القول أن الطفرات التسعة والتسعين الأخرى تقتل الكائن الحي لحظياً ، أو تدمر نظامه الجيني الى درجة كبيرة بحيث أن الانتخاب الطبيعي يكمل افناءه) . انه لأمر عجيب حقاً !! انها ليست الصدفة بأكملها ولكن واحد بالمائة منها فقط . يا له من انقاذ اخرق لنظرية التطور ! في الواقع انه بمثابة الاعتراف بفشل النظرية بأكملها .

و (دي كايوكس) يشير الى أن ([3]التقسيمات الفجائية في دورة الطفرات ممكنة جداً ولكنها لم يقم البرهان عليها) . والسؤال هو : اذا كانت لم يتم اثباتها بعد ، كيف تكون ممكنة جداً اذن ؟ ويبدوان أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها استقراء ليس علمياً وأبعد ما يكون عن الحقائق .

ولكن كيف تحدث هذه الطفرات ؟

(دورثي هنشوبيتنت) تقول ([4]هناك عامل آخر بجانب الانتخاب

---

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ و٢١٩ .
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢١٩ .
(٣) انظر المصدر ٥، ص ١٣٣ .
(٤) انظر المصدر ٩، ٣٥.

الطبيعي قد يكون مهماً جداً في تطور الأجناس . وهذا العامل يسمى الانجراف الجيني . وهو عملية عشوائية . فبعض الخصائص المعينة قد تصبح نوعاً ما متكررة في الجنس بصورة عشوائية) . لذا فانها الصدفة ، بلا قانون أو تعليمات ، وليس هناك شيء نظامي ، ولكن مع ذلك جميع الكائنات الحية تتكون من أنظمة معقدة فائقة التطور والتنظيم . ويؤكد (اندري) كذلك بالقول ([1]ولكن الصدفة عامل لا يجب تجاهله في واقع العمليات الحيوية) . ونحن نقول ، ربما لا يجب تجاهل الصدفة ، ولكن جعلها القانون الذي يتحكم في الأمور ليس علمياً أيضاً . وعلى أي حال ، صدق أو لا تصدق ، فان (مونارد) يقول ([2]ان مجموعة تتكون من بضعة مليارات من الخلايا يمكن أن تتكون في مليمترات قليلة من الماء . وفي مجموعة بهذا الحجم قد يكون الفرد متأكداً أن أي طفرات ممكنة ستكون موجودة . وبذلك ، فانه في مجموعة كبيرة كهذه فان الطفرات ليست ظاهرة شاذة أبداً : انها القانون) . ولكن أين البرهان الذي يثبت أنها القانون ؟ وعلى سبيل المثال ، اذا أخذنا معدل الجريمة في امريكا بنظر الاعتبار ، وهو عالٍ جداً ، فهل باستطاعتنا أن نقول ان الجريمة في أمريكا هي القانون ؟ ان القانون يحتاج الى برهان قطعي على صحته ، وليس مسألة رأي فقط ، خاصة اذا كنا نتكلم عن الحقائق العلمية . وبالاضافة الى ذلك ، كيف ينطبق هذا القانون على الخلايا الاولى ؟ خاصة وأنه كان قد افتُرِضَ ان قليلاً منها ، وربما واحدة فقط ، عاشت وتطورت ، كما رأينا سابقاً . ويبدو أنه في الوقت الذي يشيّد العلماء نظرياتهم العلمية في جميع فروع العلم على أساس افتراض وجود علاقة سببية بين الحوادث المتعلق بعضها ببعض ، وعلى أساس امتناع الصدفة ، نرى التطوريون يقترحون الصدفة على أنها القانون الذي بموجبه تسير الحياة وتتطور (بلا برهان طبعاً) . و (مونارد) يقول ([3]في الواقع أن

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

الانتخاب الطبيعي يعمل على منتجات الصدفة ، ولا يمكنه أن يعمل في أي مكان آخر) . ولكنه يناقض نفسه عندما يقول ([1] ولكنه يعمل في منطقة ظروف ذات متطلبات كثيرة ، ومن هذه المنطقة فان الصدفة ممنوعة . وان التطور ليس مديناً للصدفة ولكنه مدين لتلك الظروف في مساره التقدمي بصورة عامة) . وعند قراءة هذه الآراء لا نجد أنفسنا إلا في الوضع الذي نطلب فيه من (مونارد) أن يقرر فيها اذا كان التطور سببه الصدفة ام لا .

ولكن ما هي العوامل التي تؤثر على الطفرات ؟

(دورثي بيتنت) تقول ([2] وطريقة أخرى لزيادة قابلية تغير الجينات المتوفرة للانتخاب الاصطناعي بواسطة الطفرات الصناعية . فالتعرض للأشعة السينية ، أو الأشعة فوق ـ البنفسجية ، أو بعض المواد الكيمياوية بامكانه زيادة معدل الطفرات) . وقد جرىٰ بعض العلماء وراء هذه الفكرة ، و (ستبنز) يشير الى ان ([3] هذا قاد بعض علماء الأحياء للاعتقاد بأن بعض هذه الطفرات الفجائية تتولد بواسطة الأشعة الطبيعية ، مثل الأشعة الكونية . ولكن عندما أجريت الحسابات ، اعتماداً على شِدَّات[*] معروفة للأشعة الطبيعية بالمقارنة مع الشِدَّات المطلوبة لتوليد الطفرات ، بينت النتائج أن شدة الأشعة الطبيعية واطئة الى الدرجة التي لا يمكنها أن تسبب سوى جزءاً ضئيلاً جداً من الطفرات الفجائية) . ولذا فان هذا الرأي الذي تمسك به العلماء لسنين طويلة انهار هو الآخر . ولذا فان (ستبنز) يستنتج ان ([4] اكثر التعميمات أماناً التي يمكن الاعتقاد بها في الوقت الحاضر هي القول بأن الطفرات الفجائية عبارة عن نتائج

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٠٩ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ١٩ .

(*) جمع شدة (وهي الكثافة) .

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ .

عرضية للصدفة في الأيض(*)النواتي أو حتى الخلوي) . ومرة أخرى فان الصدفة هي المخرج الوحيد من المأزق في غياب الدليل العلمي ، وهي التبرير العلمي الوحيد لأعظم ظاهرة على وجه الأرض . ان العلم لم ير تبريراً أخرق كهذا لأيٍ من نظرياته في أي حقل من حقوله .

و (ريشارد ليكي) يشارك الآخرين من أقرانه في هذه الفكرة الرائعة ، فيقول ([1]في عملية الخلط فان الخطأ باستطاعته أن يحدث وتتغير واحدة أو اثنان من التعليمات . وهذه الأخطاء تعرف بالطفرات ، وسواء كانت هذه التعليمات التي تنتجها أحسن أو اسوأ فان الموضوع يعتمد على الصدفة) . وهكذا جئنا الى الوجود ، بواسطة الخطأ ، والصدفة . والأنكىٰ من ذلك أننا لا نعلم سواءاً كان الانتاج الحاصل من هذه الصدفة نحو الأفضل أو الاسوء . ولا نستطيع أن نفهم كيف تستطيع الأخطاء أن تولد أنظمة معقدة ومتطورة كتلك التي تمتلكها الكائنات الحية فما تعلمناه دائماً هو أن الخطأ شيء سيء ويجب أن نتحاشاه . وقد نتساءل لماذا لا يصبح الأفراد ملوكاً أو علماء بطريقة الخطأ . فلا ملك أصبح ملكاً بطريقة الخطأ ، ولا عالم أصبح عالماً بطريقة الخطأ . ومن حقنا أن نتصور اننا اذا كنا نتاجاً للخطأ فان الخطأ يجب أن يكون مقبولاً باعتباره نظاماً انتاجياً في حياتنا الاعتيادية ، أو على الأقل كان يجب أن لا يُنْظَر اليه بهذه السلبية التي نعرفها . واذا كنا نُقاد الى الاعتقاد بأننا نتاج للأخطاء كان علينا أن نكبر وننضج ونحن طبيعياً لا نعتبر الخطأ شيئاً قبيحاً . ثم لماذا لا تنتج الأخطاء اشياءاً مفيدة في حياتنا اليومية ؟ ويضيف (ريشارد ليكي) بالقول ([2]ولكن أحياناً يكون التغير محظوظاً والتعليمات الجديدة تقوذ الى التحسين) . وهكذا ، وكالآخرين ، فان هذه هي الخلاصة التي يترجم بها كيفية وصوله الى معرفة قصة الخليقة :

(*) الأبيض = الميتابولزم .

(١) انظر المصدر ٨ ، ص ٧.

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٨.

الصدفة ، والخطأ ، والحظ . ويسمونها الحقائق العلمية ويتوقعوننا أن نقبلها . والتطوريون يقبلون وقوع هذا العدد اللامتناهي من الصدف والأخطاء على أنها فعلاً حدثت ، ولكنهم لا يقبلون وقوع الصدفة الواحدة التي تقول أن الله هو الذي خلق الكون ، أو هو الذي مهد لهذه الكائنات أن توجد . وبالنسبة لهم فان هذه الصدفة المنطقية ، التي لا تتناقض مع البديهيات والقوانين العقلية التي شُيدت على أساسها جميع أنواع العلوم والمعرفة ، لا يمكن أن تكون قد وقعت . والسؤال هو لماذا ؟ وقد نجيب على هذا السؤال في الفصول القادمة . أما الآن فاننا سنبقى مع قصة الخليقة لكي نتحقق من الافتراضات التي على أساسها يُفسَّر نشوء الحياة . ونذكر هنا أن هذه الافتراضات هي تأملات بحتة ولم يقم البرهان العلمي على صحتها أبداً .

وكما انهارت نظريات التطور الأولى فان نظرية الطفرات الوراثية تنهار هي الأخرى أيضاً بواسطة الأدلة العلمية ، ويجب أن يظهر تفسير آخر لانقاذ فكرة التطور . ويشير (ريشارد ليكي) متكلماً عن الطفرات بأنها ، وحتى عندما تحدث ، فان (1)الأغلبية الساحقة من الطفرات مؤذية ولكن جزءاً صغيراً منها مفيد . . . والطفرات نادراً ما تكون هي المصدر المباشر ، اذا كانت على الاطلاق ، للتغيرات التي تعتمد عليها التغيرات التطورية . . . . وبدلاً من ذلك فانها تمون امدادات التغيرات لبُرْكة الجينات التي تقل دائماً بواسطة الحذف الانتقائي للمتغيرات غير الملائمة . . . ونتيجة لذلك فاننا لا يجب أن نتوقع وجود أي علاقة بين معدل الطفرات ومعدل التطور . وليس هناك أي دليل على وجود علاقة كهذه . . . . والسبب الأساسي لتعقيد التكيف الذي تسيطر عليه الجينات هو التعقيد والطبيعة غير المباشرة للعلاقة بين الجين والخِصّيصة . . . . ولا يمكننا أن نتوقع أي طفرة مفردة أن تحسن المقدرة العامة للكائن الحي ولكن

---

(1) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٢٥ .

فقط تكيفه لظروف بيئية معينة) . ولذا فانه من الواضح أن الأدلة العلمية الحديثة تبين أن الطفرات لا تسبب أي تطور في الكائن الحي ، ولكن هذه الطفرات التي تحدث بطريقة الصدفة (كما يزعمون) تساهم في امداد بُركة من الطفرات ، وبطريقة الصدفة فان هذه البُركة تدفع الى الامام باتجاه التطور (حسب تصوراتهم) . ولكننا سنرى عن قريب أن المسألة ليست هكذا أيضاً .

و(بليبترو) يؤكد على فشل نظرية الطفرات بالقول ([1]ان العملية العشوائية الاعتيادية لآلية الجينات تميل الى انتاج اما تغيرات لا تطورية والتي يمكن اعتبارها اخطاء تعيين(*)والتي هي غير تكيّفية أو أنها تكون تكيّفية بطريقة الصدفة) . و (دي كايوكس) يشير هو الآخر الى فشل نظرية الطفرات بالقول ([2]ان القرعة ليست كافية . ونظرية الطفرات فاشلة من ناحيتين . فتطور الأجناس لا يمكن أن يكون نتيجة للصدفة وحدها حتى لو أن الانتخاب صحح الأخطاء . ولا يمكنها أن تنتج كذلك من جهود الكائنات الحية الداخلية وحدها ، لأنه في حالة وجود الكائنات الكثيرة في أي وقت معين فانها تبذل جهداً أكثر ، لذا سيكون هناك تطور أسرع . ولكن الحالة ليست كذلك في الواقع . ولذا لا بد وأن شيئاً آخر خارج الكائن الحي لعب دوراً أيضاً) . ولذا فانه يؤكد على ([3]اننا نعرف أن الأغلبية الساحقة لهذه الطفرات رديئة . وحتى أننا نستطيع أن نرى ذلك متمثلاً في لحوم أجسامنا ، أو على الأقل في أجسام أناس آخرين . ومعظم التشوهات الخلقية هي من هذا الأصل . لذا فان تفسير التطور وتقدم الحياة خلال الأزمان بواسطة عملية تهيمن عليها التشوهات والعيوب يبدو متناقضاً . واللجوء الى الانتخاب يضائل التناقض ، ولكن هل

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٥ .

(*) تعيين = فعل أخذ العينات .

(٢) انظر المصدر ٥، ٢٠١ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٢٠٠ .

يقضي عليه ؟ ان تفسير المقطوعة الموسيقية لا يكمن في سلسلة من النوطات الخاطئة) . و (بليترو) يذكر أيضاً انه [1] تحت تأثير أخطاء التعيين[*] العشوائية ، أو المسمى « الانحراف الجيني » في هذا المجال ، فان تردد[*] صبغية جينية معطاة قد يزداد حتى الى ١٠٠٪، أو يقل حتى الى الصفر . . وذلك لأنه ، وكما هو معروف الآن ، فان هذه هي العملية الوحيدة التي بواسطتها يستطيع التطور (غير الموجّه باتجاه التكيف) أن يحدث . . . . ولكن كم هي اعتيادية الحدوث وكم هي مهمة في اطار الصورة العامة للتطور ، هذان سؤالان لا زالا يقوم عليهما جدال عنيف) . اذن ، وكما قد نتساءل ، أين نقف الآن بعدما اتضح أن فرصة التطور والدمار متساوية ؟ وهذا يضع توازناً باتجاه تأكيد الثبات والسكون ، وليس التطور ، وهو ما نقوله بأن الله تعالى خلق الأشياء كما هي . وبعد كل هذا فانه ليس عجباً ان نجد العلماء في خلاف ولا يستطيعون أن يصوغوا قانوناً من التطور . ولكنهم مع ذلك يعرضون الموضوع علينا وكأنه واقع وحقيقة وفي ذلك خداع وغش لا يليق بالعلم ولا بالعلماء .

ويبدو أن التطور ليس سوى معتقد يؤمن به مَنْ يؤمن ، وموضّة العصر الحديث ، وهاجس يتملك بعض الناس الذين يتمسكون به ويحاولون تبريره بأي اسلوب كان . و (بليترو) يخبرنا بأن [2] الاتفاق الجماعي على قبول الفكرة يبدو الآن عاماً ، ولكن أهميته في المسار التطوري الطويل والتغيرات التطورية الجذرية قد حُجبت كلياً تقريباً بواسطة التأثير غير العشوائي للانتخاب) . أي أنهم يرون الطبيعة الخلابة ، ثم يفرضون التطور ، ثم يبرزونه بالعشوائية ، ثم يقولون بما أن النتاج النهائي (وهو الطبيعة) موجودة فلا بد وان العشوائية تنتج اللاعشوائية (أي النظام) . ولكن أين الحقائق العلمية في هذا التفسير ؟ وأين

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٥ .

(*) تكرار حدوث .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٥ .

التجارب العلمية التي تؤكد هذه المفاهيم والاستنتاجات ؟ (بليبترو) يخبرنا باحتمالين . الأول انه[1](اذا كان التناسل تباينيّاً ، واذا كانت هناك علاقة متبادلة بين العوامل الجينية المتميزة في الأسلاف وفي نجاحهم الأعظم النسبي في التناسل ، فسوف تكون هناك زيادة في تكرار هذه العوامل الجينية ضمن الجنس من جيل الى آخر . والتطور سوف يحدث ، وسوف يكون موجهاً وليس عشوائياً) . والاحتمال الثاني انه (اذا كان التناسل عشوائياً ، وبالاجتماع مع العملية العشوائية ذاتياً في الانقسام الاختزالي ، فلا توجد نزعة احصائية للتغير في تكرار العوامل الجينية ضمن الجنس . وبكلمة أخرى ليست هناك نزعة لحدوث التغيرات التطورية الموجهة . . . . وحتى لو أخذت الطفرات بنظر الاعتبار فان هناك نقطة توازن فيها أي طفرة معينة تُوازَن بواسطة طفرة ارجاعية وخسارة عشوائية ، وليس هناك نزعة باتجاه التغير التطوري في الجنس . لذا فان عملية الجينات العشوائية كلها لا تميل ، احصائياً ، الى انتاج التطور) . ولكن بما أنهم يؤمنون بأن التطور مسألة واقعية لا جدال فيها فانهم يفترضون أن الاحتمال الأول هو الذي يحصل . وهو ليس أكثر من افتراض مبني على معتقد مسبق وليس اكتشافاً علمياً يبين بأنه هو الذي يحدث من بين الاحتمالين . ولكننا نريد أن نجلب الانتباه الى نقطة مهمة في هذا الصدد ، وهي أنه لما كان التطوريون يؤكدون (وكما رأينا) أن عملية الطفرات الوراثية هي عملية عشوائية فاننا نميل الى افتراض حدوث الاحتمال الثاني وليس الأول . أم هل أن الصدفة والخطأ والحظ تتوقف هنا ؟

وعلى كل حال ، بسبب الظهور المفاجيء للأجناس الكاملة وبسبب ان الطفرات لا تنتج تغيرات رئيسية في الكائن الحي ، فان أحدث النظريات ترى أن التطور يحدث للجنس ككل . و (بليبترو) يشير الى ان [2]النهاية المهمة في

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٤ .

(٢) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٣ .

التطور هي قابلية تكيف الجنس ككل ، ومقدرته على الاستمرار خلال الأجيال المستقبلية ضمن بيئة معينة) . ولكن ماذا يعني هذا ؟ هل انه يعني أن كل الكائنات الحية ، وبطريقة الصدفة ، تحدث فيها نفس الطفرات التي تسبب نفس التغييرات في خصائصها ؟ يا للعجب !! في الواقع أن هذا معناه حدوث نفس الطفرات ، وبطريقة عشوائية لملايين الكائنات الحية التي تنتمي للجنس الواحد . ولكي يستمر التطور فان هذه العملية العشوائية يجب أن تحدث لكل الأجناس في كل الأجيال وبصورة دائمية . ويبدو لنا ، لو ان هذا هو فعلاً ما يحدث ، فانه عملية مصممة بكل تأكيد وليس مسألة عشوائية ، ذلك لأن تكرار حدوثها بهذه الكثرة ينافي تعريف معنى العشوائية أصلاً . فالشيء الحادث يقال له عشوائياً اذا حدث بدون تكرار ، أما إذا تكرر بخصوص نفس الشيء فلا يسمى عشوائياً وإنما لا بد وأن هنا علاقة سببية له . وبذلك فان هذه العملية ليست صدفة ابداً ، وأنه لمن الجنون أن يوصف شيء كهذا بالعشوائية .

وخلاصة الموضوع ، كما يشير اليها (بيجون كورتن) هي ان ([1]التطور ، كما تم اثباته ، يأتي من تبادل الفعل بين التغيرات في الوراثة الناتجة من الطفرات ومن الانتخاب الطبيعي . وهذا كل ما في الأمر ويجب علينا أن نقبل به) . ولكن (اندري دي كايوكس) يجلب الانتباه الى أن هذا الاستنتاج الأخير ليس بتلك القوة . فهو يشير الى ان ([2]ظهور السلالات الجديدة يشكل مشكلة عويصة . فدارون لا يشير اليها ، ولامارك يقدم لنا احتمالات كثيرة ولكن قليلاً جداً من الحقائق يمكن رؤيتها تعمل في الطبيعة اليوم ، ونظرية الطفرات الوراثية تجهزنا بأكوام من التغيرات المفصّلة ، ولكن قليلاً منها مهمة أو مفيدة . وهي تشبه بناء جبل من الأحجار الترابية الصغيرة) .

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٤٢ .
(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٨ .

التطور معتَقدٌ ودين

بالرغم من ندرة الأدلة وفشل جميع النظريات التي اقترحها التطوريون في اعطاء تبرير مقبول لفكرة التطور فان الناس يتمسكون بها ويحاولون تبريرها بأي طريقة كانت . وفي الواقع فقد أصبح التطور مجرد اعتقاد أشبه بالدين أكثر مما هو علم ، وأولئك الذين تخلوا عن المعتقدات الكنسية قد استبدلوها بالتطور . فها هو (بيتر رسل) يخبرنا في معرض حديثه عن تحرير ذرات الأوكسجين الى الجو بواسطة الخلايا الحية الاولى التي تفترضها نظرية التطور على أنها كانت تتغذى على المواد الكيمياوية وتطلق الأوكسجين (على حد زعمهم) ، فيقول :[1] استمر الأوكسجين بالتراكم الى ما قبل ١,٥ مليار سنة عندما وصل الى نسبة ٢١ ٪، ذلك المستوى الذي صادف وان كان هو التوازن الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران . ولذا فانه توقف عن الزيادة بصورة فجائية وبقي متزناً اتزاناً استثنائياً منذ ذلك الوقت) . يا للعجب كيف يلعب المعتَقد بتفكير الانسان وبأي طريقة يجعله يفكر !! ولكننا لو قلنا للسيد (رسل) باننا جئنا من مكان نائي من غابات الامازون وبعد أن رأينا التكنولوجية الحاضرة لأول مرة ولاحظنا السيارات تسير من حولنا والطائرات تطير فوقنا الخ ، وقررنا ان « المكائن استمرت بالتراكم حتى وصلت الى المستوى الحاضر الذي صادف وان كان هو المقدار المطلوب الذي يحتاجه الانسان» ماذا سيظن بنا؟ ونحن نسأله لماذا توقف الأوكسجين هكذا فجأة؟ وكيف صادف وان كان هو المستوى الذي يعطي الاتزان الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران بالضبط ؟ بطبيعة الحال ، وكما قد نظن ، فان هذه صدفة عجيبة أخرى . فكل هذه الظواهر العظيمة المحكمة التنظيم ليست سوى صِدَفاً عجيبة . ولا نعلم ماذا حدث للعلم وللحقائق والاكتشافات العلمية ، وأين هي تلك العلوم التي جعلت

---

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٥ .

هؤلاء العلماء يعتقدون بأنها صدف ليس الا . أليس القول بأن هذه الظواهر الفائقة التنظيم هي نتاج لتخطيط مسبق أكثر علمية من القول بأنها محض صدف ؟ وكما أننا نقول أن هذه المكائن والآلات التكنولوجية الحديثة قد تم تصميمها وصنعها بواسطة العقل ، فانه من الانصاف ، والاحترام لعقولنا ، أن نفترض نفس الشيء لظاهرة الأوكسجين وظاهرة الحياة العظيمة . ولكن خواطر « الصدفة » و « الخطأ » و « الخط » و « ربما » و « لا بد وان » تسيطر على عقول العلماء بسبب الايمان المسبق بالمعتقد القائل أن التطور هو سبب الخليقة . وأحد التبريرات يعطيه (ستبنز) هو[1] (ان هياكل محسَّنة كهذه تطورت تدريجياً ، وكما نظن ، خلال تراكم الطفرات والمؤتلفات الجينية) . وواضح انه عندما يتكلم عن تطور هذه الهياكل فانه يتكلم بثقة ، ولكن عندما يأتي الى الأسباب نرى كلمة الظن تظهر بسبب عدم وجود الاثبات الأكيد . ولكن اذا لم يكن البرهان موجوداً أليس لدينا الحق في أن نسأل (ستبنز) كيف انه أصبح متأكداً من أن هذه الهياكل قد « تطورت »؟

و (سميث) يبرر الخليقة بواسطة التطور كما يلي ([2]ان العمليات الجيوفيزيائية كالجو والتبخر والترسبات لا بد وأن اثرت في ذلك الوقت كما تفعل الآن لخلق أنواعاً متباينة من البيئات . وانه لمن الواضح ان واحداً من هذه البيئات على الأقل كان ملائماً للحياة من ناحية درجة الحرارة والتركيب) . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن السؤال : ما هي هذه البيئة ؟ والجواب على ذلك هو انه بما اننا لا زلنا نعيش وفينا حياة فان تلك البيئة لا بد وانها كانت تشبه بيئتنا هذه التي نعيش فيها . واذا كانت هذه هي الحقيقة ، وهي كذلك طبعاً ، كان يجب على الحياة أن تكون في انبثاق مستمر . وهذا معناه ان ولادة الخلايا

---

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢ .

البدائية (التي يؤكد عليها التطور) يجب أن تكون مستمرة دائماً منذ ذلك الوقت الى وقتنا الحاضر . اليس من الانصاف أن نقترح هذا الاحتمال ؟ ولكن اذا كان ذلك ممكناً ، وهو ما يجب أن يكون ، فأين الأدلة العلمية ؟ ان علماء التطور لا يتكلمون عن هذه الأمور أبداً ، فهم يقولون لنا أن الحياة انبثقت قبل بضعة مليارات من السنين فقط ، ثم بدأت (لا لسبب) بالتطور . واذا لم يكن هناك انبثاق مستمر لخلايا جديدة وحياة جديدة فالسؤال هو : ما هو السبب الذي اوقفها ؟ لا جواب هناك .

(دي كايوكس) يبرر ايمانه بالتطور كالآتي [1] اذا اتفقنا أن الطبيعة استطاعت أن تخلق أجناساً مختلفة من مخلوق معين ، اذاً فاننا لا نستطيع أن ننكر أنها استطاعت أن تجعل نفس الاحتمال يعمل لمخلوق من أصل آخر ، لأن حدود الأجناس مستمرة) . ثم يستطرد [2] حالما نبدأ نازلين في مسار التطور فانه من المستحيل أن نتوقف في وسط الطريق، فأما كله أو لا شيء) . وهو يفرض أن التطور حقيقة، ومن ثم فانه من الطبيعي أن ينتهي الى استنتاجه هذا. ولكن أليس هذا نفس الشيء الذي قلناه آنفاً عن البيئة التي يجب أن تكون ملائمة لانبثاق الحياة المستمر؟ فاذا كان اقتراح (دي كايوكس) مقبولاً ، يجب ان يكون اقتراحنا مقبولاً أيضاً . ولذا بامكاننا أن نطرح الرأي التالي بنفس اسلوب (دي كايوكس) وطريقة استنتاجه : « اذا اتفقنا أن الطبيعة خلقت خلية بدائية واحدة، فماذا يوقفها من خلق خلايا اكثر؟ أما اننا نستمر مع هذا الاقتراح او لا ،لأنه من المستحيل التوقف في منتصف الطريق، فأما كله أو لا شيء) . فماذا يكون الجواب على هذا الاقتراح ؟ ولكن (دي كايوكس) يتمسك بالتطور مهما كان الأمر، ويشير الى أن الشيء المهم هو ليس كيف انبثقت الحياة، ولكن

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ٥٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٥٤ .

المهم هو ([1])معرفة الاتجاه الذي تأخذه هذه الحركة الحيوية خلال الزمان والمكان وفهم قوانينها وتوجهاتها . فتراكيبها عبارة عن وسائل أو ممثلين ، ولكن المهم هو بماذا يلعبون وليس ما هو كنههم). ونحن لا نشك في أهمية معرفة الكيفية التي تعمل بواسطتها الحياة لأن ذلك يساعدنا في تحسين طرق معيشتنا وصحتنا وسعادتنا الخ . وقد لا نجادل في ماهية تراكيبها . ولكن عندما تُعرض علينا نظرية بخصوص الموضوع وتُطرح على أنها تمثل الحقيقة التي تفسر الخليقة فان من حقنا أن نطلب برهاناً قطعياً على اثبات صحتها . و (دورثي بيتنت) تجلب الانتباه الى حقيقة انه ([2])عندما نتكلم عن التطور فاننا في الواقع نتكلم عن احتمالات وليس اشياءاً مؤكدة) . وهذا يرمي باقتراح (دي كايوكس) الأول في سلة المهملات ويجعل استنتاجه يستند على لا شيء وينهار . و (ستبنز) هو الآخر يبرر ايمانه بالتطور بواسطة رأي مجرد وليس برهاناً علمياً ، فهو يقول ([3])كل الأجناس والكائنات الحديثة كانت ولا زالت موجودة كأجناس ناجحة وتلائم بيئتها جيداً ، وكل الطفرات المحتمل أن تكون مفيدة لا بد وان حدثت على الأقل خلال تاريخ تطور السلالات) . ومرة اخرى ، لان الانسان يمتلك عينين (كما قد نضرب مثلاً) فلا بد وأنه يرى بواسطة كلا العينين . فلأن الكائنات الحية موجودة لا بد وأنها تطورت ، ولا بد وأن الطفرات المفيدة قد حدثت . يا له من استنتاج علمي !! ما هو الفرق بين استنتاج كهذا والاستنتاج بأنه لما كانت المكائن موجودة فلا بد وأنها تطورت بعضها من بعض. ولا ننسى أن المكائن أيضاً مصمَّمة على أسس متشابهة وتصنع بطرق وأساليب متشابهة ، وعلى سبيل المثال فان جميع السيارات والحافلات والشاحنات الخ تمتلك اشياءاً كثيرة مشتركة بينها مثل الماكنة وآلة القيادة والعجلات والمقاعد والمكابح الخ . واذا اتينا برجل

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٤ .

من الغابة لم ير هذه الأشياء من قبل ، وبعد ان يلاحظ التشابه فانه سيمتلك نفس القوة التبريرية التي يمتلكها التطوريون بأن هذه الآلات تطور بعضها من بعض بطريقة الصدفة .

وبعضهم يبرر التطور بواسطة عامل الزمن. (اندري) يقول ([1]لكي نفهم التطور، كما قلت ، يجب أن نكتسب ، على الأقل ، احتراماً لضخامة الزمن . وعندما نكون قد احرزنا بعض الفهم المرتعش لتلك اللُجَّة من الزمن المسماة مليون سنة ، عندها نستطيع أن نفهم كيف أن المخلوق شبه ـ الانسان ، العديم الذقن والصغير الدماغ ، آخر الحيوانات ، استطاع أن يلقي بنفسه في تلك اللجة بكل قابلياته للركض والرمي والصيد والقتل ، وكل غرائز اللبائن التي ورثها للعلاقات الجنسية والاجتماعية ، وللتملك والمجد، وللاعداء والاصدقاء ، وكيف استطعنا أن نخرج من اللجة بدون الشيء الكثير الاضافي سوى ذقناً ودماغاً أكبر) . حقاً انه لمن العجيب كيف يطلب منا أن نحترم الزمن وليس عقولنا ، وانه لمن العجيب كيف أنه يعتبر الدماغ شيئاً تافهاً عندما يشير اليه بالعبارة « بدون الشيء الكثير الاضافي » . وسوف نناقش مسألة الدماغ في فصول قادمة ، ولكننا نود أن نشير هنا الى ما يستطيع الايمان الأعمى أن يفعل بصاحبه ، وكيف يجعله يفكر . والأكثر دهشة هو أن (اندري) نفسه يرجع ليسأل ، غير محترماً الزمن الذي يطلب منا أن نحترمه ، فيقول ([2] اذا كانت الطبيعة ، خلال نصف مليار سنة ، قد تمكنت من انتاج العالم الحي الذي نعرفه ، فلماذا لم تستطع في المليار سنة التي قبلها أن تنتج أكثر من الرغوة الموجودة على بركة فلاح ؟) . وللجواب على ذلك فانه ينحرف عن مشكلة الزمن ، مناقضاً نفسه ، ومعتمداً على أسباب اكثر غرابة فيقول ([3]ان الجواب ،

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

طبعاً، سهل جداً. فالموت في الأزمان ما قبل العصر الكمبري(*) لم يكن معروفاً، وكانت الحياة موجودة ولكن ليس الموت . . . وعالم الطحالب والاميبا والديدان البدائية عبارة عن حياة مستمرة الوجود. . . . ونعترف أنه قد يكون تبسيطاً اكثر من اللازم نوعاً ما اذا قلنا ان الحياة اخترعت الموت) . وفي الواقع أن هذا النوع من التفكير بُركة لزجة لا يجب ان يقع فيها احد لأن الخروج منها شبه مستحيل . فالتبريرات المطلوبة لاثبات مسائل كهذه تكاد تكون لا نهائية . وواضح انه ليس بامكاننا ان نتصور الى أي حد يذهب المؤمن بقضية ما لغرض تبرير ايمانه . فحتى الخرافات والتصورات الخيالية تصبح حقائق بموجب منطقه . ولا يمكننا أن نتحاجج عندما يُدفع العلم الى هذا الحد . أين البرهان العلمي ؟ وأين الحقائق التي تثبت آراءاً كهذه ؟ لا يوجد أي منها . ولكنه يرجع ليعترف (1)يبدو انه لا يوجد سبب قوي لعدم تمكن الظرف الذي ساد لفترة مقدارها ثلثي عمر الحياة ان لا يستمر لفترة اضافية قصيرة اخرى. . . ايُّ مُحتلِّين خاثبين لوحول عصور ما قبل الكمبري اولئك الذين اصيبوا بسلسلة من الصِدَف التي اجتمعت لتحرمهم من حياتهم الخالدة؟ اننا لا نعلم. وعندما ننظر الى الوراء، الى الاصل النهائي للقوة التي كانت في يوم ما ستصبح انساناً، نصل الى نقطة افتراق قبل خمسمائة مليون سنة. في البداية، قليل جداً، وفقط أبسط احتمالات الحياة الرئيسية «والتي يسميها علماء الأحياء الشُعَب» كانت موجودة، ثم، وبترتيب قصير جداً، وبمضي الزمن التطوري، فان البقية تظهر فجأة .

وجميع الحياة الحيوانية المتناهية في التنوع والتعقيد التي نعرفها اليوم حدثت خلال هذه الفترة ، وليس قبلها . . لماذا ؟ ماذا حدث قبل خمسمائة مليون سنة لخلق بدايات العالم المتنوع الحيوي ؟)، في الواقع ان هذه اسألة وجيهة . ولكنها ليست لنا لكي نجيب عليها ، فالتطوريون هم الذين يجب أن يجيبوا

(*) احد العصور الجيولوجية .

(1) انظر المصدر السابق، ص ٢١٤ ـ ٢١٦ .

عليها . وعلى أي حال ، قد لا يكون من الصحيح القول انه في الفترة السابقة للخمسمائة مليون سنة الماضية كانت توجد احياء بدائية فقط . فهذا هو افتراض التطوريون وحدهم ، لانه لا توجد آثار تشير الى أن هذه الاحياء البدائية كانت موجودة فعلاً في ذلك الوقت .

ورجوعاً الى موضوع التبريرات ، فان بعض الناس يبررون التطور كما يلي . (برتراند رسل) يقول (1)ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبل الوصول الى العمر الذي يسمح له أن يترك نسلاً . فأنثى سمك القُدْ تضع حوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنة . فاذا وصل كل النسل الى البلوغ وانتج سمك قُدْ آخر ، فان البحر سيصبح صلداً خلال بضعة سنين ، بينما ستُغطىٰ اليابسة بطوفان جديد) . ومنها يستنتج ان هناك تنافساً مستمراً ضمن الجنس الواحد وبين الأجناس المختلفة ، والذي يقود الى الانتخاب والتطور (على حد زعمه) . ولكن الواقع ليس كذلك ، فهذا (دي كايوكس) يوضح انه (2)اذا كان صحيحاً أن التطور ينتج من الطفرات العشوائية بمعدل ثابت خلال العصور الجيولوجية ، فاننا يجب أن تكون عندنا فرصة أكبر للاحظة آثاره عندما تكون الفترة الزمنية بين الأجيال قصيرة . واذا كان التطور يبدأ بقرعة فعلاً ، واذا أخذنا بطاقة في كل مرة ، فان الجائزة الرئيسية يجب أن تُربَح بتكرار أكثر كلما يصبح سحب البطاقات اكثر تكرار . وعلى أي حال ، فان السحب ، أو الأجيال الجديدة ، تحدث كل بضعة سنين بالنسبة للحصان والفيل . وبالنسبة للدياتوم(*)فانه يحدث كل بضعة أيام . ولكن بالرغم من ذلك فان الجائزة الرئيسية ، وهي الجنس الجديد ، لا تظهر بتكرار أكثر في مسار العصور

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٠ .

(*) الدياتوم هو طحلب مجهري .

الجيولوجية . فتوقعات الحياة هي نفسها في كلتا الحالتين .

وفي القرعة أو اليانصيب ، فاننا نمتلك حظاً لربح الجائزة الكبيرة اذا كانت مائة بطاقة موجودة اكثر مما لو كانت مائة ألف بطاقة موجودة . والحياة تزودنا بهذه التنوعات . وبعض الأجناس تمتلك بذوراً أو بيضاً قليلاً جداً ، ولكن بعضها يمتلك الكثير . فالاويستر(**) تمتلك بضعة ملايين وكرة ـ النفاخ(***) تمتلك بضعة مليارات . وانه صحيح أن كثيراً من هذه البذور تنفقد أو تؤكد عندما تكون في مرحلة البيض أو عندما لا تُخَصَّب ، ولكن كثيراً منها تصبح يرقات ايضاً ، ثم كائنات فتية ثم انها تتعرض للانتخاب مثلما أن البالغة تتعرض للانتخاب . ويجب أن نجد تطوراً أسرع عندما تكون هناك بيوض اكثر . ولكن صورة الحياة في الماضي تبين لنا لا شيء من هذا النوع . ومحّار الماء العذب المسمى يونيو يضع مائتي الف بيضة في السنة . ولكن كائنات الملاريا الولّادية تلد خمسين طفلاً فقط . وبالرغم من ذلك فانه خلال المراحل الجيولوجية كانت الملاريا هي التي تطورت اسرع من اليونيو . والجمل يلد طفلاً واحداً في السنة ، بينما الضفدع ينتج خمسة آلاف . خمسة آلاف دعموص تسبح في بركة مائية ـ انها لفرصة رائعة للانتخاب ! ولكن مع ذلك ، وخلال المراحل الجيولوجية ، فان الجمل هو الذي تطور بصورة أسرع) . ولذا فان هذا التوضيح يجعل تبرير (برتراند رسل) ينهار من الأساس .

والايمان بالتطور يرجع ببعض العلماء الى خرافات اليونانيين القدماء . وهؤلاء العلماء ، وبطريقة ما ، بدأوا يقنعون أنفسهم بأن فكرة التطور ليست حديثة ولكنها قديمة بقِدَم تاريخ الانسان . وأصبح ذلك برهاناً آخر لصحتها . و (مُور) تخبرنا بأن [1]الاغريق وضعوا ايديهم على أكثر من بريق قصير من

(**) الاويستر هو نوع من المحار .

(***) كرة ـ النفاخ هي نوع من الفُ٢ريات

(١) انظر المصدر ١ ، ص ١٠ .

الحقيقة الأساسية للتطور . ثالس ، الذي عاش من سنة ٦٢٤ الى سنة ٥٤٨ ما قبل الميلاد ، نظر الى الحياة السابحة في بحر إيجة الازرق وأعلن ان الماء هو الأم التي خرجت منها كل الأشياء والتي بواسطتها توجد) . ونحن لا نعلم أين هي الاشارة الى فكرة التطور في هذا الكلام ؟ ان كل الأشياء الحية تحتاج الى الماء ، وهذه احدى حقائق الوجود ، وهي تقول هذه الحقيقة التي عرفها الانسان من ملاحظاته البسيطة على مر التاريخ ، سواءاً قبل الاغريق أو بعدهم . و (دي كايوكس) هو الآخر يقول ([1]لقد رأينا سابقاً في بلاد الاغريق القديمة ان امبادوكلس حمل فكرة الوحدات المتفرقة ـ الأطراف ، والرؤوس ، والقرون ، والعيون ـ التائهة التي تتحد بالصدفة لتكوين الأشكال الوحشية ، والتي حُذِف كثير منها بعد ذلك بواسطة الحياة . وكان هذا أول اقتراح لفكرة الانتخاب الطبيعي ، الذي التُقِطَ مرة اخرى بعدئذ من قبل دارون) . يا لها من سفسطة وربط يائس بين الخرافة والعلم لتكوين النظرية !! فهنا تجتمع التصورات السفيهة للأطراف والرؤوس والعيون التائهة في الوجود بخط واحد مع حقائق وصِدَف التطور . ولذا اذا كانت عندك فكرة في عقلك فانه يكفي لاثباتها أن تفتش بين الكتب القديمة والحديثة وتجد خرافة أو قصة أو شيء من ذلك ، ثم تستعمله كبرهان على صحة فكرتك . وستكون علمياً . ولم لا ؟ أليس هذا ما يفعله التطوريون كما رأينا ؟ ونحن نتساءل : اذا كانت خرافات الاغريق القدماء قد جعلت (دي كايوكس) يؤكد صحة التطور فلماذا لم يستطع بقية الاغريق وأوربا كلها التي آمنت بالله أن يجعلوه يؤمن بوجود الصانع ؟

و (مُور) هي الأخرى تقول ([2]ان نظرية التطور لم تضعفها ردود الفعل الناتجة بسبب اخطاء الماضي والتصورات غير الصحيحة السابقة وفتح أبواب

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤ .
(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٨ .

المفاهيم الجديدة . بل على العكس من ذلك ، فان الحقائق الأساسية التي وضعها دارون والتطوريون العباقرة الذين تلوه قد قويت . ويستطيع العلم ان يبدأ مرة أخرى للوصول الى غايته : الحقيقة التي لا يمكن الوصول اليها ، ولكنها التقريبية ، عن الانسان ، وأصله وتطوره) . وهنا نرى انها تسمي أدلة التطور بالحقائق . ولكننا رأينا سابقاً ان كل شيء لا يتعدى آراء العلماء العاملين في هذا الحقل ، وهي مختلفة ، وليست هناك حقائق . ثم تسميها الحقيقة التقريبية التي لا يمكن الوصول اليها ، والذي يجعل كل شيء بمثابة تبذير للوقت والجهود طالما اننا نعلم مسبقاً انه لا يمكن الوصول اليها . وهذا يجعلنا نأخذ احتمالين . الاول ان الفكرة بأكملها خاطئة ولذا لا يمكن الوصول الى نتيجة من ورائها . والثاني ان الموضوع يستحيل على الانسان الوصول الى نهايته أو معرفة حقيقته فبأي حق يعرضونه للناس على أنه حقيقة الخليقة ؟

ليس هناك انعكاس :

يقول علماء التطور ان عملية تطور الكائنات الحية تسير باتجاه واحد الى التحسن فقط ، وليس هناك انعكاس في هذه العملية . (بليبترو) يذكر انه ((1)ليس هناك كائن حي ، ولا جنس ، ولا سلالة ترجع الى أي تركيب أو حالة سابقة بالضبط . وكمثال عام ، ولكنه قوي ، وهو ان الحيتان جاءت من الأسماك ، وقد رجعت الى الماء وتبنت حالتها السمكية مرة اخرى ولكنها لم تصبح سمكاً مرة اخرى . وكل نظام او عضو أو نسيج أو خلية للحوت متميزة بوضوح عن اعضاء أي سمك موجود الآن أو كان موجوداً في السابق . . . . والعمليات الجينية للتطور كلها قابلة للانعكاس ، ولكن انعكاسها كلها الى نفس الدرجة في التقارب وضمن اطار بيئي متشابك ومتغير مسألة غير محتملة الى درجة بحيث انها من غير الممكن أن تكون قد حدثت خلال مجرد بضعة مليارات من

---

(1) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

السنين) . أليس هذا مدهش حقاً !! عندما تأتي المسألة الى كون الطفرات الوراثية عشوائية وانها أنتجت الانسان من خلية واحدة فانها ليست غريبة ، بل على العكس من ذلك انها ممكنة جداً . ولكن عندما يصل الموضوع الى انعكاس العملية فانها مسألة غير محتملة على الاطلاق . ونحن نسأل : أليس الطفرات عشوائية ؟ أليس هم يقولون أن ٩٩ ٪ منها تعمل عكس التحسن ؟ اذن أليس من المنطقي ، عندما نقارن الـ ١ ٪ الى الـ ٩٩ ٪ ، ان نفترض بأن التطور يجب ان يتجه باتجاه الـ ٩٩ ٪؟ أليس هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي يجب أن يكون احتماله أكبر وليس اتجاه الـ ١ ٪؟ وعلى أي حال ، أين البرهان العلمي على أن الانعكاس لا يحدث ؟ وماذا عن الصدفة ، هل هي ممنوعة هنا ؟ أم ان الصدفة لها قوانينها التي تمنعها من عكس خصائص الأجناس ؟ وماذا لو أن الجنس رجع الى نفس الظروف السابقة تماماً ، وهو محتمل جداً لأن الظروف في مناطق الكرة الأرضية ثابتة تقريباً ؟ ونحن نلاحظ هنا انه عندما تصل المسألة الى التطور فان العلماء يتصرفون مثل السياسيين . اذا أرادوها كبيرة فهي كبيرة واذا أرادوها صغيرة فهي صغيرة . وفي هذا المجال يؤكد (كورتن) بالقول (1)ليس هناك رجوع الى الوراء ، فالتطور لا يعكس مساره) . ولكننا نسأل : لماذا ؟ أين الدليل أو البرهان أو القانون العلمي ؟ هل انه قانون بأن التطور لا ينعكس ؟ واذا كان كذلك فمن الذي وضع هذا القانون ؟ هل هو شيء آخر خارجي !! ام أن هذه صدفة عجيبة اخرى دائمة الوقوع باستمرار ؟

ان ما يثير السخرية في كيفة وضع التطوريون فلسفتهم وطريقة تفكيرهم يمكن ملاحظتها من المقطع التالي لـ (كورتن) عند وصفه للانسان (2)بأنه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطورية مستقبلية كامنة ، والوحيدة التي تستطع

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٦٥ .
(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٧٢ .

أن تعطي شيئاً جديداً حقيقياً . فالحصان والقط والخفاش الخ لا يمكنها ان تتطور الى أي شيء يختلف اختلافاً حقيقياً ، والانسان فقط يستطيع أن يفعل ذلك) . ولكننا نستطيع أن نحاجج هذا الرأي بالقول اذا كان التطور ممكناً فلماذا لا تستطيع هذه الحيوانات أن تتطور ؟ أليس هذا رأي غريب من انسان يؤمن بالتطور ؟ اننا نرى انه اذا كان التطور واقعاً فقصارى ما نستطيع أن نقوله هو أن الانسان يجب أن يكون أكثر استعداداً للتطور من غيره لانه يدرك بوعي وجود هذا المشروع العظيم بدون أن نلغي القدرة التطورية الكامنة التي يُفْتَرَض أن تحملها جميع الكائنات الحية الأخرى . في الواقع أن الفكرة بأكملها لا تبدو كعِلْم صلب . فهذا (سميث) يلخص الموضوع بالقول [1]اذا كان هذا التكيف يأتي نتيجة للانتخاب الطبيعي للمتغيرات التي هي في أصلها غير تكيّفية ، فان العملية لا بد وان تتضمن عدداً كبيراً من الخطوات التي كثير منها صغيرة المقدار . كما ان انتاج تكيّف مفصل بواسطة الطفرات ذات التأثيرات الكبيرة فقط ـ الطفرات العملاقة ـ سيجابه نفس الصعوبات التي يواجهها جرّاح مضطر للقيام بعملية باستعمال مِشْرَط مسيطَر عليه ميكانيكياً والذي يمكن تحريكه قدماً واحدة في كل خطوة . و « فشر » في حجة له يذكرها « لا ند » ذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يجادل بالقول بما أن الكائنات الحية الموجودة متكيفة جيداً فان الطفرات الكبيرة مؤذية بالضرورة . ولكنني لست مقتنعاً كلياً بذلك . وأنا اتفق أن التكيف لا يمكن انتاجه بواسطة انتخاب الطفرات العملاقة فقط ولكنني لا أرى لماذا لا نقبل أن طفرات عملاقة عرضية يمكن أن تكون قد أُدْمِجَت بواسطة الانتخاب . والسؤال هو تجريبي في النهاية) . يتضح من هذا عدم وجود الحقائق لاثبات هذه الأشياء وليس هناك اتفاق على نظريات التطور . وكل ما في الأمر هو أن العلماء يحاولون موافقة نموذج أو نماذج مهزوزة على ظاهرة موجودة، خارج نطاق العلم . والقضية لا تتعلق بالعلم أو القوانين العلمية .

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢٥ .

والا لماذا تطور الخروف فامتلك دثار الصوف الثقيل بينما بقيت البقرة بجلد عار تقريباً بالرغم من ان كلاهما يعيشان نفس البيئة ؟ ولماذا تطورت الكائنات الحية فأصبحت مختلفة هذه الاختلاف الجذرية التي نراها بالرغم من أنها عاشت في نفس البيئة (على افتراض أنها كلها تطورت من خلية واحدة) ؟ ولماذا تطورت بحيث اننا اذا قطعنا عضواً مهماً من بعضها فان الكائن الحي يموت بينما بعضها اذا قطعنا معظمه لا يموت (كالنبات) ؟ وفي الواقع فان هناك ما لا نهاية له من الاسئلة التي يمكن أن نطرحها والتي تقف نظرية التطور أمامها عاجزة ومشلولة تماماً. و (اندري) يقول [(١)] قد نظن طبعاً أن الحياة نفسها جاءت الى الوجود قبل فترة قصيرة . ولكن الظن لا يكون حقيقة . فاننا لا زلنا لا نعرف عمر جُرمِنا [(*)] بالرغم من أن ما يقارب أربعة مليارات سنة يعتبر تخميناً لا بأس به على أي حال . وبسبب اننا لا نعرف عمر جرمنا فاننا لا نعرف وقت وظروف بدء الحياة . . . وسواءاً حدث أول مزيج من المادة اللاعضوية وتبدَّلَ الى كائن حي بطريقة الصدفة أو بطريقة حتمية ، سواءاً لأنها « أي الحياة » لم أو لأنها كان عليها، وسواءاً انبثقت بواسطة العمليات الكيمياوية أو النشاطات الاشعاعية ، أو شرود الذهن الالهي : كل هذه نقاط قابلة للمناقشة) . ومع ذلك فان الايمان ايمانٌ سواءاً كان خطأ أو صحيحاً ، وأولئك الذين يؤمنون بالتطور يعرضونه علينا باعتباره حقائق علمية شرعية وعلينا أن نقبلها ، وهم يتمسكون به وكأنه اله .

انه تكيف فقط :

رأينا سابقاً انه لا توجد أدلة حقيقية بأن التطور قد وقع فعلاً . وليس هناك من يستطيع أن يثبت بطريقة لا جدال فيها ان سلالة معينة قد تطورت من سلالة اخرى (على الطريقة المتبعة في حقول العلم الأخرى) . وبدلاً من ذلك

---

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .

(*) يقصد الكرة الأرضية .

توجد افتراضات كثيرة واختلافات كثيرة في الآراء . ولكن التطوريين يستمرون بأخبارنا أن التجارب تبين أن التطور لا بد وأنه قد حدث بسبب قابلية التكيف التي يمكن ملاحظتها في الكائنات الحية . فالى أي حد يذهب التكيف في إحداث التغيرات ؟ وهل انه يصل الى الحد الذي يتغير فيه الكائن كلياً الى كائن جديد ؟

(ستبنز) يعترف بان ([٢]الشيء الأكيد هو أنه في الواقع ليس هناك عالم من علماء الأحياء رأى أصل مجموعة رئيسية من الكائنات بواسطة التطور . ومع ذلك ، فان أجناساً وأنواعاً قد تم انتاجها في المختبر أو الجنينة بواسطة استنساخ بعض العمليات التطورية المعروفة على أنها تحدث في الطبيعة) . ولكن ما هي هذه العمليات التطورية التي يتكلم عنها ستبنز ؟ (برتراند رسل) يخبرنا بأن ([٣]حيوانات أليفة قد تم تغييرها كثيراً بواسطة الانتخاب الاصطناعي : فخلال وساطة الانسان ، أصبحت الأبقار تنتج حليباً اكثر ، وخيل السباق تركض اسرع ، والغنم تنتج صوفاً اكثر . وحقائق كهذه أعطت أكثر الأدلة المتوفرة وضوحاً لدارون عن ما يستطيع أن يفعله التطور . وانه لحقيقة ان المربين لا يستطيعون تحويل سمكة الى مارسوبيال(***) ، أو مارسوبيال الى قرد ، ولكن تغيرات عظيمة كهذه قد نتوقعها تحدث خلال العصور العديدة التي يحتاجها الجيولوجيون) . ويتضح ان كل ما هو متوفر لا يتعدى التكيف والتحسن وليس تغير الجنس أو النوع . وعن الزمن المطلوب لتغيير الأنواع تجيب (مُور) بالقول ([١]ان المعضلة حادة . هل استطاع الانسان الحديث أن يتطور من مرحلة الانسان ـ القرد الجنوب افريقي في الفترة الوجيزة التي مقدارها مليون سنة ؟ . . . الجواب يبدو كلا ، لأنه اذا كانت الفروق بين هؤلاء الأجداد (اي

---

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٣) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٤.

(**) مارسوبيال = حيوان يحمل طفله في كيس في جسمه .

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

انسان النياندرنال) وانسان اليوم قد أُخِذت بنظر الاعتبار بواسطة الانتخاب الطبيعي الذي يعمل بالاسلوب والسرعة التي افترضها دارون، فان المليون سنة لا يمكن أن تكون كافية) . لذا فان القول بأن التطور حدث بسبب الزمن ليس كافياً وليس هناك أدلة تشير اليه اطلاقاً ، وهو ليس سوى افتراض وتخمين لا أساس لهما من قبل أولئك الذين يؤمنون بالتطور ، وكانا هكذا دائماً .

ولكي نتوصل الى الخلفية الحقيقية التي انبثقت منها فكرة التطور وأين تقف الآن، فاننا نستشهد بقول (دورثي بيتنت) التي تقول (ان[1]التطور يستمر حولنا كل يوم، كل دقيقة، بالرغم من انه بطيء جداً في العادة بحيث اننا لا نراه . . . وكثير من الكائنات المألوفة حولنا تعتبر أمثلة رائعة على التغير التطوري الحديث والذي لا زال مستمراً . فالداندليون[*]الموجود في حديقتك ، وسنونو الدار الذي يبني عشه تحت السقف ، والجراثيم التي تجعلك مريضاً ـ هذه الكائنات الاعتيادية تكيف نفسها باستمرار لتلائم التغيرات في العالم المحيط بها . . . ولكن بالضبط ماذا يعني العلماء بالتطور؟ انه ، وبكل بساطة ، يمكن أن نُعرّفه على انه العملية التي بواسطتها تتغير الكائنات الحية خلال أجيال كثيرة . . . فالتطور هو تغير) . ولكن هذا أليس صحيحاً تماماً . فالتطور ليس مجرد تغير ، وليس أي تغير . فما نفهمه هو أن التطور صنع انساناً من خلية بدائية . لذا فان وصفه بأنه مجرد تغير يعتبر سوء فهم كبير . والمسألة تصبح اسوأ عندما تقول (بيتنت) ([2]ان التطور ليس بالضرورة يعني التقدم) . ونحن نسأل : اذا كانت الحالة كذلك كيف يكون هناك بقاء وديمومة اذاً ؟ وكيف تطورت الأنواع الراقية من الأنواع الدنيا ؟ دعنا نرى قولها التالي ([3]ولكن

---

(١) انظر المصدر ٩ ، ص ٩ ـ ١٠ .

(*) نوع من النبات .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ١٧ .

مقياس نجاح التطور في الواقع ليس كم معقد أو كم ذكي أو كم جميل يصبح الكائن الحي ، ولكن المهم هو هل سيكون قادراً على البقاء اليوم ويترك نسلاً غداً ام لا . والتغيرات التطورية تقود الى التكيف لبيئة معينة في زمن معين) . اذن فان التطور هو التكيف . ولكن هل هو كذلك ؟ اننا نرى خلطاً وتشويشاً كثيراً هنا . فنحن نفهم التطور ، كما يُعرَض علينا بواسطة علماء التطور ، على انه شيء آخر ليس ما تقوله (بيتنت) اذا كانت الخلية البدائية قد أصبحت انساناً . والمتتالية التي يتضمنها تصريحها يمكن تلخيصها كما يلي :

تغير ← تكيف ← تطور

ولكننا نفهم التطور والتكيف كما يلي (بموجب ما يُعرَض علينا) .

تغير ↑↓ تكيف } ليس ← تطور

ذلك لانه اذا كانت الخلية قد تطورت الى انسان فان التطور يخلق اشياءاً جديدة أفضل من سابقتها بالضرورة . أي انه انتاج لظواهر جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهو تغير نحو انتاج خصائص اكثر تطوراً في الاتجاه الذي يساهم في تكوين سلالات جديدة متطورة ، أي مخلوقات أكثر تطوراً . فالتطور ، كما يقال ، حَوَّل خلية الى الانسان ، وبنظرية كهذه فانه ليس صحيحاً أن نساوي التطور مع التغير المجرد ، والذي يُستقرأ منه ان أي تغير في الكائن الحي يصبح تطوراً ، ثم يُستَنْتَج ان قابلية الكائنات الحية على التكيف للمحيط هو تطور . لعمري ماذا حدث للفكر !! فلو كان التطور أي تغير مجرد فان الخلية لن يمكنها أن تصبح انساناً مطلقاً . ان التكيف يختلف عن التطور اختلافاً جذرياً . ويبدو لنا ان المتتالية الآتية تنطبق بصورة أفضل من المتتالية السابقة :

التطور ← حدوث تغيرات جديدة تخلق شيئاً اكثر تطوراً لم يكن موجوداً من قبل .

بينما :

التغير ← التكيف .

لذا فان التطور ليس أي تغير . والتطوريون يتكلمون عن التكيف وكأنه تطور ، والعكس بالعكس ، والذي يقودهم الى اجراء تجاربهم عن التكيف ويعتبرونها تطوراً . وواضح أن هناك خلطاً وتشويشاً حول الموضوع . فمفهوما التطور والتكيف يُستعملان بأسلوب متبادَل لاعطاء نفس المعنى . ولكن الحقيقة ان العمليتان ليستا نفس الشيء . لأن التكيف هو التغيرات التي تحدث للكائن الحي لتمكينه من مقاومة الظروف البيئية ولا يتغير الجنس الى نوع آخر ، بينما التطور هو التغير الذي يخلق كائناً جديداً . وفي الواقع ، فان فكرة التطور بأكملها تُخْتَزَل الى التكيف . و(بيتنت) تخبرنا بأن ([1]التكيف الى بيئة معينة يجب أن يكون توافق وسطي . فالعنق الطويل عند الزرافة قد يعني أن الزرافة تستطيع أن تصل الى الغذاء غير المتوفر بالنسبة للآخرين ، لذا فانها تزيد من امدادات الغذاء لها ، ولكنها ايضاً تسبب مشاكل للزرافة . فقلبها يجب أن ينبض بقوة أعلى لكي تستطيع كمية كافية من الدم أن تصل الى دماغها ، وقد لا تستطيع أن تركض بالسرعة التي تركض بها قريناتها قصيرة ـ الأعناق . ولذا فانه من الأفضل الكلام عن البقاء للصالح وليس الأصلح ، لأن الأصلحية هي توافق وسطي دائماً ، وما يكون صالحاً اليوم قد يكون أقل أصلحية غداً) . ولكن اذا كان اكتساب شيء معناه خسارة شيء آخر فان الخلية لن يمكن لها أن تصبح انساناً . وعلى كل حال ، ان القول بأن الصالح يبقىٰ وليس الأصلح معناه القول ان الأدنى يستطيع البقاء أفضل من الأرقى لأن الأصلح يتضمن

---

(١) انظر المصدر ٩ ، ص ٧.

الصالح بالتعريف ويجب ان يكون أكثر تطوراً منه . وهـو بمثابـة القول بـأنه ليس هناك تطور في الواقع .

وعنـدما نتكلم عن التكيف فمن الـواضح انـه لما كـانت الظروف والمـواد الغذائية متغيرة من منطقـة الى اخرى عـلى سطح الأرض فـان التكيف ضروري بـالنسبة للكـائنات الحيـة مهما كـان أصلها سـواءاً تـطورت من خليـة ام ان الله خلقهـا ، فهي في كلتا الحـالتين تحتـاج الى قابليـة التكيف للظروف لـلاستمـرار بالحياة . واذا كـانت قد خلقهـا خالق فـان هذا الخـالق بالتـأكيد سيضـع قابليـة التكيف فيهـا . ولا نحتاج أن نجـري تجارب مختبـرية لكي نـرى هذا التكيـف ، فنحن نستطيع رؤيته في انفسنا . وكل ما نحتاجه هو قليل من التمارين الرياضية لنرىٰ كيف تنمو عضلاتنا أو نعرّض أجسامنـا الى الشمس لنرى كيف يتغـير لون بشرتنا . أليس هذا تكيف للظروف والبيئة ؟ ولكن هل يمكن أن نسميه تطوراً ؟ والتكيف ليس عمليـة عشوائيـة لأن الكائن الحي اذا وضـع تحت نفس الظروف فانه سيعاني من نفس التغيرات في كل مرة . فالجلد المعرض الى الشمس يصبـح أغمق لوناً دائماً ، وقابلية التعرق تزداد دائماً في الأجواء الحارة . ولو كان التكيف عشوائياً لكانت التجارب مـع الحيوانـات والنباتـات تعطي نتـائج مختلفـة في كل مـرة ، ولما كـان تحسين أي نـوع من النباتـات أو الحيوانـات ممكناً . فـان تحسين خصائص الحيوانات والنباتات لاعطاء انتاج أوفر لـدليل صـارخ على أن التكيف يتبع قوانين ثابتة .

ونحن لا ننكر أن نظرية التطور نبهت الانسـان الـى القابليـة الموجـودة في الكائن الحي للتحسين فيها لو تحسنت ظـروف المعيشة والغـذاء التي هي جزء من قـابلية الكـائن الحي على تحمـل الظروف والتكيف للبيئـة ، على ان ذلـك كـان نتيجة عرضية لم تقصدها النظرية ولكن استقرأها علم الاحياء من نظريتي التطور والوراثة ، واستعملهـا لتحسين نسـل كثير من الحيـوانات والنبـاتات ممـا ادى الى تحسين هذه الأنـواع وانتاج المـواد الغذائيـة بصورة أوفـر . ولكن علماء الأحياء لم

يتمكنوا من تبديل احدى هذه الحيوانـات أو النباتـات من نوع الى آخـر لذا فـان تحسينات كهذه للكـائنات الحيـة لا تقودنـا الى الاستسلام بـأن النظريـة صحيحة (وهي النقـطة التي يحـدث فيهـا الخلط بـين التـطور والتكيف) . وحتى بـدون مساعدة نظرية التطور فان علم الاحيـاء بامكـانه أن يصـل الى نفس النتيجة عن طريق آخر لأن خاصية التكيف موجودة في الكـائن الحي مهمان كـان أصله (كما قلنا) . ولا نحتاج الى نظرية تخبرنا بذلك. فالفلاح الحافي القدمين تكون أقدامه عـريضة ولكن أطفـاله لا تكـون أقدامهم عـريضة ابـداً اذا لم يعملوا في الأرض حـافي القدمـين . ولكن التطوريـين ، ومنذ البـدء ، يستعملون خاصيـة التكيف المـوجودة في الكـائن الحي لاجراء تجـاربهم التي تثبت لهم في كل مـرة اعتقـادهم بالتطور ناسين بأن كل ذلـك يمكن أن يفسر بتفاسـير أخرى لا تقـل منطقيـة عن تفسيرهـم ان لم تكن أكثر منطقية .

استنتاج :

قمنـا بدراسـة وتمحيص لنظريـات التطور المختلفـة والآراء السـائـدة بـين العلماء ، والمتعلقـة بها ، فـوصلنا الى استنتـاج انه لا تـوجد نـظرية واحـدة يتفق عليهـا العلماء أنفسهم ، وليست هنـاك أدلـة علميـة كـافيـة تسنـد أي من هـذه النظريات . وبصورة عامة فان هذه النظريـات ليست سوى آراءاً لأولئـك الذين يطرحونها . وجميع الأدلة التجريبية المتوفرة تخص تكيف الكائنات الحيـة للظروف والبيئة وليس تطورها من نوع الى آخر. وليس هناك أحد يستطيع أن يؤكد بدون شـك ان التطور قـد وقع فعـلاً ، ولا يوجـد من يستطيـع أن يعطي اي بـرهـان عليه .

وأحـدث النظريـات تجمع بـين كل من الـطفرات والانتخـاب الطبيعي ، وتزعم أن كليهما مسؤولان سوية عن التطور . ولكن كلا من هاتين النظريتين تم البرهان على فشلها فيما لو أخذت لوحدها . ولـذا فان جمعهـا معاً لا ينقـذ فكرة التطور .

ويتضح ان العلماء يخلطون التكيف مع التطور ويعتبرون التكيف تطوراً ، ولكنهما في الواقع مسألتان مختلفتان . فالتكيف موجود في الكائنات الحية كوسيلة دفاعية ضد الظروف القاهرة ولكنه لا يسبب تغير الكائن الحي من نوع الى نوع آخر .

الفصل السابع

تحليل بعض المفاهيم الموجودة في نظرية التطور :

سوف نتطرق في هذا الفصل الى بعض الظواهر التي نلاحظها في حياتنا اليومية ، أو التي تزعمها نظرية التطور، ونحاول تحليلها في محاولة للوصول الى فهم أعمق لكيفية تطبيق مفاهيم التطور عليها ، وفيما اذا كان باستطاعة نظرية التطور اعطاء تفسير مقبول لها .

الغاية من التطور نحو الأرقى :

ان المنطق العقلي يملي علينا القول انه لكل عمل غاية وهدف اذا كان هذا العمل متوخياً نتيجة أفضل . واذا لم تكن هناك غاية فان ذلك العمل لا يتوخى نتيجة ويصبح عبثاً وتفريطاً في الوقت والامكانيات بدون فائدة . أي انه يمثل خسارة ، والخسارة نقصان . وهذا النوع من العمل ليس له وجود في هذا الكون . ذلك لانه اذا سمحت قوانين الكون لعمل عابث واحد فان ذلك معناه أن قوانينه تسمح بحدوث العمل العابث ، وهذا معناه امكانية حدوث اكثر من عمل عابث واحد . وفي هذه الحالة ، ليس هناك ما يمنع من حدوث اعمال عابثة بالعدد والنوعية التي تؤدي الى فناء الكون وتدميره . وهذا تناقض مع

وجـود الكون وقـوانينه الصـارمة التي تحـاول الحفاظ عليـه وعلى وجـوده . وهذه القـوانين لا تسمـح للخلل ان يتسلل الى أرجاء الكـون ، بل تقضي عليـه حال حدوثه ، والا لما بقي الكون في شكله هـذا وتوازنـه . وحدوث العمـل العابث يخل بعدالة الكون الذي يستند وجـوده على القـوانين العـادلة التي تسبب تـوازنه وبقاءه . فالتـوازن هو العـدالة ، ولـو لم تكن عدالـة لاختل الكـون وانتهى ، أو لكان تحول الى شكل آخر متوازن تسود فيه العدالة أيضاً . لـذا فحدوث العمـل العـابث اخلال بهـذه العدالـة . والاخلال بـالعدالـة ظلم ، لأن الظلم هـو كل خـروج عن العدالـة . ولكن اذا كـانت العـدالـة هي التي تحكم فكيف يحـدث الـظلم !! فالـظلم والعدالـة متناقضـان ، والمتناقضـان لا يجتمعـان في آن واحـد ومكان واحد . وهذا قانون كوني نجده يسري على جميع ما في الكون ، وهو من بديهيات العقل الاساسية .

السؤال هنـا هو أن المـادة عندمـا تطورت نحـو الاحسن فـاكتسبت الحيـاة بموجب نظرية التطور ، فما هي الغاية التي تنشدها المادة من هذا العمل الجبـار ؟ وما الفائدة التي جنتها ؟

انـنا نرى أن الكـائن الحي يموت ويـرجع مـرة اخرى الى نفس المـادة التي تكونت خلاياه منها ولا تتغير تلك المادة بالمرور خلال الكائن الحي . بل ترجع لما كانت حتى لو مرت خلال خلايا الكائن الحي وأصبحت جزءاً منها ما لا نهايـة له من المرات، فانها سوف ترجع الى ما كانت عليه قبل الحياة في كل مرة يموت فيها الكـائن الحي ، مـادة لا حـراك فيهـا ولا تختلف اي اختـلاف عن المـادة التي لم تدخل الخلية الحية أو الكائن الحي اطلاقاً . والشيء الوحيد الذي يحدث هو أنها تُستعبَـد من قبل الكـائن الحي كما نستعمـل الحصان للركـوب ، وهذا أبعـد مـا يكون من أن يسمى فائدة أو تطور . فتـطور المادة الى الخليـة الحية اذن لم يحـولها الى أفضل مما كـانت عليه قبـل الحياة . ولا تتغـير المادة الى أي شيء يختلف مثلما أن الـوجود الأول ، وبعـد الانفجار الكبـير الذي أنتج الكون ، غـيِّر المـادة من

الذرات البسيطة الى ذرات أثقل وأكثر تعقيداً (أو طوّرهـا ، وليس غيّرهـا ، كما يرغب التطوريون أن يقولـوا لصياغـة تشبيه وربط هـذا التشبيه مـع فكرة تـطور الكائنات الحية وزعـم أن الكون كان ولم يزل في تطور ، ناسـين ان المادة تـوقفت عن التـطور لسبب مجهول وليس هنـاك تطور مستمـر ، بـل اننـا نـرى العنـاصر الثقيلة كاليورانيوم يحدث له عكس ما يـزعمون ، فهـو يشع ويتحـول الى عنصر أخف هو الرصاص) . وبدلاً من التطور فان المادة استُعبِدَت وبقيت كـما هي . ويبدو أن هذا العمل لا يمثل سوى ضياع في الجهد والوقت حيث تفنىٰ الحَياة التي هي الشيء الجديد وتنتهي وكأنها لم تكن ، وكل شيء يـرجع الى مـا كان عليـه ، مادة ميتة . وباختصار ، فان الصورة العامة هي كالآتي :

مادة ← حياة ← موت ← { الحياة تفنى / المادة ترجع كما كانت } كائنات حية اخرى تسير نحو « لا هدف »

ان هـذا العمل يبـدو عملاً عـابثاً ، سـواءاً من ناحيـة المادة أو من نـاحية الكائن الحي الذي يأتي الى الوجـود فقط لكي ينقل الحيـاة الى كائن حي آخـر ، بـدون فائـدة أو غايـة . ويبدو أن المـادة والكائن الحي عـابثان ومبـذران للوقت والجهـد باللعب بهـذه الطريقـة . وهذا العمـل العابث لا يمكن بـأي صورة من الصور أن يوصف بأنه تطور ، بل الأجدر أن لا تكون لـه امكانيـة الحدوث وأن لا تسمح له قوانين الكون الصارمة وعدالته بالحدوث .

ولكن ، وبما أن الشيء حدث ، حيث أن الكائنات الحيـة موجـودة . اذن لا بد وأن هناك تفسيراً آخر لهذه الظاهرة العظيمة . ولا يقبل العقـل المنطقي أن عملاً عظيماً كهذا لا يستهدف غاية معينة ، خاصة مـع وجود التعقيـدات الكثيرة للأشياء المتداخلة فيه .

تناقض مبدأ التطور مع نفسه :

لو تصفحنا الوجود في جميع أبعاده ، سواء المادة ، أو الحياة ، أو العقل ، لرأينا ان كل شيء تحكمه قوانين صارمة وفي منتهى التعقيد . ولا شيء يحدث بدون الخضوع لهذه القوانين . والقانون هو نظام ، والنظام هو نتيجة لتنظيم ، والتنظيم نتيجة لتدبير ، والتدبير نتيجة لحسابات وأخذ ما يليق ورفض ما لا يليق . وهذا معناه اختيار والاختيار تفكير والتفكير ذكاء .

واذا بحثنا عن أصل الانسان بموجب نظرية التطور فاننا سنصل الى المادة . أي أننا سنصل الى نتيجة تقول ان الانسان تطور مما هو أدنى منه . وهذه النتيجة واضحة . وبما أن الانسان يتكون من أجزاء معقدة ومنظمة ، وكل جزء من هذه الأجزاء عبارة عن نظام معقد يؤدي وظائفه وواجباته بموجب قوانين وايعازات صارمة ، أي بما أن الانسان هو مجموعة قوانين (اي أنه نظام) ، فلا بد وأنه تنظم وتدبر واختير عن تفكير وذكاء . وذلك لأنه ، وكما قلنا ، سابقاً ان الاختيار عملية تتطلب ذكاءاً . الا ان نظرية التطور تقول ان الانسان جاء مما هو أدنى منه ذكاءاً وهو المادة . وبطبيعة الحال فان المادة لا تمتلك الذكاء ، ولا تستطيع أن تجري عملية التفكير المطلوبة لانتاج نظام كالانسان . وهنا نجد التناقض بين ما تقدم من بديهيات عقلية (والتي تُعْتَبَر من نتاج التطور) وبين مبدأ التطور . فأيهما نأتمنه بأن يكون الطريق السليم المؤدي الى استنتاج أصل الانسان ، هل هو الذكاء ؟ أو ما هو أدنى ذكاءاً من الانسان ، وهي المادة ؟ .

وللوصول الى الجواب الواضح ولكن بطريقة أقل وضوحاً ، نقول (وباستعمال لغة التطور نفسها) ان الانسان قد تطور الى الاحسن فامتلك العقل ، وهذا العقل يمتلك بديهيات مسلم بها ويعتمد عليها في جميع الاستقراءات العلمية التي أوصلت الانسان الى جميع أنواع المعرفة . ومن هذه البديهيات العقلية مبدأ عدم التناقض ، والذي معناه استحالة اجتماع المتناقضَيْن

في شيء واحد وفي آن واحد . وهذه البديهية (او القانون العقلي) لا بد وان تكون أرقى ما وصل اليه العقل ، والا فليس هناك تطور ، حيث اننا اذا قبلنا مبدأ التطور فاننا نقبل ان ما هو موجود الآن يجب ان يكون أرقى شيء . اذن هذا القانون العقلي قانون راقٍ لأنه احد قوانين العقل الراقي . لذا نحن نستند على هذا العقل الراقي وقوانينه الراقية في اجراء الحكم على الأشياء (وبضمنها التطور نفسه) وحكمه أفضل الأحكام وأرقاها . ونحن تطورنا الى عدم قبول اجتماع المتناقضَيْن ، ونحن لسنا سوى النتاج الأخير للتطور .

ماذا يقول لنا عقلنا الراقي عن مبدأ عدم التناقض ؟

انه يقول ان ما هو أدنى ذكاءاً لا يمكن أن يصنع أو يكتشف ، أو يخترع ، أو يفهم ، ما هو أذكى منه لأن في ذلك تناقض . فهو ان لم يكن الاذكى فسوف لن يعرف الاذكى (لذا فان المثل يقول : « انه يتطلب اثنان لفهم شيء واحد » ، حيث يجب أن يكون مثله على الأقل لكي يفهمه) ولذا سوف لن يستطيع ايجاده .

وأما اذا كان يعرفه فهو الاذكى ولا يمكن أن يكون ما يصنعه أذكى منه . وبكلمة اخرى ، اذا عَرَف الأذكى فلا يمكن أن نقول انه أقل ذكاءاً لأن ذلك معناه اننا عرّفناه أولاً بأنه لا يملك قدرة معينة ، ثم استتبعنا ذلك بالقول : ولكن مع ذلك انه يملكها ، أين انه يملكها ولكن لا يملكها في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله كما تقدم . لذا فان القول ان المادة انتجت الانسان الذي هو أرقى منها غير مقبول لانه تناقض . فنحن نقول ان المادة لا تمتلك قدرة الانسان لأنها أقل رقياً منه ولكن بنفس الوقت هي التي صنعته . فهي لا تمتلك قدرة الانسان ولكنها تملكها ، أو تملك أكبر منها ، في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله . فاما أن تكون المادة لا تمتلك القدرة ، وفي تلك الحالة لا تستطيع ايجاد الانسان الذي هو أرقى منها . أو انها تمتلك القدرة ، وفي تلك

الحالة لا يصح القول ان الانسان أرقى من المادة وتـطور منها . وهـذا معناه ليس هناك تطور .

وهذا الاستنتاج ينـطبق على القـول بتطور اي كـائن حي الى ما هـو أرقى منه ، والذي معناه التناقض .

مبدأ عدم التناقض :

ان مبـدأ عدم التنـاقض يجب ان يُقبل من قبـل الذين يـزعمـون التـطور لأنه ، وبموجب نظريتهم ، النتاج الأخير (لحد الآن) للتـطور لأنه أحـد قوانـين العقل البشري الذي هو أرقى من غيره . وبما ان هذا القانون هو أفضـل وأرقى ما توصل اليه التطور ، فان القـول بامكـانية التـطور الذي أدى الى ايجـاده معناه القـول بامكـانية تـطوره من نقيضه لانـه لا بد وانـه تـطور من شيء أدنى منـه ، والشيء الوحيد الذي أدنى منه هو نقيضة ، لأن قانوناً أساسياً كهذا امـا أن يكون صحياً أو خطأ . اي اما أنه هو صحيح واما أن نقيضه صحيح وليس هناك شيء بينهما . لذا يمكننا القول ان هذا القانون صحيح ، وهو ما يجب أن يكـون حيث انه الأرقى ، في هذه الحالة فان ذلك معناه ان نقيضه وهـو خطأ قـد عاش لفتـرة من الزمن . ولما كان النقيض هو نتـاج للتطور أيضـاً فان ذلـك معناه ان التـطور انتج مبدأ خاطئاً ، ولا يمكن للخطأ أن يوصف بـأنه تـطور ، ولا يمكن أن يكون أرقى من أي شيء آخـر (وهـذا الشيء الآخـر لا بـد وأنـه عـاش قبله بمـوجب التطور) . وكذلك لا يمكن قبول ان الخطأ انتج الصحيح (فيما لـو قيل ان هـذا القانون الأساسي تطور مما هو أدنى منه) واذا كان مبـدأ عدم التنـاقض خطأ فـان التطور سوف لن يكون له أي معنى لأن انتاج الخطأ هو الرجوع الى الوراء وليس الى الامام . في جميع الحالات نستنتج انه ليس هناك عملية تطور نحـو الأرقى ، واذن لا بد وان هناك تفسيراً آخر لحل التناقض .

ان مبدأ عدم التناقض قانون مهم جداً وهو الذي أوصـل الانسان الى مـا

لديه من معرفة ويجب قبوله ، وبموجبه نستنتج انه ليس هناك تطور . أما اذا رفضناه فيجب أن نرفض جميع أنواع المعرفة التي اعتمدت عليه . وفي هذه الحالة لا يمكن حتى التكلم عن نظرية التطور أو غيرها لأن نظرية المعرفة سوف تنهار بأكملها .

الصراع من أجل البقاء :

عندما قررت الخلية ارساء مبدأ الصراع من أجل البقاء كان هناك احتمالان . أما ان يؤدي هذا الصراع الى انهاء الحياة وفنائها ، أو يؤدي الى الحفاظ عليها . وكان بالامكان أن يؤدي هذا الصراع الى فناء الحياة . أي ان الكائن الحي (أو المادة) اختار هذا الطريق بالرغم من احتمال الفناء . وذلك معناه ان الكائن الحي قرر الدخول في مغامرة كان من الممكن أن تؤدي به الى الفناء . وبديهي ان هذا ليس أسلم الطرق للوصول الى الغاية المنشودة من عملية ايجاد الحياة وانبثاقها أو الحفاظ عليها . بل ان في هذا الطريق خطورة كبيرة جداً . فالكائن الحي سلك طريقاً ليس صحيحاً ولكن محفوفاً بالمخاطر . وهذا يناقض مبدأ السير في طريق التطور نحو الأرقى .

واذا كان الكائن الحي على علم مسبق بأن العملية سوف تؤدي الى البقاء وليس الفناء ، فان ذلك ليس فقط عملاً واعياً وإنما يصحبه علم غيبي سابق للحوادث .

ولكن ، وتمشياً مع نظرية التطور والبقاء ، كان الأجدر أن يسود قانون التآخي للحفاظ على الحياة وليس قتل القوي للضعيف وسيادة القوي . لأن هذا الضعيف ربما ليس ضعيفاً ولكنه ضعيف بالنسبة للقوي وهذا لا يعني انه لا يحمل القوة في تركيبه ، كما ان ذلك لا يعني انه لا يستطيع انجاب النسل القوي القادر على خوض تجربة الحياة . وليس غريبا أن نرى أبوين ضعيفين أو قصيرين ينجبان نسلاً قوياً أو طويلاً . كما ان القصير قد يكون أكثر ذكاءاً من الطويل ،

وبـذلك فـانه أصلح للبقـاء . وهذا يبـين زيف ادعاء النـازية ، و (دارون) من قبلهم .

ونذكر هنا سوء الفهم عند بعض الناس عن ظاهرة انتاج بعض الكائنـات الحيـة لاعداد كبيـرة من النسل تفـوق متطلبـات البقـاء . وقـد رأينـا سـابقـاً ان (رسل) يقول[1] (ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبـل الوصـول الى العمر الـذي يسمح لـه أن يترك نسلاً . فـانثى سمكة القُدْ تضع حـوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنـة . فـاذا وصل كـل النسل الى البلوغ وأنتـج سمك قُد آخر ، فـان البحر سيصبـح صلداً خلال بضعة سنين ، بينها ستتغطى اليابسـة بطوفـان جديـد . . . . ولكننا نـرى ، في الحقيقة ، ان أجنـاس النبـاتـات والحيـوانـات ، وكقـانـون ، ثـابتـة تقريباً . . . . ولذا يوجـد ضمن كل جنس ، وبـين الأجناس المختلفـة ، تنافس مستمـر ، وفيـه تكـون عقـوبـة الهـزيمـة هي المـوت) . ونحن لا نفهم كيف تم التوصل الى هذا الاستنتاج من الملاحظات التي سردها (رسل) ، فهو يشير أولاً الى أن أكثر السمك يموت قبل البلوغ لانه يؤكل بواسطة الأسماك الأخرى عندما يكـون صغير جداً أو لا زال بيضاً . ونحن لا نرى أين التنافس ، فليس هناك تنافس على الاطلاق . لأن بيضاً لسمك كبير قد يؤكل بواسطة سمـك صغـير ، فأين يكون استنتاج (رسل) ؟ ونحن نستطيع القول بكل ثقة ، وكما يتفق معنـا كثـير من الناس ، أن معـظم هذه الأسمـاك الصغيـرة والبيـوض ، لـو لم تؤكـل لكبـرت الى أسماك لا تختلف أي اختـلاف عن تلك التي يحالفهـا الحظ في البقاء (لأنها لا تؤكـل) . ونفس الشيء يمكن قولـه عن شجرة الـزيتون (عـلى سبيـل المثال) التي تنتج ملايين الزيتون خلال فترة حياتها ، والتي تستطيع أن تملأ الكرة الأرضية بأشجـار الزيتـون خلال بضعـة سنين . فهـل أن شجرة الـزيتون تنتـج

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

الزيتون فقط للتنافس مع الأجناس الأخرى ؟ أم أنها تنتجه كغذاء للآخرين ؟ وماذا عن أجناس النحل التي تعتمد على نحلة واحدة ، وهي الملكة ، للانتاج ، واذا ماتت هذه الملكة فان المملكة بأكملها تنقرض ؟ ان هذه المسألة ، في الواقع ، وضعت التطوريين في نهاية مسدودة . (بليبترو) يستنتج ان[1] (وضع الجنس بأكمله في وضعية حرجة وغير ملائمة كهذه في التنافس مع الأجناس الأخرى ، فان واقع أو أهمية احتمال ظاهرة كهذه ليسا مفهومين بوضوح) . انهما ليسا واضحين بالنسبة للتطوريين ولكن ليس بالنسبة لغيرهم . وهذا ، وبمعية التصريح القائل ان اعداد الأجناس ثابتة ، والذي معناه انها في توازن ، يقودنا الى القول أن جميع الأجناس تزود بعضها بعضاً بالغذاء وبنفس الوقت تحافظ على التوازن . أي ان الكائنات الحية يتغذى بعضها على بعض وهي الطريقة الوحيدة لادامة الحياة والطبيعة . وبالنسبة للأجناس التي يكون نسلها في خطر (كالأسماك) ، لأن الأم لا توفر الحماية أو العناية لأطفالها ، فان الطريقة الوحيدة للحفاظ على الجنس من الانقراض هو وضع اعداد كبيرة من البيوض . والنبات يتغذىٰ على الأرض ، أما الحيوانات فانها تتغذىٰ على النباتات وعلى الحيوانات الأخرى . ولا يمكن تصور الكائنات الحية في الطبيعة بأجمعها ان تتغذىٰ على الأرض فقط ، لأنها اذا كانت كذلك فان الطبيعة ستكون غير الطبيعة التي نعرفها . والطبيعة نظام دقيق وعجيب ، وتبدو وكأنها كائن حي واحد ، وتعمل بنظام معقد كالكائن الحي الواحد ، حيث فيها كل نوع من الأجناس يمتلك دوره الثابت الذي يؤديه كما تؤدي أجزاء الكائن الحي الواحد أدوارها المرسومة والثابتة .

الحلقات المفقودة :

لو نظرنا الى الاختلافات بين اثنين من الكائنات الحية التي تأخذ الترتيب

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

على سلم التطور لوجدناها كثيرة ، وليست اختلافاً واحداً . وأحياناً فان الاختلافات أكثر من التشابه . وبما ان احدهما تطور من الآخر ، أو انهما تطوراً من نوع ثالث انقرض بعدئذ ، فالمتوقع أن يكون الختلاف في نقطة واحدة لأن كل اختلاف يمثل طفرة . ولكن اذا كان الاختلاف بين هذين الكائنين يمثل عشرة اختلافات على سبيل المثال ، فان ذلك معناه ان عشر طفرات قد حدثت وفي كل طفرة جيل جديد قد انقرض لأسباب لم تتطرق نظرية التطور اليها ، ولا تخبرنا الى أين ذهب هذا العدد الهائل من الأجيال ، ولماذا لا توجد آثارها . (ل . س . ب . ليكي) يوضح هذه المسألة بالقول[1] (وبدلاً من المفهوم الشائع لدى العلماء المشغولين بالبحث عن الحلقة المفقودة ، فان الحقيقة هي أن أطوالاً كاملة من السلسلة ما زالت مفقودة) . ومثال على ذلك ، الحصان والحمار اللذان ينتميان الى نفس الفصيلة ، فهناك اكثر من اختلاف واحد بينهما ، لذا فان الحلقة المفقودة بينهما ليست نوع واحد من الأجناس ، ولكن عدداً منها . الا أنه لا يوجد اثر لها لاي من هذه الأجناس.

أما اذا كانت هذه الطفرات كلها حدثت في آن واحد، كما يقترح بعض العلماء (وطبعاً هذه الطفرات حدثت بطريقة الصدفة بأجمعها) ، فان الوضع يصبح عسير التبرير على التطوريين وعسير البرهنة على وقوعه . وتطبيق نظرية الاحتمال يبين ان احتمال حدوث طفرات كهذه لكل نوع من أجناس الكائنات الحية، أي انه اذا افترضنا حدوث الطفرات المتعددة في وقت واحد لكل جنسين متتالين على سلم التطور على أنه مقبول واعتيادي (لأننا لا نجد الأجناس المفقودة التي تمثلها كل طفرة واحدة) ، فان قيمة الاحتمال ستتجه الى الصفر .

واذا كانت تلك الأجيال قد انقرضت فان ذلك معناه انها لا تصلح للبقاء . وهذا تناقض مع كونها أصلح من سابقتها التي لا زالت باقية بينما هي

(١) انظر المصدر ١٥، ص ١٥٨ .

انقرضت . لانه لو لم تكن سابقتها موجودة . فان ذلك معناه أن جميع الكائنات الحية يجب أن تكون منقرضة عدا الانسان (الذي هو النتاج الأخير) ، لأن الاحياء تطورت بعضها من بعض .

وقد يقول بعض العلماء ، كما رأينا في الفصل السادس ، ان الأصلح نسبياً هو الذي يبقى ، وليس الأصلح(*). وقد رأينا كيف أن رأياً كهذا لا يمكن قبوله لأن الأصلح بالتعريف يجب أن يكون مجهزاً بخصال اكثر تمكنه من البقاء . ومثال على ذلك الانسان والأسد . فالانسان بالتأكيد ، لا يستطيع أن يعيش في البراري كما يعيش الأسد . ومع ذلك فانه الأصلح للبقاء بسبب عقله ، بالرغم من أن الأسد أصلح نسبياً من الانسان للعيش في القفر . وبدلاً من العيش في البراري فان الانسان يتحاشىٰ الظروف غير الملائمة ويبقى .

ولا بد هنا من ذكر الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود التي يبحث عنها التطوريون منذ زمن (دارون) . حيث اعتقد العلماء ، ولفترة طويلة ، أن الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود مجرد كائن حي واحد . وكانوا متحمسين جداً للفكرة . الا أنهم وبعد وقت طويل وجهود مضنية اكتشفوا أن الحلقة المفقودة ليست كائناً حياً واحداً ، بل عدداً من الكائنات الحية . ولو كان احدهم قد انتبه الى الاختلافات بين الانسان والقرد ، وليس فقط التشابه ، لرأى ذلك وبكل بساطة .

والآن فانه من الواضح لكل فرد أن الاختلافات بين الانسان والقرود جلية في المظهر والهيكل العظمي والقابليات والعقل والنسل الخ . و(كلين ج . ستركلاند) يشير الى انه[1](ليس هناك جدال في انه توجد حوالي

(*) الاصلح نسبياً هو الذي يمتلك بعض الخصال الافضل ، اما الاصلح فهو الذي يمتلك كل الخصال الافضل .

(1) انظر المصدر ٣، ص ٢١ .

دزينتان(*) من الحلقات في سلسلة التطور بيننا وبين البروكونسول)(**). ويزعم التطوريون الآن أن هناك عدداً قليلاً من الكائنات الحية بيننا وبين القرود . ولكن في الواقع توجد بيننا وبين القرود اختلافات أكثر مما يتضمنها هذا الادعاء ، لأنه توجد اختلافات كثيرة بين كل اثنين من هذه الكائنات المزعومة . ونظرية التطور لا تستطيع تفسير أسباب عدم وجود أي أثر لهذه الأحياء ، ولا تذكرها أو تتطرق اليها . والنظرية تتحداها صعوبة حقيقية في هذه المسألة . وقد بينت الأدلة الحديثة أن النظرية بأكملها خاطئة . وهذه الأدلة الجديدة تشير الى ان الانسان ظهر فجأة على الأرض . وهي شيء أقرب الى الحقيقة التي يتقبلها العقل بموجب الاستعدادات الكامنة فيه .

سلطان الزمن والتطور :

للزمن سلطان مطلق على الحياة الجديدة في الخلية . فالخلية تحيا ثم تموت بعد فترة زمنية معينة . ولم تفسر نظرية التطور هذا السر المجهول الذي جعل للزمن هذه القدرة على افناء الحياة الجديدة المنشودة . فالخلية تكبر وتهرم وتموت وتنتهي وكأنها لم تكن ، لذا فانها تضع الحياة في المولود الجديد . ولكن لماذا ان العمر يجعل الكائن الحي غير قادر على الاستمرار بالحياة بينما يستطيع المولود الجديد أن يعيش لفترة أطول ؟ ان نظرية التطور لا تعطي تفسيراً مقنعاً . وهذه المسألة تصبح ذات أهمية اذا عرفنا أن نفس النوع من الأجناس يمر خلال أجيال عديدة ، تعيش ثم تموت ، قبل أن تحدث طفرة واحدة . وبعض هذه الأجناس تتكون من خلية واحدة. ولكن لماذا ان الشغل (أي الحياة) يُعجِّز الكائن الحي عن العيش بمرور الزمن ؟ ولماذا لم تتطور الخلية الاولى ، او الاحياء الاخرى ، لكي تستطيع مقاومة الزمن ؟ .

(*) الدزينة = اثنا عشر.

(**) يقصد القرود.

وطبعاً ان الخلية الام لا تُسَلِّم الحياة كلها للكائن الجديد لانها لا تموت حال انبثقاق النسل الجديد . ولكنها تعطيه حياة اخرى من نفس النوع الذي تحمله ، وفي الحقيقة أنها صورة كاملة من الحياة التي تحملها ، فالنسل الجديد يحصل على نسخة من حياة امه . أي يحدث استنساخ وليس انتقال للحياة ، لان كمية الحياة ونوعيتها لا ينقصان في الأم عند مجيء النسل الجديد ، والعملية ليست انتقال كامل للحياة من الخلية الأم الى النسل الجديد .

الحياة في الخلية الأم تفنى عند موت الام ، ولكن الحياة في النسل الجديد تبقى الى وقت آخر . ويبدو وكأن الزمن والحياة متناقضان أو عدوان ، فحالما تولد الحياة الجديدة يبدأ تأثير الزمن عليها لقتلها . وهذه الظاهرة الملفتة للانتباه ، بسرها المجهول ، شيء لم يلتفت اليه التطوريون ولم يبتّوا فيه .

ونرى أيضاً أن الحياة في هذه الخلية الجديدة (التي تمثل النسل الجديد) انبثقت الى الوجود من العدم(*)(لأن الحياة فيها استنساخ وليس انتقال) ، نراها ولدت مهزومة ومستسلمة لسلطان الزمن الذي يقتلها لا محال . فلم لم تتطور باتجاه مجابهة الزمن وليس الاستسلام له والهروب امامه والاندحار؟ ففي كل مرة تنجب الخلية نسلاً جديداً يولد هذا النسل مهزوماً أيضاً من قبل سلطان الزمن . واذا قلنا أن الكائن الحي يتطور دائماً ، فان ذلك معناه ان هذا الكائن يتطور بنفس الوقت الذي هو مهزوم فيه .

والسؤال هنا ، ما هو هذا العداء الذي يناصبه الزمن للحياة ؟ وما هو سره وسببه ؟ ولم لا يؤثر على المادة فيفنيها ولكنه يؤثر على الحياة فيفنيها ؟

لقد قطعت الخلية الحية شوطاً كبيراً في تطورها (بموجب نظرية التطور) وفي مقاومتها للظروف والبيئة حتى وصلت الى الانسان ، ولكنها تركت موضوع

(*) ليس هناك عدم بموجب تفسيرنا ، (انظر الفصل الثاني عشر) .

التطور لمقاومة الزمن واستسلمت له بشكل منقطع النظير ، فما هو السر في ذلك ؟ .

هناك تفسيران لهذه الظاهرة :

الأول ، ان الحياة استسلمت لسلطان الزمن الذي فرض وجوده على الكائن الحي ووضع نظاماً لقتله لسبب مجهول ، ولم تستطع المادة التي أوجدت الحياة أن تساعد تلك الحياة للتغلب على هذه المشكلة . عندئذ يجب أن يكون الزمن أرقى من المادة في سلم الوجود . ولكن الزمن يستمد وجوده من المادة لأن المادة عبارة عن طاقة متجمعة وتشع الضوء الذي هو طاقة ، والذي يعتمد عليه الزمن(**) . اي ان الزمن أرقى من المادة التي يستمد وجوده منها والتي يفنى بفنائها . وهنا نصل الى تناقض كما هو واضح ، اذ كيف يكون الزمن أرقى من المادة وبنفس الوقت يعتمد وجوده عليها ؟

الثاني ، ان المادة هي التي فرضت هذا القانون على الكائن الحي حال انبثاقه فجعلته متأثراً بالزمن وفرضت عليه الموت كما فرضت عليه الحياة . وفي هذا تناقض مع الغاية المنشودة في البقاء والتطور . ولحل هذا التناقض لا بد من وجود تفسير آخر لظاهرة الحياة غير التفسير الذي تزعمه نظرية التطور .

النوم والموت :

من المعلوم أن النوم فقدان للوعي وتقليل للحركة والفعاليات الحياتية الى الحد الادنى، والنزول بالحياة الى أدنى مستوى. ويبدو أن هذا نوع من الموت المؤقت ، وخسارة للوقت . وكان على الخلية الحية أن تتطور لمنعه لا للاحتياج اليه . وكان على الكائن الحي أن يتطور لاستغلال هذا الوقت الضائع للحياة والتكاثر والتطور ما دام انه ولد ليحيا لا ليموت . لماذا كان على الكائنات الحية

(**) انظر الفصل العاشر .

أن تتوقف عن الوعي (وبمعنى آخر عن العيش) الجزء لا يستهان به من عمرها؟ألم تستطع أن تتطور للتخلص من هذه الظاهرة التي هي بمثابة موت مؤقت ؟

الملاحظ ان فترة النوم طويلة جداً وتقارب نصف عمر الكائن الحي في معظم الأجناس الحية . والنوم ليس من الحياة في شيء لأن الكائن الحي غير فعال خلاله ، وبالأحرى فانه أقرب الى الانقراض لأن فقدان الوعي يجعل الكائن الحي فريسة سهلة لأعدائه . واذا كان الكائن الحي وُجِدَ ليبقى ، لماذا ينام لفترات طويلة من الزمن ؟ ألا يصح القول بانه وُجِدَ لينام (اي يموت) بدلاً من أنه وجد ليحيا طالما أن فترة النوم مساوية تقريباً ، أو أطول أحياناً من فترة اليقظة والوعي ؟ وفي هذه الحالة تصبح الحياة ناتجاً عرضياً ، وتنهار نظرية التطور حيث لا يصبح هناك موضوع لها .

أما مسألة الموت فانها سر غريب . فاذا كانت الخلية وُجِدَت لتبقى وتحيا فلم الموت ؟ واذا كانت الخلية قد وجدت لتسير بمسار يوصلها الى شاطيء السلامة والرقي لا بد وأن تكون الخطوات التي تسير فيها كلها تؤدي نحو هذا الغرض ، ونحن لا نرى كيف يكون الموت من هذه الخطوات لأنه الفناء، وهو بالضبط عكس الغاية المنشودة نحو التطور والرقي . فماذا حدث لتأخذ الخلية هذا الانعطاف الانتحاري الذي يقوّض كل الغايات والجهود المُستَثمَرة في سبيلها ؟ ويا ترى لماذا سمحت المادة بهذا الانهيار الكامل والتحول العكسي عن الغاية ؟

التوازن في الطبيعة :

الكائنات الحية متوازنة في الطبيعة بطريقة دقيقة ومحكمة بحيث لو أن نوعاً واحداً اختفى لاختل التوازن ولأدى ذلك الى الاخلال بعملية التطور والحياة بطريقة أو بأخرى . وعلى سبيل المثال ، أما ان تموت بعض الأجناس لأنها تتغذىٰ على النوع الذي اختفى ، أو ان أجناساً أخرى ستتكاثر وتطغى لأن

الجنس الذي كان يتغذىٰ عليها اختفى . وظاهرة كهـذه سوف تسبب سلسلة من التغيرات التي قد تولد وضعـاً جديـداً متوازنـاً ، وقد يكـون التغير الكـلي فيه الى الدرجة التي تنتج جنساً مهيمناً جديداً .

ان الكائنات الحية تبدوا في توازن عجيب جعلها كما هي عليه . وأكثر من ذلك انها تمتلك وسائل الدفاع عن نفسها على شكل تكيّف وما شابـه بحيث انها دائماً تحاول الحفـاظ على أجنـاسها من الانقـراض . وعلى أي حـال ، فان بعض الكـائنـات مـوجـودة منـذ مـلايـين السنـين بينـما انقـرض بعضهـا . وقـد بينت الاكتشـافات الجيـولوجيـة ان الأجناس التي انقـرضت لم تختـفِ من نفسها ولكن كانت هناك عـوامل خـارجية مسؤولـة عـن فنائهـا . والسؤال هنا : هـل ان هذا التوازن صدفة أيضاً ؟ هل أنه حظ ؟ أم أن هناك صانعاً يعين الأدوار لكل جنس من الأجنـاس للحفاظ عـلى هذا التـوازن كما هـو ، او أن هذه الأجنـاس تتطور باسلوب محدد سلفـاً للحفاظ عـلى التوازن الصحيـح والظروف المـلائمة للكـائن الحي المهم الوحيد لكي يتطور الى أرقى مستوى ، وهو الانسان ؟

وقـد يخطر عـلى البال انـه بالنسبـة للطبيعة ، أو المـادة لكي تعبّد الـطريق لـلانسان لكي يتـطور الى شيء أرقى معناه ان المـادة سخـرت كـل شيء لخـدمـة الانسـان لكي تمضي عملية التـطور الى الامـام . ويتضـح ، اذا كـانت الحـالـة كـذلك ، ان هنـاك اهتمامـاً واعياً بـالانسان بـاعتباره الغـاية المنشـودة أو الحلقة الحاضرة نحو الغاية المنشودة . ويتضح كذلك أن المادة طـورت وهيأت الـظروف لخدمة كـائن حي واحد ، بـدلاً من تطويـر كل ، أو بعض ، الأجنـاس الأخرى للاحتياط ، فـاذا لم يكتب النجاح لاحـداها فـان الأخرى سـوف تمضي بالأمـانة وتحملها .

وقد تقودنا ملاحظة التعقيد الـذي تطورت اليـه الكائنـات الحية ، سـواءاً بايولوجياً او اجتماعياً ، وكيف أن الحفاظ على الحيـاة مهم (حيث في الواقـع أن

فعاليات الكائن الحي متمركزة كلياً تقريباً على تحاشي الموت والحفاظ على الحياة) الى التساؤول عن السبب الذي جعل المادة تركز على كائن حي واحد . أم أنها كانت تعلم مسبقاً أن هذا الكائن سوف لن ينقرض !!

اذا كانت الكائنات الحية قد تطورت عشوائياً بدافع من ذاتها ، لماذا اذن وصل احدها فقط الى المستوى الاعلى (الانسان) ؟ أليس المفروض أن نرى أجناساً أخرى متطورة أيضاً كما تطور الانسان ، خاصة وانها تعيش في نفس بيئة وظروف الانسان ، أو بيئة وظروف مشابهة لها ، وليس هناك ما يمنعها من أن تفعل ما فعله الانسان ، ولكن ربما بطريقتها الخاصة ؟ فليس هناك ما يدل على أن الظروف كانت ملائمة للانسان فقط لكي يتطور . كما انه ليس هناك ما يبرر تطور الانسان وحده الى هذا المستوى المتقدم ، وليس هناك أيضاً ما يشير الى أن الانسان أوقف الاحياء الاخرى من التطور أو اعاق تطورها بشكل من الأشكال .

وراثة العلم والمعرفة :

ان العقل الواعي هو أعلى مستوى على سلم التطور . ويحتوي هذا العقل ، وبواسطة الاكتساب ، على معلومات كثيرة تسهل للانسان حياته الاجتماعية وطريقة معيشته وتعطيه أسباب الصحة والراحة . وقد تخطر على البال فكرة هي أنّ وراثة النسل الجديد لهذه المعرفة من الأم شيء جيد ومفيد . وبالتأكيد فانه يساهم كثيراً في دفع عملية التطور الى الامام وخدمة الانسانية . فلو تصورنا أن علم (نيوتن) او (اينشتاين) أو غيرهما من العلماء والفلاسفة والمفكرين تُورَث بواسطة ابنائهم ، كم كانت ستساهم في تقدم الانسان في الاتجاهات العلمية والفكرية المختلفة ؟ ولو كانت الحالة كذلك لكان عالمنا يختلف عن العالم الذي نعيشه الآن كلياً ، ولربما كنا قد وصلنا الى غزو الفضاء بصورة اكبر لفائدة الانسان الآن .

ان طفل الانسان يولد مع المعلومات الأساسية الغريزية فقط ، وفي كل مرة يقوم الانسان بتربية الطفل الصغير وتعليمه كل شيء . وفي ذلك ، وكما نشاهد ، خطورة كبيرة . حيث يتربى الأطفال وتتم برمجة عقولهم على أفكار متناقضة من معتقد لآخر ، أو من دولة لأخرى ، مما يسهل استعمالهم في الحروب والدمار ، بدلاً من أن يرثوا العلوم بصورة غريزية . ولو كان الانسان يرث العلوم كما يرث الغرائز لما تحولوا الى مجتمعات متحاربة ، بل لكانت النتيجة ، وبموجب نظرية التطور ، أن يتكون مجتمع انساني واحد كبير يسير نحو الغاية التطويرية المنشودة . ولقام النسل الجديد بطفرات جديدة في التطوير والاسراع في هذه العملية في كل مرة حيث يضيف معلومات جديدة الى المعلومات الموروثة ، بدلاً من أن يقضي حياته لتعلم ما انتج آباؤه وتبذير الوقت والجهد ، لانتاج القليل في النهاية . ولما كان العقل الواعي عند الانسان يستطيع ادراك هذه الحقيقة ، ألم يكن الأجدر به أن يسلك هذا السلوك تلقائياً كجزء من العملية التطويرية التي أنتجته ؟ فلماذا لم يسلك هذا السلوك اذا كان هناك تطور واذا كان هو نتاج لهذا التطور ، حيث عليه حمل الأمانة واعطاؤها الى الحلقة التي تليه في السلم كما فعل أسلافه من قبل والذين ادّوا الأمانة بكل اخلاص الى أن تم انتاجه ؟

وثمة مسألة اخرى تلك ان الانسان (والحيوان أيضاً) يرث العلوم والمعارف الغريزية ، ولكنه لا يرث العلوم والمعارف المكتسبة . وهذه العلوم المكتسبة انما سميت مكتسبة لأنه لا يرثها ، ونحن نرى انه اذا كان هناك تطور لكان سار في طريق تمكين الانسان من وراثة هذه العلوم أيضاً . ولا نرى من مانع في ذلك ، طالما أنه يرث المعارف الأخرى التي نسميها غريزية . بل بالعكس ان ذلك يسير بالضبط نحو الغاية المنشودة وفي طريق التطور . ولكن لم يحصل شيء من ذلك . وقد نتساءل لماذا ان المادة ، أو الحياة ، أو عملية التطور ، غفلت عن هذه الميزة المفيدة ؟

استنتاج :

نظرنا في هذا الفصل الى بعض المواضيع التي تخص الكائن الحي ، مثل غاية التطور وفكرة الصراع من أجل البقاء ، والنوم والموت ، وغيرها من الظواهر . فوصلنا الى النتائج التالية :

ـ ان نظرية التطور لا تستطيع تفسير هذه الظواهر تفسيراً مقبولاً ومعقولاً .

ـ ليست هناك أي فائدة ايجابية حصلت عليها المادة من عملية التطور ، ووجدنا ان المادة لم تكتسب شيئاً من هذه العملية بل أن الشيء الوحيد هو أنها استُعبِدَت .

ـ ان مفهوم الصراع من أجل البقاء يناقض نفسه بنفسه ولا يمكن قبوله من وجهة النظر الفلسفية .

ـ ان مفهوم التطور نفسه يحمل نقيضه فيه ويناقض بديهيات العقل الأساسية ولذا لا يمكن قبوله كمفهوم لتفسير ظاهرة الحياة العجيبة .

الفصل الثامن

الانسان والتطور :

لقد اعتقد (دارون) ان الانسان تطور تدريجياً كما تطورت الحيوانات الأخرى . وظهرت عدة نظريات زعمت أن أسلافنا كانوا كالقردة . وقادت نظرية التطور كثيراً من العلماء الى الاعتقاد بأن الانسان ليس سوى حيواناً آخر من فصيلة القرود العليا ، ولكنه اكثر تطوراً منها . وظهرت تعابير مثل « الانسان حيوان ناطق » نتيجة لذلك . ولكن الأدلة الحديثة بينت أن هذه الأفكار كانت قد طرحت على عجل نوعاً ما وبدون تروٍ .

وكان الاعتقاد بحيوانية الانسان مسألة لا جدال فيها بالنسبة لبعض الناس . (ديزموند موريس) يقول انه [1]لمن الواضح انه قرد من نوع ما ، ولكنه من نوع غريب . . . . . فمجموعة القرود التي ينتمي اليها قردنا العاري[*]ظهرت في الأصل من خزين اللبائن التي كانت من نوع آكلات

---

(١) انظر المصدر ١١، ١٥ ـ ١٦ .

(*) يقصد الانسان لانه ليس على جسمه شعر كثيف كبقية القرود .

الحشرات البدائية . وهذه اللبائن الاولى كانت مخلوقات صغيرة وغير مهمة وتتقفز بعصبية في أمان الغابات. . . . وفي الزمن الغابر قبل ما بين خمس وعشرين الى ثلاثين مليون سنة ، كانت الحيوانات ما قبل القرود قد بدأت تتطور الى القرود الفعلية . . . . وبمرور الزمن أصبحت هذه الشبه ـ قرود اكبر وأضخم . وبدلاً من الركض والتقفز المرح فانها تبدلت الى المشي باستقامة ، هازة يداً فوق يد على طول جانبيها ، وقد انقرضت أذيالها) . يا لها من قصة أشبه بقصص الأطفال . فالى هذا الحد وصل بعض الناس في خيالهم بدون أي أدلة علمية تسند تصوراته هذه . ويؤكد (ديزموند موريس) مرة اخرى على حيوانية الانسان ، وان طريقة معيشتنا جاءت خلال التغيرات البيولوجية وليس الثقافية ، فيقول (⁽¹⁾غاية ما يحتاجه الفرد لكي يرى انها هكذا(**)هو النظر الى سلوك جنسنا في الوقت الحاضر . والتطور الثقافي اعطانا تقدماً تكنولوجياً مدهشاً أكثر فاكثر ، ولكن كلما تعارض هذا مع خصائصنا البيولوجية الأساسية فانه يلاقي مقاومة قوية . ونحن نحني رؤوسنا بتكرار أمام طبيعتنا الحيوانية ، وضمنياً نعترف بوجود وحش معقد يضطرب في داخلنا) . وبطبيعة الحال فاننا لا نتفق مع هذه الملاحظات كلياً ، ونعتقد بوجود تفسير آخر لها . وهي تحدث في المجتمعات الأوربية ولكن لا تحدث في المجتمعات غير الأوربية كلها ، وهي تخص غرائز الانسان فقط . و (ستبنز) يؤكد ان (⁽²⁾ مقارنات حديثة تم اجراؤها بين التراكيب الكيميائية لبروتينات الانسان . . . . والبروتينات المناظرة لها في القرود . وهذه المقارنات بينت ان الانسان والشمبانزي والغول تحمل تشابهاً قريباً من بعضها بعضاً بالنسبة لهذه المواد الكيميائية الأساسية للجسم . . . . وهذه الأدلة تسند بقوة النظرية القائلة انه في مرحلة ما من

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(**) اي حيوانية .

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

تطورهم كان اسلاف الانسان حيوانات تشبه القرود . . . . وهذه النظرية توافق تماماً أدلة المتحجرات الحديثة) . وهكذا فان العلماء يصنعون نظريات عملاقة كهذه ، بالرغم من قلة أدلة المتحجرات ، فقط لكي يقوم البرهان على خطئها بعد وقت قصير . و (ستر كلاند) يقول ([1]ولكن نِتَف[*]الحقائق في حقل علم طبائع البشر وحدها من التفاهة بمكان بحيث لا يمكن جمعها لاعطاء أي فكرة عن الصورة الكبيرة مهما دورنا هذه النِتَف أو مططناها) و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى أنه ([2]توجد مدرسة فكرية واحدة تعتقد أن الانسان ، وخلال مسار تطوره ، مر خلال مرحلة كانت فيها أيديه طويلة ، كتلك التي تلاحظ في الشمبانزي والغول ، ولكن الأدلة التي تسند هذا الرأي بدأت بالانهيار) .

الأدلة الحديثة الآن تبين أن التطور التدريجي لم يحدث ابداً . فالأنواع تظهر على شكل سلالات كاملة وليس ككائنات حية منفردة تتطور ، وأسلافنا لم يكونوا قردة أو ما شابه ذلك . ولم يستطع العلماء أن يجدوا أي أدلة تسند الرأي القائل أنهم كانوا قردة . وقد ذكرنا سابقاً (ان (رُوث مُور) تعترف ان ([3] كل واحد من هذه المجموعات (اي مجموعات الأجناس) تختلف عن جميع بقية المجموعات . وتوجد لا استمرارية ، أو فجوة ، بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول ([4]من ناحية الانسان الحديث، فان تغيرات جذرية كهذه تفتح الطريق أمام نظريات أخرى لأصل الانسان ، ضمن اطار التطور أو غيره . . . والتخلليون[**]يقولون ان الانتخاب الطبيعي لا يلعب أي

(١) انظر المصدر ٣، ص ٩ .

(*) جمع نِتفة ومعناها الشيء القليل .

(٢) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .

(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ و١٥٠ .

(**) قسم من العلماء الذين يقولون ان التطور يتكون من ظهور الاجناس الذي تتخلله فترات طويلة بلا تطور .

دور في أصل الأنواع ولكنه يدخل في مرحلة لاحقة للتأثير على نجاحها البيئي . وبكلمة أخرى فان ضغط المحيط ينتخب جنساً بأكمله لكي يموت أو ينتعش ، وليس كائنات حية منفردة كما أكد « داروين » . وفي هذا الرأي ، فان الانتخاب الطبيعي للأفراد يُنظَر اليه على انه يسبب تغيرات تطورية صغيرة فقط ضمن الجنس « تطورات مجهرية » ، وليس التغيرات الكلية التي تسبب بروز جنس جديد «تطورات عملاقة» .

وفي الوقت الحاضر فان على العلماء أن يتعاملوا مع مشكلات أخرى لنظرية التطور كانوا قد ورثوها من سابقيهم . (كلين ج . ستركلاند) يعترف (1)بأننا اليوم لسنا متقدمين كثيراً . فنحن عندنا أسلاف شبه ـ قرود في جانب واحد من الفجوة وعندنا أنفسنا في الجانب الآخر . وهذه الفجوة مقدارها عشرون مليون سنة) . و (بيجورن كرتن) يشير الى ان (2) بقايا الكائنات التي شبه الانسان ـ القرد قليلة ، وبصورة عامة فانها متأخرة أيضاً من ناحية الزمن الجيولوجي) . وبسبب هذه الحالة من ندرة أدلة المتحجرات ، وبسبب ايمان العلماء بتطور الانسان من القرود فقد ظهرت نظريات عديدة ، ثم تبين أنها كانت كلها خاطئة . وقد بينت أدلة المتحجرات أن الانسان الحديث ظهر على الأرض منذ ما يقارب الـ ٣٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠٠ سنة فقط. وقد شكل ذلك مشكلة حقيقية بالنسبة للتطوريين ، ولذا فقد غير كثير منهم آراءهم . و (رُوث) تشير الى أنه (3)حتى في المراحل الاولى فان الطريقة الجديدة في اختبار التاريخ «بواسطة الكاربون ١٤ او الاشعاع الكاربوني» اشارت أيضاً الى

---

(١) انظر المصدر ٣، ص ٨ .

(٢) انظر المصدر ١٢، ص ٤ .

(*) الأدلة الحديثة جداً تبين أن الانسان موجود على الأرض لفترة اكثر من ذلك (حوالي ١٥٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ سنة) .

(٣) انظر المصدر ١، ص ٨ .

أن الانسان أحدث مما تجرّأ العلم على أن يتصوره . . . . وقد أشارت التجارب الفذة ان الانسان قد يكون تغير بسرعة اكبر مما اعتقد دارون) . ومن ثم فانها تعطي صورة التطور بوضوح كما يلي : ([1]اذا كان الانسان موجوداً لفترة قصيرة ، فهل كان باستطاعته أن يتغير بالمقدار الكبير الذي تبينه المتحجرات ؟ هذا السؤال أساسي ، وفي النهاية فان نظرية التطور أما أن تقف او تنهار بالاجابة عليه . فأما أن يكون التطور ممكناً في الوقت الذي استغرقه ، أو انه مستحيل) . و (بيجون كورتن) يجيب على سؤال كهذا بالقول ([2]ان ظهور الانسان الحديث في أوربا قبل حوالي ٣٥٠٠٠ سنة كان فجائياً ، وليس هناك انتقال معروف من انسان النياندرتال الى أولئك الذين هم أناس حديثو ـ الهيئة) . ولذا يتضح أنه ليس هناك تطور . و (ستركلاند) يؤكد أنه ([3]بسبب الطريقة التي يعمل بها التطور فان تطور جنسنا بالمقدار الذي تطورناه عبارة عن قضية مستحيلة من الناحية الجسمية اذا كان خط أسلافنا المباشر قد عاش في ظروف اعتيادية . وهذه الحقيقة يجب أن تكون قضية لا جدال فيها ، وان رفض قبول هذه الحقيقة كان سبب التشويش الكثير الذي اكتنف عصورنا التي ما قبل التاريخ) . و (مُور) تستشهد بالدكتور (شيروود ل. واشبورن) بالقول ([4]ان هذا الوضع الجديد قد أطلق عليه اسم التفاهة الرياضية والاحصائية . لانه اذا كان كل واحد من الاختلافات بيننا وبين الانسان ـ القرد مبنية على أساس عنصر منفصل من التركيب الجيني للفرد فانه في الواقع سيكون من المستحيل تغيير الانسان ـ القرد الى الانسان الحديث في الزمن الذي تشير اليه السجلات الفعلية) . ومع طرح هذا النص ، وليس لسبب علمي ولكن لمجرد

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٩ .
(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢١ .
(٣) انظر المصدر ٣ ، ص ٢٢ .
(٤) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

الايمان بالتطور ، فان (مُور) ، وكباقي العلماء ، تتمسك باعتقادها بانه كان باستطاعة الانسان ان يتطور خلال ٤٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ سنة فقط ، والذي هو وقت قصير جداً في الواقع ، فتقول [١](اذا كانت هناك فعلاً تغيرات جينية قليلة ضرورية ، واذا كان التطور قد تحرك بسرعة احياناً ، فان التقدم من الانسان ـ القرد الى الانسان ليس غريباً أن يكون قد وقع خلال مليون سنة ، وليس غريباً أن تكون الترتيبات النهائية قد حصلت خلال الخمسين الف سنة الماضية) . ولكن المشكلة هي أن التغيرات الجينية ليست قليلة ، فالفروق بين القرود والانسان فروق أساسية وجذرية . ولكن مع ذلك فان العلماء يؤمنون بالتطور ، لأنه بدون التطور فانهم سيقفون في نهاية مسدودة . ولذا فان الأمور يجب تبريرها ، ولكن سواءاً كان هذا التبرير صحيحاً أم خطأ فانها مسألة أخرى . و(مور) تقول [٢](ولذان فان واشبورن اقترح طريقة للخروج من مأزق الزمن . فتغيرات جينية قليلة نسبياً مع الانتخاب الطبيعي بامكانها تحويل الانسان القرد ذي الخطوات الحرة والدماغ الصغير ، الى أناس اليوم الحُرّي الخطوات أيضاً ولكن بأدمغة أكبر . وبهذه الطريقة كان انجاز التطور خلال فترة أقل مما يسمح به الحساب الجديد للزمن ممكناً) . وبطبيعة الحال فانها ليست متأكدة من ان التطور قد حصل فعلاً . ولا يمكنها أن تكون متأكدة على أي حال . والمسألة ليست مسألة دماغ كبير فقط ، لانها ليست مسألة أكوام من الخلايا الحية . فالفيل أضخم من الانسان ولكن مع ذلك فان الانسان اكثر تطوراً من الفيل . ان المسألة هي مسألة القابلية ، ومسألة العقل كعضو فعال ، وليس كمية أكثر أو أقل من اللحم . وكما سنرى قريباً ، فان (كودمان) يلفت الانتباه الى أن الذي يصنع الانسان ليس حجم الدماغ ولكنها القابليات العقلية .

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

و (كورتين) يجلب الانتباه الى حقيقة معاكسة لـرأي (مُور) . فهـو يقول ([1]في تلك الحالة يجب أن يكون الانسان القديم شبيهاً بالقرود أكـثر فأكـثر عند رجوعنا بالزمن الى الوراء . ولكن لدهشتنا انه لم يكن كذلك . وفي الحقيقـة فان مصـطلح « الانسان ـ القـرد » خادع لتصـوراتنا عن الانسـان القديم . . . . وفي الواقع نحن نشك بأن هيئة أسلافنا كانت عـلى شكل مـا يطلق عليـه القرد عـلى الاطلاق . . . . وأمامنا الخطوط العريضة لمشكلة رئيسية . ففي كل مكان تقريباً نجـد انسان النيـاندرتـال والانسـان القـديم كـلاهمـا استُبـدلا فجـأة بـالانسـان الحديث . والأكثر من ذلك ، فان هؤلاء الغـزاة الجدد يمتلكـون خصلات نـوعية مختلفة ، والتي لا بد وأنها استغرقت وقتاً ليس بـالقصير لكي تتـطور . ولكن اين بدأ أصل الانسان الحديث ؟) . وتعترف (رُوث مُور) انه ([2]على ضـوء الفهم الجديد هذا ، فان كثيراً مما كان يُدرَّس عن زمن الانسـان وتطوره يجب أن يتغـير الآن . فالكتب الجديدة يجب أن تكتب والمناهـج الدراسيـة يجب أن تراجـع) . ومـرة أخرى تنهـار نظريـة التطور . ولـذا فقد ظهـرت نظريـات جديـدة بينها تم التخلي عن النظريات القديمـة . و (ليكي) يقول ([3]انني شخصياً، بالاشتـراك مع الكثير من الآخـرين ، لدي اعتقـاد قوي ان الانسـان ربما تـطور مباشـرة من كائن ذي أربع سيقان الى كائن ذي ساقين بدون تطوير ايدي اضافية طويلة) . ولكـن (كورتن) لا يتفق مع ذلك ، فهو يقول ([4]احدى النظريات تقتـرح ان الانسـان الحديث تـطور محلياً من انسـان النيانـدرتال في الشمـال ، ومن انسـان السولو وتل ـ بروكن في الشمال. وقد يمكن وضع نظرية لذلك ، ولكنني لا اجد

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٤ و١٢٧ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٧ .

(*) يقصد الانسان الذي غزا سهول الأرض .

(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(٤) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢٧ .

بُدّاً من الاعتراف بأنني لا أرى ذلك مقنعاً . فالتغير كبير جداً والزمن قصير جداً وليس هناك ما يشبهه في الأزمان الغابرة أو في ترتيب سلالات التطور) .

لقد وقع العلماء بأخطاء جمة بسبب اسراعهم في طرح نظرياتهم التي تبيَّن مرة اخرى ، وأخرى ، انها خاطئة . وقد اخطأوا حتى في التعرف على المتحجرات . و (واشبورن) يذكر ان انسان النياندرتال نفسه قد لا يكون سوى غولاً أو قرداً . و (مُور) تذكر ان الدكتور واشبورن بنىٰ مخيمه في منطقة القرود لدراسة العضلات والعظام في القرود ، فوجد أن ([1]بعض الجماجم محدَّدة بحافات عظيمة عبر الجبهة ، وهذه كانت حافات عظيمة حول العيون ، وأنف عريض ومسطح جداً . ولكن بعضها كان يمتلك منحنياً ناعماً . « ولو ان هذه الجماجم كانت قد وجدت كمتحجرات »، يقول واشبورن ، « لكانت مغرية للفرد لان يسمي الأولى رجل بكين ـ القرد والثانية انسان حديث . ولكنهما في الواقع كانتا من نفس الجنس وعاشتا في نفس الوقت تماماً) . و (ليكي) يقول ([2]لو نفحص ونقارن عدداً من الجماجم التي تعود الى بعض أجناس الانسان الحية المعروفة أكثر من غيرها فاننا سوف نندهش في الحال للاختلافات العظيمة بينها ، سواءاً نظرنا اليها من الجوانب أو من الامام أو من الاعلى . ويمكن ملاحظة ان حُجْرة الدماغ أو القحف تتغير تغيراً معتَبَراً بين أمثلة نموذجية من جنسين مختلفين ، بينما يوجد اختلاف بدرجة أقل بين جماجم الأفراد الذين ينتمون الى نفس الجنس الواحد) . و (كرتن) يؤكد على ان ([3]الانسان لم يرتقِ من القرود) . وكذلك يقول (كودمان) ([4]يوجد تداخل معتبر في المدى الجمجمي بينَ انسان النياندرتال والانسان الحديث وفي الحقيقة بعض أدمغة

---

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٩ .
(٢) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٦٣ .
(٣) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٥٩ .
(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

النيـاندرتـال كانت أكبـر من دماغ الانسـان الحديث . . . . والقفـزة النـوعيـة في قابليات الانسان الحديث بالمقارنـة مع انسـان النيانـدرتال تبـين ان الشيء الذي يصنع الانسان ليس فقط حجم الـدماغ ولكنـه تركيب الـدماغ . ونحن نـرى ، وبتكرار ، ان حجم الدمـاغ والذكـاء لا يرتبـطان بالضـرورة ، فها هم مفكـرونا الـعـظام يـأتـون مـن كـلا الـطرفـين لـمدى الحـجـم الجمجمي ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سم). و(كـرتن) يـذكـر أن ([١]) المنـظمـين الزيولوجيين اصبحوا الآن واعين تماماً وحـذرين من زيادة تعقيـد قائمـة مجموعـة المصطلحات الرسمية بأسماء جـديدة عـلى أساس غـير كاف) . والجمـاجم التي كان يُعتقد أنها تطورت بعضها من بعض تبـين أنها عاشت خـلال نفس الفترة ، ولذا كان هناك كثير من التناقض والغموض حول أصل الانسان ، وقد وضعت النـظريات ، وتلتهـا أخرى ، بنـوع من العجـل اليـائس ، أو بنـوع من الخيـال الضارب لبعض الناس حيث أصبح التطور نوعاً من الموضّة ومن لا يعتقد به فهو ليس مثقفاً أو علمياً ، فالاعتقاد بالله والخليقة أصبح دليل التأخر . وبـالرغم من أن العلماء صوروا لنا العلاقة بين القرود والانسان على أنها حقيقـة ، فان الـواقع كان دائماً يشـير الى انه لم يكن أحـد من اولئك العلماء متـأكداً من مـزاعمه ، ولم يكن أحد منهم يعرف الجواب . ولم يكن الموضـوع سوى اعتقـاد غير مبني عـلى العلم . ولم يفعل العلماء سوى عـرض اعتقاداتهم علينـا بطريقـة خادعـة ومملوءة بـالغش ، فقد بينت أحـدث الأدلة ان الانسـان ظهر فجـأة عـلى الأرض ، وان الانسان القديم الذي كانوا يعتقدونه قرداً لم يكن سوى انساناً آخر لا يقـل ذكاءاً عن الانسان الحديث ، وقـد عاش في مجتمعـات تشبه مجتمعـاتنا ، وقـد استعمل الرياضيات وعلم الفلك وحياكـة الأقمشة وغيـرها . أي انـه لم تكن هناك قـرود تشبـه الانسان ، او انسـاناً يشبـه القرد كـما زعموا. وقـد عاش الانسـان القـديم وانقرض قبل ظهـورنا عـلى الأرض بزمن طـويل . وهـذه الاكتشافـات الجديـدة

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٦ .

جعلت بعض العلماء يغيروا آراءهم في بعض المزاعم التي كانت مقبولة لفترة طويلة (أو ما كان يعتقد أنها حقائق) ، وظهرت نظريات جديدة لتفسير أصل الانسان بعيداً عن التطور ، مثل نظرية التدخل الخارجي . فلم يحصل تطور للانسان ولم يجدوا له أدلة . ولذا فان هذا العصر هو عصر الحيرة بالنسبة لعلماء التطور . وقد تكون فكرة آدم وحواء هي الحقيقة التي ستفرض نفسها مرة أخرى بعد الجهود الجهيدة لأكثر من قرن من الزمان قضاه العلماء بالبحث والتحقيق .

فردية الانسان :

تساهم خصائص عديدة في تكوين فردية الانسان مثل قامته المستقيمة وجلده العاري (الذي لا يكسوه الشعر بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى) وسمات وجهه الخ . الا ان اهم ما يميزه هو عقله . وهذه الوحدانية (بين المخلوقات) قد أهملها التطوريون بدون مبرر منطقي عندما نظروا الى الانسان على أنه حيوان آخر في سلم التطور . وقد رأينا سابقاً كيف أن (دزموند موريس) يؤكد على حيوانية الانسان ويضرب عرض الحائط جميع المسائل الثقافية ، وهي القضايا المتعلقة بالعقل .

و (ستبنز) أيضاً يؤكد ان ([1]الانسان ، وبدون أي جدال ، حيوان في أصله وخصائصه البيولوجية) . ومعنى هذا التصريح ليس واضحاً ، فهل أنه يصف حقيقة جسمية ، كتلك التي نراها على شكل جسم أم أنه يقصد أن الانسان ليس سوى حيواناً كبقية أجناس الحيوانات . والظاهر أن هناك خليطاً من كليهما موجود في المعنى . فالحقيقة الجسمية قد استخدمت لتأكيد ايمان مسبق بأن الانسان قد تطور من أسلاف أقل رقياً . ولكن ، وكبقية المثقفين العارفين ، فان (ستبنز) لا ينكر فردية الانسان . فهو يقول ([2]ولكن مع ذلك فان

---

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الانسان أكثر من مجرد حيوان بيولوجي . فعند النظر الى جنسنا من أكثر وجهات النظر موضوعية نستطيع أن ندرك سلوكنا في النوعية الفريدة . . . حيث لا يستطيع أي جنس آخر أن يتحكم في قَدَرِه الى المدى الذي نستطيعه ، بواسطة قابلياتنا على التذكر والاستفادة من الماضي ، وكذلك النظر الى الامام وتصور المستقبل ، والتكلم بعضنا مع بعض والعمل معاً لتوفير حياة أفضل) . و (ج . برونوسكي) يقول ([1]الانسان مخلوق فريد . فهو يمتلك مجموعة من المواهب تجعله فريداً بين الحيوانات ، بحيث انه ، وخلافاً لها ، ليس مجرد رقم على سهول الأرض ـ ولكنه صانع لسهول الأرض . وهو ، بجسمه وعقله ، المستكشف للطبيعة والحيوان الذي يظهر في كل مكان والذي لم يجد وطنه ولكنه صنعه في كل قارة) . و (بيجور كورتن) يؤكد بأن ([2]فردية الانسان تمتلك تفسيراً تاريخياً بكل تأكيد) .

وفي الواقع فان كل جنس من أجناس المخلوقات فريد بطريقته الخاصة ، وكل الحيوانات تمتلك أدمغة . والفرق الوحيد بينهما وبين الانسان هو أن الانسان يمتلك الارادة والوعي ، ولكن التطوريين غير مكترثين كثيراً بتطور أدمغة الحيوانات، فهم يعتبرونها مجرد خطوة أخرى في عملية التطور . والحقيقة انها ليست كذلك . لأن العقل مهما كان بسيطاً هو نوع آخر من الوجود يختلف عن الحياة المجردة .

العقل :

العقل (او الفكر) هو الحلقة الاخيرة لحد الآن في سلم التطور (بموجب نظرية التطور نحو الأرقى) . والعقل يختلف عن الحياة والمادة . فهو يمتلك الارادة والاختيار والتمييز . كما يمتلك التفكير الارادي ، أي القدرة على اشغال

(١) انظر المصدر ١٧ ، ص ١٩ .
(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

نفسه في التفكير الارادي أو ايقاف نفسه عنه . وهذه الاختلافات تضعه في موقع مميز عن المادة ، وعن الحياة بشكلها البسيط . فالمادة نوع من الوجود ، والحياة نوع آخر من الوجود ، وكذلك العقل فانه نوع ثالث من الوجود . ويشير (بيتر رسل) الى ذلك بالقول ان [1]الوعي يختلف عن مجرد مجموعة من خلايا الدماغ مثلما أن الحياة تختلف عن مجرد مجموعة من الذرات) . فعملية انبثاق العقل ليست عملية اتساقية لتطور الكائن الحي (فيما لو كان التطور قد وقع فعلاً) كما يزعم التطوريون بل هو انعطاف في الوجود لا يقل أهمية عن انبثاق الحياة الى الوجود. وهو ظاهرة جديدة مضافة الى الحياة وليس مجرد مرحلة أخرى من مراحل التطور. ولكن كيف يفسر التطوريون ولادة العقل بقابلياته الواسعة التي لا يمكن لأحد أن يحصيها ؟ فهل كان صدفة أيضاً ؟ لعمري أي صدفة هذه ؟ أم أنها كانت الظروف التي لعبت الدور الأساسي ؟ وفي هذه الحالة أي نوع من الظروف تلك التي جعلت الانسان الكائن الوحيد الذي يحتاج الى العقل ؟ وهل كانت ظروفاً كيميائية تشبه الظروف التي أنتجت الحياة (الخلية الاولى) عن طريق الصدفة ؟ ام انها كانت ظروفاً نفسية ؟ واذا كانت ظروفاً نفسية كيف يمكن تفسيرها بايولوجيا بموجب التطور ؟ ام انها كانت من هذا وذاك معاً ؟ وفي هذه الحالة ما هي نسبة كل منهما ؟ وهل أن ظروفاً كهذه أنتجت العقل عند الانسان فقط ؟ وهل كان الانسان هو المخلوق الوحيد الذي احتاج الى العقل ؟ وأين الأدلة العلمية التي تثبت أن الكائنات الحية الأخرى لم تحتج الى العقل لتطوير حياتها والدفاع عن نفسها ضد المخاطر ؟ انني متأكد أن الغزال الذي يقف ساكناً ويتلقى رصاصة الصياد التي تقتله ، لو كان يمتلك عقلاً لاستفاد منه في معرفة ما يجري ولانقذ حياته من الموت المحقق . اننا نلاحظ أن العقل موجود عند كائنات حية كثيرة بنسب متفاوتة من الذكاء ، وقد تطور عند الانسان ولكنه بقي في تلك الكائنات على مستويات أدنى بكثير بحيث أن الفكر الارادي يوجد

---

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٥ .

عنـد الانسان فقط ، وهـو الفكـر الـواعي ، علماً أن الانسـان يعيش تحت نفس ظروف تلك الكائنات من طبيعة ومناخ وغذاء.

واذا قيل أن الحيوانات الأخرى طـورت شيئاً آخـر كالغـزال مثلاً تـطورت عنده سرعة الركض والاسد تطورت عنده القوة العضليـة الخ ، فـالسؤال هنا لم هذه الاختلافات الشاسعـة علماً أن الجميع عـاشوا ولا زالـوا يعيشون في ظـروف متشابهة من الطبيعة والجو والغذاء فأصبح بعضهم طعاماً للآخر ؟

ويلاحظ أيضاً أن بعض الحيـوانات طـورت (أو تمتلك) نفس الخصائص كغيرها مثل الركض السريع والقوة العضلية والطيران ، فهذه الخصائص تمتلكها حيوانات كثيرة وليس نوعـاً واحداً من الأجنـاس ، ولكن العقل يمتلكـه الانسان فقط ، لماذا ؟ ولماذا تـطور هذا العقـل الى اكثر مما يحتاجـه الانسان للبقـاء ؟ ان الاكتشافات العلمية بينت ان الانسان يستعمل ١٠ ٪ فقط من قابلياته العقلية ، واذا كان الانسان قد تطور من مخلوق أدنى منـه ، فان ذلـك معناه أن العقـل قد تـطور اكثر ممـا يحتاجـه الانسان . وهـذا لا يتوافق مـع الادعاء الـذي يـزعم أن الأجزاء التي لا تستعمل تضمر بمرور الزمن ، ولا نعلم كيف ان الـ ٩٠ ٪ المتبقية لم تضمـر ولا كيف أنها تطورت في المجـال الاول . و (كـودمـان) يـذكـر بـانـه (ⁱ⁾وكما سأل والاس ، كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يزود الانسان بعقل يفوق احتياجاته ؟) . اذ ان النظرية تقول ان التطور يتم بموجب حاجة المخلوق للبقـاء وان هذه الحـاجة هي التي تقـرر المتـطلبـات ، فمن اين أتت المتـطلبـات الاضافية التي جعلت الانسان يمتلك القابليات الاضافية .

النتيجـة الواضحـة التي يمكن استنتـاجهـا ممـا تقـدم أعـلاه هي أن عقـل الانسان لم يتطور . و (كودمان) يشير الى انه [٢]حال ظهور عقل الانسان عـلى

---

(١) انظر المصدر ١٠، ص ٢٦٨.

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٢.

مسـرح الوجود فان الانتخاب الطبيعي لم يعد بامكـانه العمـل على الانسـان) .
ومشيراً الى (والاس) . عالم الاحيـاء المشهور ، فـان (كودمـان) يقول ([1] انـه
شعـر أنه من المستحيـل تصـور ان تـطور الانسـان كمخلوق روحي جـاء نتيجـة
للانتخاب الـطبيعي) . و (كودمـان) يسأل بكـل صواب ([2] هـل ان كل شيء
نتعلمه عن وظيفة العقل يتلائم مع المادية الصرفـة وتطور دارون ؟) . ثم يجيب
(بـالعكس ، ان البحوث الجـديدة تبـين ، وبتكرار ، ان نـظام الـدمـاغ ككـل
يستـطيع بكيفيـة مـا أن يعمـل بـطرق تتعـدىٰ القـابليـات الفيـزيـائيـة لخـلايـاه
العصبية البالغ عددها حوالي عشرة مليارات) . وفيـما يخص أصل الانسـان فان
العلم الآن يقف عـلى حافـة منعطف مهم . فـالتطور لا يبـدو قادراً عـلى اعطاء
الجواب ، وأحدث نـظريات التـطور لا تكفي . ويتضح أن نـظريات التـطور في
خطر حقيقي . فاذا لم يكن الانسان قد تطور مما هـو أدنى منه ، فـلا بد وأنـه قد
خُلِق ، وبذلك فان تبريـر كون الكـائنات الحيـة الأخرى قـد جاءت عن طـريق
الخليقة أيضاً لن يكون عسيراً . و (كودمان) يقول ([2] باختصار ، فان الانسان
الحديث يمثل رزمة جسمية وعقلية جديدة كلياً ، واحـدة مكونـاتها المختلفـة تبدو
متكاملة بدقة لاتمام بعضها بعضاً) .

الجلد :

يمتلك الانسان جلداً متميزاً عن باقي الحيوانات من ناحية كونه غير مغطىٰ
بالشعر ، عدا بعض المناطق . وهذه الظاهرة كانت ولا زالت لغزاً محيراً بـالنسبة
لمدعي التطور . كيف أصبح الجلد عارياً هكذا ؟ وما هو التفسـير لذلـك بموجب
نظرية التطور التي تقضي بأن الحاجة للبقـاء هي سبب التغيرات ؟ في الـواقع أن
المشكلة مستعصية ، وقد ظهرت نظريـات كثيرة لتفسـير هذه الـظاهرة . وبعض

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

هـذه النـظريـات رُفضت مبـاشـرة تقـريبـاً من قبـل الآخـرين العـاملين في هـذا الحقل . ولا توجد لحد الآن أي نظرية تعطي جواباً مقبولاً . فالسؤال هو اذا كان الانسان قد تطور مما هو أدنى منه فلا بد وأنه فقد شعره بسبب احتياجـات التطور التي تساعده على البقاء بصورة أفضل مما لو كان مغطى بالشعر . ولما كانت هـذه الحالة تمثل نهاية مسدودة ، فان بعض الناس ذهبوا الى الحد الذي نكـروا فيه أن الانسان هو أقل الحيوانات شَعراً . و (ديـزمونـد موريس) يـذكر ذلـك بالقـول (¹)ان أحد الاختصاصيـين المشهورين ذهب بعيـداً الى القول ان الـرأي القائـل بأننا « الأقل شَعراً من بين جميع اللبائن بعيد كل البعد من أن يكـون صحيحاً . والنظريات الغريبة المتعددة التي وضعت لأخذ فقدان الشعر الخيالي بنظر الاعتبار ليس هناك حاجة لها » . وواضح ان هذا هـراء . وهو يشبـه القول بـأن الانسان الاعمى ، ولانه يمتلك عينين ، فانه ليس اعمى) .

وقد ظهرت نظريات عديدة لتفسير ظاهرة فقدان الشعر . وبعضها سفيهة الى درجـة بحيث انها مضحكة ، ويمكن للفـرد إدراك ان اليأس والاحبـاط كانـا وراء ظهور هذه النظريات باسم العلم .

ويخبرنا (ديزمونـد موريس) ان (²)احـد التفسيرات هو انـه عندمـا تخلى القرد الصياد عن ماضيه البدوي(*)واستقر في قواعد ثابتة ، تمثـل وطناً لـه ، فان عـرينه اصبـح مملوءاً بالـطفيليات الجلديـة الكثيرة . ويُعتَقَـد ان استعمـال نفس الأماكن للنوم ليلة بعد ليلة قد اعطى أرضية خصبـة لتكاثـر مختلف أنواع القـراد والعثة والبرغوث والبق الى النقطة التي أصبح الوضـع فيها يمثـل خطورة شـديدة للتعرض للأمراض . وبواسطة نزع معطفه المشعـر ، فان سـاكن العرين أصبـح

---

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(*) يقصد الرجال (كثير الارتحال) .

يجابه المشكلة بصورة أفضل) . ولكن اذا كانت هذه هي الحالة فقد نتساءل لماذا لم تفعل الحيوانات الأخرى التي تسكن المغارات ذلك ؟ لماذا كان الانسان الوحيد الذي فعل ذلك ؟ ولماذا جميع الأجناس البشرية ، خاصة أولئك الذين عاشوا في المناطق الباردة كالمناطق الجبلية مثلاً ، حيث أن وجود الطفيليات أقل احتمالاً ؟

وتوجد نظرية أخرى تقول ان الانسان ، وبعد اكتشاف النار ، أصبح غير محتاج للشعر لتدفئته ، ولذا فانه فقده . وقد نتساءل هنا أيضاً انه اذا كان سبب وجود الشعر هو مقاومة البرد فلماذا تمتلكه الحيوانات الاستوائية ، وأحياناً بكثرة ؟ من الواضح أن هذه نظرية تافهة .

نظرية أخرى تقول ان عملية التغذية عند الانسان كانت وسخة نوعاً ما ، خاصة عند أكل اللحوم ، والتي كانت تسبب الأمراض . ولتحاشي الأمراض فان الانسان فقد شعره . وهذه النظرية تضرب لنا طير الباشق (أو العقاب) الذي لا يمتلك ريشاً على عنقه مثلاً وتزعم أن هذا الطائر فَقَد ريش عنقه بسبب طريقة تغذيته الوسخة . وللرد على هذه النظرية لا نحتاج الى اكثر من القول انه اذا كان هذا هو السبب ، فقد كان على الانسان أن يفقد الشعر الذي على وجهه ، وليس الشعر الذي على جسمه تاركاً الشعر على وجهه في الرجال ، وهو المهم في الموضوع ، بهذه الكثافة . بالاضافة الى ذلك فان طريقة أكل الانسان ليست وسخة كطريقة اكل الباشق . وماذا عن الحيوانات الأخرى كالصقور والنسور والأسود والنمور الخ ، لماذا لم تفقد ريشها أو شعرها ؟ وفي الواقع بامكاننا أن نجد مثالاً في الطبيعة لأي شيء ، ولأي نظرية تُطرح ، ولكن تبريراً كهذا لا يمكن اعتباره اسلوباً علمياً أو منطقياً . ذلك لأن النظرية ، ولكي تصبح مقبولة ، يجب ان تبرر نفسها علمياً وبواسطة أسباب منطقية ، وأحياناً ، بالتجربة أيضاً .

وهناك نظرية أخرى تقول انه في فترة زمنية ما ، ذهب الانسان ليعيش قرب البحر بسبب وجود الغذاء بكثرة فيه . وكان عليه أن ينزل الى الأعماق

ليصطاد الأسماك وما شابه ، ونتيجة لذلك فانه فقد شعره بسبب الماء . ولكن هذه النظرية لا تفسر سبب بقاء الشعر على الرأس والوجه وهما أول ما يكون بتماس مع الماء عندما يعوم الانسان أو يغوص في الماء . كذلك لما كان الذكور هم الذين يقومون بالأعمال عادة (وهو الصيد هنا) لماذا فقدت الأناث الشعر من وجوههن بينما لم يحصل ذلك للذكور ؟ ثم لو أن الانسان كان فعلاً قد عام لفترات طويلة بحيث انه فقد شعره لماذا لم يطور جهازاً تنفسياً يستطيع التنفس بواسطته داخل الماء فيبقى فترة أطول ويحصل على غذاء أوفر ؟ أليس هذه هي الحاجة التي يزعمها التطوريون للبقاء ؟ ولماذا لم يتطور بحيث أن أطفاله يستطيعون العوم تلقائياً وبدون الحاجة الى التعلم ؟

وهناك نظرية أخرى تسمى نظرية الصياد . وتزعم هذه النظرية ان الانسان عندما نزل من الأشجار (لانه كان كالقرود) وأصبح صياداً (لاحظ ان القرود لا تأكل اللحوم) فانه احتاج أن يطارد فريسته . وهذا معناه انه احتاج لأن يفقد الحرارة التي تولدت في جسمه من جراء الركض . ولكن الشعر كان بمثابة معطف ثقيل يمنع فقدان الحرارة ، ولذا كان عليه أن يتخلص منه . و (ديزموند موريس) يزعم انه [1]بواسطة فقدانه معطف الشعر الثقيل وبواسطة زيادة عدد غدد التعرق على سطح جسمه فقد استطاع الانسان أن يحصل على تبرير كثير ـ وهذا التبرير ليس لغرض الحياة اليومية الاعتيادية ولكن للحظات المطاردة العنيفة ـ سوية مع انتاج الطبقة الرقيقة السخية من السائل المتبخر على أطرافه وجذعه الفعال والمعرض للهواء) . وهذه النظرية تعتمد على النظرية القائلة أن أسلافنا تركوا الأشجار بسبب ندرة الغذاء . ولكن الأدلة على ذلك لم يتم الحصول عليها مطلقاً . وعلى العكس فان (كورتن) يقول [2]ان اسلافنا لم يُجبَروا على ترك الأشجار بسبب نوع من الأزمات ، مثل موت الغابات

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٧ .
(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٥ .

بسبب الجفاف ، ولكنهم نزلوا الى الأرض لغزو مناطق جديدة مفضلة) . وهذا يبين ان الانسان لم يكن مجبراً على مطاردة فريسته لأن الغذاء كان متوفراً في هذه المناطق الجديدة (فيما لو كان التطور هو ما حصل فعلاً) . وعلى أي حال ، اذا كانت المطاردة هي سبب فقدان الانسان لشعره ، فلماذا لم تفقد الحيوانات المفترسة الأخرى ، مثل الاسود ، شعرها ؟ ولماذا فقدت انثى الانسان شعراً أكثر من الرجل بالرغم من أن الرجل هو الذي يقوم بالمطاردة ؟ وعلى أي حال ، لم تستطع أي من النظريات أن تفسر سبب عدم فقدان الانسان الشعر من وجهه (بالنسبة للذكر) وتحت الابط وحول اعضائه التناسلية . ولماذا ان الشعر على وجه الذكر يتركز على اللحية والشارب وليس على الجبهة أو الأنف أو الخدود أو حول العيون عدا الحاجبين .

ويبدو أن النظريات المطروحة ليست سوى محاولات لملائمة نماذج ناقصة على ظاهرة موجودة . ولا يوجد أي منها قرب التفسير الصحيح أو الملائم للظاهرة المطلوب دراستها .

الانسان يخون التطور :

يقول التطوريون ان الانسان يمثل المرحلة الأخيرة في سلم التطور لحد الآن ، ولذا فانه أرقى الكائنات الحية (وهذا مما لا شك فيه) . ونستنتج من ذلك انه يجب أن يكون أكثر هذه الكائنات استعداداً للتطور ، وقد يكون هذا هو ما يعترف به (كورتن) عندما يقول ([1]انه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطورية مستقبلية) . ولما كان الانسان ذكياً وواعياً فقد نتصور انه كان يجب عليه أن يحاول التطور بصورة واعية لكي يختصر الزمن ويسرع في هذا المشروع العظيم الذي بدأته المادة . خاصة الآن ومع ولادة العقل الواعي في الانسان

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

والذي يفهم الغاية من ايجاده وإيجاد الحياة وعملية التطور ، لذا فقد نعتقد انه كان عليه أن يؤدي الأمانة التي علقتها عليه المادة وأأتمنتها فيه . ولا بد وأن نتذكر هنا أن الكائنات الحية غير المفكرة والأقل تطوراً من الانسان قد حرصت على هذه الأمانة قبله ونجحت في أداء واجبها بخصوص التطور حتى وصلت اليه (اي الى الانسان) ، فعليه أن يكون جديراً أيضاً بحمل هذه الأمانة والحفاظ عليها ، فهو أرقى ما وصلت اليه الحياة في سلم التطور ومزود بامكانيات أفضل من الكائنات الحية التي كانت قبله لانجاز مهمته . ولكن ماذا نرى ؟ وبأي شيء منهمك هذا الانسان ؟ هل انه مشغول بحفظ الأمانة وتطوير نفسه وتطوير الكائنات الحية الأخرى معه ؟ ام أننا نرى العكس من ذلك ؟

في الواقع أننا نرى الانسان مشغولاً بتدمير نفسه وقتل بعضه بعضاً سواءاً ضمن المجتمع الواحد أو بين الأمم المختلفة ، والتاريخ مليء بالحروب التي تشهد بذلك . وواضح أن هذا تبذير عظيم للطاقات التي يمكن استعمالها في دفع عملية التطور الى الامام . وما يقوم به الانسان الآن من صناعة السلاح الذري لتدمير جميع الكائنات الحية على الأرض ، وليس نفسه فقط ، ليس تطوراً ولكنه تناقض صارخ مع مبدأ التطور نحو الأرقى . فماذا حدث لعملية التطور ؟ هل أنها ، ولسبب مجهول ، انعكست ؟ وهل قرر الانسان ، الذي هو نتاج الجهود العظيمة ، أن يعتبر هذا العمل الضخم تافهاً ولذا فانه يتمرد عليه ؟

ان امتلاك العقل هو الذي ساعد الكائن الحي على اختراع ما يدمر به نفسه . فهل كان امتلاك هذا العقل غلطة ؟ أم انه هو المنشود ؟ فاذا كان غلطة فانه تناقض واضح مع مبدأ التطور ، واذا كان هو المنشود فلماذا يحاول الانسان تدمير نفسه ؟ وهو مشغول جداً بايجاد طرق جديدة للدمار ويصرف جهوداً عظيمة وأموالاً طائلة في سبيل ذلك بدلاً من صرفها على تطوير نفسه ، وكأنه وُجِدَ لهذه الغاية التدميرية لا لكي يكون الحلقة الجديدة في التطور . وقد يقال ان الانسان هو آخر كائن متطور تنشده المادة . فاذا كانت هذه هي الحالة فان

الأجدر به اذن أن يكون على أحسن حال للبقاء والتكاثر لا ان يفني نفسه وجميع الحياة حوله . ان الانسان مشغول جداً في صناعة امجاده ، والأمجاد بالنسبة له هي العظيمة واجبار الآخرين على الركوع أمامه باستعمال القوة والقتل والفتك بالناس وحياكة الدسائس والمؤامرات .

واذا كان الانسان آخر حلقة في التطور فان ذلك معناه أن الغاية قد انتهت وأن حصيلة هذا الجهد الطويل الذي استغرق مليارات السنين كان للوصول الى الانسان الذي يحاول انهاء كل شيء الآن . ويتضح أن العقل ، الذي هو آخر مرحلة في التطور ، يتمرد الآن على سيده المادة التي تريد له عكس ذلك . وهو بذلك يعمل ضد الغاية المنشودة للمادة بعد أن استسلمت الحياة ، التي هي الحلقة الوسطى في سلم التطور ، لهذه الغاية .

نستنتج من ذلك أن تمخض التطور وولادته للانسان كان غلطة لم تكن المادة عالمة بنتيجتها ، وهذا بدوره يمثل تناقضاً مع عملية السعي نحو الأرقى . واذا كانت المادة تعلم فان هذا الانعطاف نحو الدمار غير واضح الأسباب ويتناقض مع الغاية الأولى ، ولا يمكن تفسيره على أنه تطور ، بل الأفضل وصفه بالانحراف عن التطور وعن الوصول الى الغاية النهائية . وفي الواقع فان الانسان يحاول الرجوع الى البداية ـ الى المادة الميتة .

واذا كانت المادة قد انعطفت عن مسار التطور هذه المرة ، فليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنها قد تكون انحرفت عن التطور في أوقات أخرى ما دام الانحراف ممكناً . وفي هذه الحالة لن يبقى هناك مبرر للاعتقاد بالتطور ما دامت امكانية حدوث الانحرافات موجودة ، وبذلك ينهار مبدأ الاعتقاد بالتطور نحو الأرقى كلياً . وتوجد أمثلة كثيرة من هذه الانحرافات في الانسان منها الكره والساديّة .

وقد يبرر بعض الناس هذه الانحرافات بالقول أنها طفرات وراثية في

الاتجاه المعاكس . الا أن هذا بحد ذاته اعترافاً بضعف الفكرة بأكملها وبرهانا ساطعاً على وجود اكثر من انحراف واحد عن مسار التطور ، خاصة اذا اعترفنا باحتمال حدوث الطفرات بالاتجاه المعاكس (وهو ما يعترفون به على أي حال) . وأخيراً نرى أنه كان من الواجب أن يحمل العقل البشري (لو كان فعلاً حصيلة التطور) في طياته ، وكجزء من تركيبه ، مبدأ التطور نحو الأرقى بصورة واعية (ولكن ليس على طريقة نيتشة والنازية) ، والذي كان سيسهل عملية التطور ويسرع بها الى الغاية المنشودة بطريق سليم . تُرى هل أخفقت المادة في وعي هذه الحقيقة بعد أن انجزت هذا العمل العظيم ؟

الكُرْه والساديّة :

يتحسس الانسان الكره الذي يظهر على شكل عداء مدمر وحقد لا مثيل له عند بعض الناس . ويشهد التاريخ بالحروب والدمار والقضاء على حضارات كاملة بسبب الكره والحقد بين الملوك والايديولوجيات المختلفة . ولعل احراق نيرون لروما عاصمة مملكته في ليلة سوداء بينما كان الناس نائمين من الأمثلة الصارخة لما يمكن لهذا الكره والحقد أن يفعل .

ويظهر الكره بين بني البشر بصور مختلفة ، وأبرز ظاهرة في عصرنا الحاضر للحقد هو التمييز العنصري بسبب اللون . فها هو الانسان الأبيض الذي يحمل راية التقدم التكنولوجي في أوج عظمتها حتى انه نزل على القمر برجليه ، نراه ، وخلافاً لما تصبوا اليه فكرة التطور نحو الأرقى ، مملوءاً الى اذنيه باحتقار الأجناس الأخرى لا لشيء إلا لأن الوان جلودهم تختلف عن لون جلده . ولا يمكن أن نعتبر ذلك من التطور في شيء . ولعل أبرز ورقة في يد الدول الكبرى لاشعال الحروب بين الناس في عصرنا هذا هو اثارة الأحقاد والضغائن على أساس القومية والعِرْقية . فيتطاحن الناس ويقتل بعضهم بعضاً وهو خلاف لمفهوم التطور . والمجتمع الانساني مملوء بالمآسي بسبب الحقد والكراهية ، فأين هذا من التطور نحو الأحسن ؟

والكره لا يمكنه أن يولد اي خير في الانسان . وهو ليس أحسن من أي شيء آخر ، ولا يمكن وصفه بشيء غير الشر . ولذا لا يمكن أن يكون قد تطور من شيء أسوأ منه ، وبهذا لا يمكن وصفه على انه تطور نحو الأحسن بأي مقياس من المقاييس العقلية . وعلى العكس من ذلك فانه بالتأكيد يمكن وصفه على انه انحراف عن مسار التطور لأنه لا يمكن أن ينتج الا الدمار . وكان على الانسان أن يحمل الحب ونزعة التآخي فقط اذا كان فعلاً قد تطور من شيء ادنى منه . ونحن لا نرى كيف أن اسلاف الانسان وأجداده (اذا كان هناك اسلاف) احتاجوا الى شيء كالكره ، لأن كلاً منهم (بمفهوم نظرية التطور) قد تطور من شيء آخر . واذا كان التطور سارياً خلال جميع المراحل فكيف احتاجت الكائنات الحية التي في تطور مستمر الى الحقد الذي لا يقود الا الى الدمار . وبطبيعة الحال فان الدمار هو عكس التطور والمفروض في الكائنات أنها لم تحتجه في أي مرحلة من مراحل تطورها .

اما الساديّة فانها مرض عقلي واسع الانتشار يتلذذ صاحبه بايذاء الآخرين أو قتلهم . ولا يمكن اعتبار الحصول على سعادة من الألم تطوراً لأن الألم يقود الى الموت وليس الى الحياة . وكان على التطور ، اذا أردنا أن نسميه هكذا ، أن لا ينتج انحرافات كهذه أو على الأقل يقضي عليها بحيث لا يبقى إلا الأصلح ، تمشياً مع مبدأ التطور .

وهذه الظواهر في الواقع يمكن تفسيرها بواسطة نظريات أخرى لتفسير الوجود والخليقة كما سنرى .

استنتاج :

لقد تم تمحيص وتحليل النظريات التي تزعم أن الانسان قد تطور من القرود ، فوصلنا الى الاستنتاج بأن هذه النظريات لم تعتمد على سند قوي أبداً ولم تتوفر الأدلة العلمية القطعية لاسنادها . بل أن الأدلة الحديثة تبين أن الانسان

قد ظهر فجأة على الأرض . ولا تستطيع نظريات التطور أن تعطي تفسيراً مقبولاً لقابليات العقل ووظائفه العظيمة ، ولا لأسباب فقدان الشعر من جسم الانسان ، كما أنها لا تستطيع تفسير بعض الظواهر التي تعتبر انحرافات عن التطور مثل الكراهية والسادية .

ويبدو كذلك ان الانسان يتمرد ضد التطور بواسطة البحث عن وسائل لتدمير الذات . وأن نظرية التطور غير قادرة على اعطاء تفسير مقبول لأصل الحياة والانسان . وليس هناك قاعدة فلسفية أو أدلة علمية كافية لتبريرها .

الفصل التاسع

الخلق :

ربما كان باستطاعة نظرية التطور ان يكتب لها النجاح لولا فشلها في اعطاء تفسير مقبول لاصل الانسان والذي أوصلها الى نهاية مسدودة . وفي الواقع فـان النـظرية لم تعط أي تفسـير مُرْضٍ لاصـل أيٍ من الأجناس ، أو لاصـل الحياة نفسها . ولكنها فقط زعمت أن ما يقرب مما لا نهاية لـه من الصدف قـد حدثت في آن واحد لانبثاق الحيـاة ، ثم أن اعداداً أكبـر من ذلك من الصـدف الأخرى استمرت بالوقوع لانتاج الكائنات الحية التي نعرفها اليوم . وعند التأمل في هـذه الافتراضات نجدها شيئاً من الهذيان والجنون الحقيقي باسم العلم . كيف يمكن لهذا العدد الهائل من الصدف ان يحدث بهـذه الطريقـة العجيبة والمحكمـة ؟ ان العلم لم يعرف نظريـة واهية كهـذه في أي فرع من فـروعه . ولم يستعمـل العلم مفهوم الصدفة لتفسير أي من نظرياته عدا التطور . وفي الواقـع ، فان العلم تم تشييده على مفهوم العلة والسببية للأشياء واستحالة الصدفةوأن هناك سبب لكل حادثة ، وأن العلاقات بين الأشياء لا يمكن أن تكون قضية صدفة . لان القـول بصـدفة العـلاقات والأسبـاب التـي تربط بـين الحوادث يجعـل وضـع القـوانـين

العلمية قضية مستحيلة ، ويقود الى رفض جميع نظريات المعرفة التي بُنيت على استحالة وقوع الصدفة .

لقد اعتمدت نظرية التطور على أدلة مادية فقط ، وهي العظام والمتحجرات ، ولم تأخذ بنظر الاعتبار أي من القضايا الميتافيزيقية ، حيث لم يفكر أحد ، أو يولي اهتماماً لشعور وأحاسيس الحيوانات والنباتات (والتي بينت البحوث العلمية الحديثة التي أجريت على النباتات أنها تمتلك شعوراً واحساساً وخصائص أخرى كالتمييز والتخاطر(*)) ولكن عندما وصلت النظرية الى الانسان لم تستطع تجاهل مسألة الامكانيات العقلية التي يمتلكها ، وشكلت هذه القضية عقبة حقيقية أمام نظرية التطور التي وقفت عاجزة عندها . ويبدو ان التطور لم يأخذ هذه المسألة بنظر الاعتبار ، ولم يستطع التطوريون أن يجدوا أدلة لها . و (كودمان) يستشهد بالدكتور (ستيفن م . ستانلي) بقوله[1](ومن حيث لا نعلم ، يظهر ذقننا الحاد وحاجبنا الخفيف وجبهتنا البارزة في سجلات المتحجرات . وهذه السمات الخاصة لا يمكن التنبؤ بها اطلاقاً بموجب الأسس التي سبقتها) . ويستمر بالقول[2](ومن وجهة النظر الجسمية ، فان ذقنه الحاد ، وحاجبه الخفيف وجدران جمجمته الرقيقة وجبهته البارزة وجهازه الصوتي المتمكن من الكلام كلياً يظهر من حيث لا يُعلم) . وهذا جعله يؤكد أن[3](هذه النظريات لا تعطي تفسيراً ملائماً للظهور الفجائي للخصال الجسمية والعقلية في الانسان الحديث والتي تبدو متممة ومعززة لبعضها البعض وكأنها صُنعت هكذا بواسطة صانع) . وفي الواقع ، عند النظر الى أي كائن حي فانه

(*) التخاطر هو اتصال عقل بعقل آخر بطريقة ما خارجة عن نطاق العادي ، وتسمى التلاباثي .

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٨٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

ليس من العسير ملاحظة كيفية تكامل هذا الكائن الكلي بواسطة الصنع . فهذه الأنظمة العجيبة للنمل ، وبعض أنواع الطيور ، والنحل ، وكثير من الأجناس الأخرى اكبر دليل على ذلك . كيف تطورت هذه الأجناس لتساعد بعضها بعضاً بحيث أن كل فرد من المجموعة له دوره المحدد ، وهذه الأدوار تكمل بعضها بعضاً بحيث تتمكن المجموعة من العيش والبقاء وكأنها كائن حي واحد يمتلك روحاً واحدة وعقلاً واحداً ؟ ومع ذلك فان التطوريين لم يتطرقوا الى هذه المسائل . ولكن عندما اعترضتهم ظاهرة مساعدة الانسان لأخيه الضعيف أو المجروح لم يستطيعوا تجاهلها ، بالرغم من أن نفس السؤال كان يجب أن يطرح عن النمل والنحل وغيرها .

و (كودمان) يشير الى أن[1](الفجوة بين الانسان الحديث وأسلافه أساسية الى درجة كبيرة بحيث أن شيئاً أكثر من جريان الجينات العشوائي ومبدأ الانتقاء الطبيعي قد يكون له علاقة بالموضوع . كيف يمكن لخصائص الانسان المتعددة والمنسقة تنسيقاً عالياً أن تجتمع بصورة عشوائية ؟ ان الغرابة تفوق التصور) .

ويشير (كودمان) الى أننا اذا فرضنا ان الانسان قد تطور من مخلوقات أدنى ، فاننا سنجد ان الانسان الحديث كان عليه أن يتطور في أربع أماكن متفرقة على الأرض (بموجب الأدلة المتوفرة) : اوراسيا(*) وامريكا وافريقيا واستراليا . أي انه بموجب أدلة العظام التي تم اكتشافها يبدو ان الانسان الحديث قد تطور في نفس الوقت على أربع مناطق من الكرة الأرضية ، والذي معناه ان الانسان تطور من الانسان القديم الى الانسان الحديث أربع مرات . وهذا قاد (كودمان) الى أن يسأل[2](كيف استطاعت أربعة أجناس محلية من

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٦٨ .

(*) المنطقة الاسيوية القريبة من أوربا .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

الانسان القديم أن تتطور عشوائياً الى مستوى الانسان الحديث وبنفس الوقت تحافظ على الانسجام الجيني العالي الذي يمكن ملاحظته في الأجناس الرئيسية المصنفة على الأساس الجيولوجي للعالم ؟).

وعلى أي حال فان الانسان يختلف عن النحل والنمل من ناحية انه يمتلك قابليات أكثر مما يحتاجه للبقاء بكثير. ولذلك فان (تَرَنْسْ دكسون) و (مارتن لوكاس) يشيران الى[1] (ان حاجتنا وقابليتنا على تنظيم وترتيب ومعالجة العالم يوجهاننا الى انشاء الثقافة وعالم الرموز والمعاني الانسانية الفريدة ، والتي هي أكثر من احتياجاتنا لغرض البقاء) . وكورتن يؤكد[2] (ان وظائف عقولنا تتعدىٰ كثيراً أي شيء معقول تتطلبه هذه العقول في البيئة التي تطورت فيها) .

ان الأسئلة كثيرة وعميقة ولا يمكن للمادية الضحلة أو نظرية لم يقم البرهان على صحتها، كالتطور التي وقفت مشلولة أمامها ، أن تقدم الأجوبة لها . لماذا كان الانسان الكائن الحي الوحيد الذي امتلك العقل ؟ ولماذا يمتلك قابليات بهذه الكثرة التي تفوق احتياجاته التي يتطلبها لغرض البقاء ؟ ولماذا وكيف ظهر فجأة على الأرض ؟ لقد استمر البحث في عدة حقول : الاحياء وعلم النفس والفيزياء والآثار وغيرها . ويلخص (كودمان) المأزق كما يلي[3] (ان المادية التقليدية تبدو ناقصة نقصاً جدياً كتفسير للمدىٰ العظيم من الظواهر التي يظهر بعضها كمركبات أساسية للطبيعة الانسانية) . لذا لا بد من التوجه الى اللامادية للحصول على الأجوبة . انها الطريقة الوحيدة بعد الجهود الطويلة والمضنية التي عاناها الباحثون . فالمادية وحدها لا تكفي . ويبدو أن العلماء ، وبعد ركوب الطريق الوعرة ، وصلوا الى الاستنتاجات الواضحة . وهذه اشارة

---

(١) انظر المصدر ١٨ ، ص ١٦ .
(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٧ .
(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ٢٦٧ .

الى البحوث العلمية المعقدة التي أجراها العلماء قرون للتوصل الى النظرية النسبية ، والتي بعدها عرف الانسان أن المادة تتحول الى طاقة . ولكن المادة كانت دائماً تتحول الى طاقة في جسم الانسان في كل لحظة ، وفي كل شيء فَعَله ، إلا انه لم يكن يعلم. ولم يعلم الانسان أن كل حركة من حركاته كانت في الواقع تحويل المادة الى طاقة . فتحريكه ليده ، وتفوهه بكل كلمة يقولها ، وقهقته ، وبكاؤه ، وتفكيره المجرد ، كلها تحويل المادة الى طاقة . اي انه لم يعلم أنه هو نفسه (جسمه) ليس الا مفاعل يحول المادة الى طاقة باستمرار .

ان التطور كان ، ولا يزال ، هاجساً يستحوذ على العلماء ، ودافعاً قوياً ذي اتجاه واحد . وهم ماضون في هذا الاتجاه وكأنَّ على عيونهم غشاوة أو غمامة تمنعهم من رؤية الاتجاهات والاحتمالات الأخرى . وقد آن الأوان ، بعد الاكتشافات الحديثة ، أن يزيل هؤلاء الباحثون الغشاوة عن أعينهم ويأخذون بنظر الأعتبار الآراء الأخرى المطروحة والبعيدة عن فكرة التطور ، فقد يكون الجواب هناك ، وفي الواقع فان الجواب هناك .

ان مفهوم الروح بدأ يعود مرة اخرى الى المسرح . و (كودمان) يتكلم عن اكتشافات علمية جديدة عن الانسان وروحه ، فيقول[1] (ان السَرْجون اكلز ، الحائز على جائزة نوبل في الطب والتشريح والسَرْ كارل بوبر ، فيلسوف العلم العالمي الأول ، يؤمنان بالنظام المزدوج للعقل والدماغ . فهما يقولان أن الانسان يمتلك روحاً أو (عقلاً) غير ملموس يسيطر على « حلقة الارتباط(*) الدماغ » مثلما يقود السائق السيارة أو كما يوجه المبرمج الحاسبة . . . ويرى اكلز مصدراً خارجياً ، وذكاءاً مبدعاً ، لأصل ازدواجيته هذه . ويوجين وايز ، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ، وعند تحليله لتعقيدات ميكانيكا الكَمْ

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٠ .

(*) يقصد أن الدماغ هو حلقة الوصل بين العقل والجسم .

يعتقد ان الانسان يمتلك عقلاً لا مادياً يستطيع أن يؤثر في المادة) . والأدلة الحديثة تؤكد ازدواجية وجود الانسان ، حيث يقول كودمان[1] (ان الفيزيائي البارز السِّرْ جيمس جينز ذهب الى أبعد من ذلك : « العقل »، كما كتب ، لا يبدو بعد الآن دخيلاً فجائياً الى عالم المادة ، فقد بدأنا نشك بأننا يجب علينا ، بالأحرى ، ان نصفه كخالق وحاكم لعالم المادة) . و (كودمان) يذكر ايضاً ان[2] (اكلز . . . يقفز قفزة ايمان ليفسر ظاهرة الانسان : اذا قلت ان وحدانية النفس الانسانية غير مُستَمَدة من الرمز الجيني ، وليست مُستَمَدة من الخبرات ، فمن أين هي مستَمَدة اذن : وجوابي هو : من الابداع الالهي . كل نفس عبارة عن خلق الهي) .

وفي الواقع فان (والاس) ، الذي عاصر (دارون) وكان زميله وأَحد مؤسسي علم التطور في الاحياء ، وقف عاجزاً أمام مسألة الانسان . وقد تصور ان هناك ذكاءاً خارقاً قاد تطور الانسان . ولما كان يؤمن بالتطور ، فلم يكن لديه طريق آخر للخروج من المأزق عدا التصريح بهذا الرأي الذي كانت غايته انقاذ فكرة التطور من الانهيار في مهدها . ولكن الى أي شيء يقودنا هذا الرأي ؟ أليس الى الخالق !! واذا كان الخالق موجوداً ، فلم التطور ؟ ان التطوريين ساروا على خطئ (دارون) ولم ينتبهوا الى كلمات (والاس) ، وبعد أكثر من قرن من الزمان رجعوا للبحث عن وثائقه التي خلفها من بعده وواراها الغبار .

و (كودمان) يذكر ان (اينشتاين) ، العالم الفيزيائي الذي وضع النظرية النسبية ونظرية القنبلة الذرية ، يقول[3] (ان اي فرد منهمك في متابعة العلم بصورة جدية يصبح مقتنعاً ان روحاً تتجلى في قوانين الكون . روحاً متفوقة على

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .
(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

روح الانسان تفوقاً كبيراً ، وواحدة علينا أن نشعر أمامها بالتواضع بقدراتنا البسيطة) .

وبالنسبة للعلماء والمفكرين في الغرب ، فان المأزق حقيقي . كيف يمكنهم أن يقبلوا فكرة الخالق بينما لا يستطيعون أن يقبلوا الانجيل ومفاهيمه المتناقضة ؟ لانه اذا كان الخالق موجوداً لماذا يناقض الانجيل العلم ؟ ولكن هناك حل للمشكلة لم يأخذه الغربيون بنظر الاعتبار لحد الآن ، وهو ان الخالق موجود والانجيل فيه خطأ وهناك كتاب الهي آخر لا يتناقض مع العلم ويفسر مسألة الخليقة بكل تفصيل ومعقولية . والغربيون يقبلون الشطرين الأول والثاني من هذا الحل ولكن ليس الشطر الثالث . والأسباب ليست من اختصاص هذا الكتاب لمناقشتها . وهذا الوضع قاد عقولهم للتفتق عن نظرية جديدة ، وهذه النظرية مبهمة اكثر من نظرية التطور ، وتسمى نظرية التدخل .

و (كودمان) يعطينا وصفاً يفي بالغرض لهذه النظرية بالقول[1] (ان نظرية التدخل تعطي الانسان أصلاً مزدوجاً . فهي تزعم تطور الحيوانات حتى الوصول الى الانسان القديم ، ثم يتبعها تدخل بواسطة ذكاء متفوق لتفسير ظهور الانسان الحديث ، ووحدانيته وازدواجيته الروحية . . . . ان نموذج التدخل يزعم ان ما خلقته هذه الروح المتفوقة كان صورة لنفسها ولكن ليس بالهيئة الجسمية بل بالقابليات العقلية . . . وبواسطة تكييف أفضل هيئة جسمية موجودة ، وهي الانسان القديم ، فانها خلقت سماتها الشخصية ، كلٌ من خلال طريقٍ الى الواقع غير المرئي الذي وُلِدت منه . . . وقد يستعمل الانسان امكانياته الخلاقة أحياناً من خلال أحلامه وفنه ولحظاته العلمية الصافية والشامانية(*) لكي يدخل الى الواقع الذي تسكنه هذه الروح المتفوقة) . ويخبرنا

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(*) دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا يعتقد بوجود عالم محجوب ويؤمن بوجود الآلهة والشياطين وأرواح السلف .

(كـودمان) عن عـدة نظريـات عن ماهيـة هذه الـروح المتدخلة . ومعـظم هذه النظريات أقرب الى الخيال من العلم . فاحداها تقول أنها روح أتت الى الأرض بواسطة سفينة فضائية من جرم آخـر . واخرى تقـول ان[1](المتدخـل عبارة عن أرواح من واقع آخر زارت الأرض لتجـرب خواص الأرض الاستثنـائية . وعـلى حد زعم هذه النظرية فان هذه الأرواح اتخذت لها مـركباً خـلال الناس القـدماء الموجودين للتمتع بالملذات الجسدية كالخمر والنساء والغناء . وبعـد ليال عـديدة من الصخب والعربدة الكثيـرة وجدت هـذه الأرواح نفسها محبـوسة في مـركبتها المادية . والتحرير الوحيد لها كان خـلال الموت ، ولكن لأنها أصبحت مـدمنة ، فـان كثيراً منهـا أصر على الـرجوع بـواسطة التنـاسخ[**]لـركبة واحـدة فقط ثم اخرى ، ثم اخرى . وبعـد ان أحست انه ليس هنـاك مفر بـالنسبة لهـا من هذه الحلقـة المفرغـة ، قررت بعض هـذه الأرواح أن تبـدأ بـالعمـل لتغيـير مضيِّفهـا الانساني لايجاد مركبات جسمية أفضل تستطيع من خلالها أن تتخلص في النهـاية من الانجذاب المغري للمـلاحقات الأرضيـة . وهذا قـد يفسر لماذا ان الانسـان الحديث ، ومع خصائصه العـالية ، يبـدو لا زال ممزقـاً بين الـواقعين) . ونحن نسأل : أي علم هذا ؟ وهل هو علم أم خيال أقرب الى الجنون في تفسير الحيـاة والعقل ، هذه الظواهر العظيمة ؟

ان هذه النظرية (وهي مستمدة من نظرية افلاطون في الـروح) تعاني من نقاط ضعف لا تحصى ، وتترك الكثير الذي بحاجة الى تفسـير . ويمكن للفرد أن يسـأل اسئلة كثيـرة ، من أين أتت هـذه الأرواح ؟ ولمـاذا تـوقفت عن المجيء ؟ وكيف تمكنت من تـطوير جسم الانسـان ؟ وكيف دخلت الى جسمـه ؟ ولمـاذا لا تستطيع الخروج حتى الموت ؟ فهي تستطيع أن تخرج كما دخلت !! وكيف تتكاثر

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(**) يقصد تناسخ الأرواح ، أي احلالها في اجسام جديدة .

بعـدد تكـاثـر النـاس ؟ ومن خلقهـا في المقـام الأول ؟ ولمـاذا تغـريهـا الملذات والشهوات ؟ وهل كان الانسان القديم يعرف الخمر والنساء والموسيقى ، أم أن هذا تصور من الواقع الغربي معكوساً على الماضي ، وكأن الانسان الغربي يتصور العالم كله على أساس نفسه وملذاتـه ، وان الناس كلهم يعيشـون مثله ويفكرون بشهوانية مثله ؟ ان مشكلات الناس غير المؤمنين بالخالق عظيمة . فهم يصدقون خـرافات كهـذه ، ولكنهم لا يؤمنون بـالحقيقة المنطقية الـوحيدة التي تحـل جميع المشـاكـل ، وهي ان الله هـو الخـالق . و (كـودمـان) يعبـر عن حيـرة العلماء وضلالهم بكل وضوح عندما يقول[1](واعتماداً على المعلومات الجديدة القادمة من عدة حقول علمية مختلفة ، فان نظرية التدخل الآن معقولة بقدر نـظرية التـطور لتفسـير أصل الانسـان الحديث وظهـوره المفـاجيء . وبسبب عـدم وجـود أدلـة مبـاشرة لأي من النـظريتين ، فـان الاعتقاد بـأي منهما يتـطلب مقداراً معينـاً من الايمان) . اذن ، وفي النهاية ، نصل الى الحقيقة التي أخفاهـا علماء التطور عـلى النـاس لأكثر من قـرن من الزمـان ، وهي أن المسـألـة لا عـلاقـة لها بـالعلم أو بالحقائق العلميـة ، وإنما هي مسـألة ايمـان بقضية معينـة بالـرغم من عدم تـوفر الأدلـة لتبرير هـذا الايمان . وفي هـذه الحالـة فانـه من الواضـح اننا لسنـا ملزمين بقبولها . وتحت هذه الظروف فاننا نسأل : ما هو الفرق بين الايمان بالتطور بهذه الطريقة ونـظرية الكنيسـة القائلة أن الله لا يمكن أن يعـرفه العقـل ، ولكنه نـور يُلقىٰ في القلب ؟ وبالنسبة لأولئك الذين تخلّوا عن الايمان بالله ، بمـاذا يؤمنون ؟ انهم يؤمنـون بنظريـة التـدخـل ويعتبـرونها معقـولـة !!! ولكن من خلق الـروح المتدخلة ؟ واذا كانت هذه الروح بالذكاء الخارق الذي يصفونه لماذا تعبث هكذا بدون غاية ؟ ولماذا تجعل الناس يقتل بعضهم بعضاً في الحـروب ؟ ولماذا ان هـذه الروح الفائقة الذكاء اذا بقيت بدون تعليم تصبـح جاهلة كـالحيوانـات وتنكص الى جهل تام تقريباً ؟ وما هو اختـلاف اسلوب ايمان العلماء بـالتطور عن اسلوب

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٨٠ .

ايمان الكنيسة بـالله ؟ كلاهمـا يؤمن بدون استخـدام الأدلة العقليـة . وهذا يبـين بـوضوح التخبط الفكـري الذي يعيشـه الانسـان الغـربي بـالـرغم من تقـدمـه التكنولوجي ، وأنها لحقيقة رهيبة لا يعلمها الآخرون ، خـاصة المسلمـون الذين يمتلكون أعظم فكـر على وجـه الأرض ومع ذلـك فانهم مبهـورون بهذا الانسـان الأبيض الجاهل ، الذي كان جاهلاً على مر التاريخ عـدا بأمـور الدس والخـداع والتآمر على الناس والرذيلة والجرائم الجماعية بحق البشرية .

ويستمر (كودمان) بالقول[1] (لقد بـدد العلم اكثر من قـرن من الزمـان متابعاً نظرية تطور الانسان ، وكلما تجمعت معلومات اكثر كلما أصبحت النـظرية أقل اقناعاً . ولا يمكن للفرد الا ان يتسـاءل : ماذا ستكـون النتيجة اذا تـواصل البحث الآن عن نـظرية التـدخل ؟) وجـوابنا عـلى ذلك هـو الآتي : أن العلماء يبذلون مزيداً من الوقت والجهود كما فعلوا مع نظرية التطور ثم ينتهون الى مأزق ونهاية مسدودة مشابهين لـذالكما اللذين انتهـوا بهما مـع التطور . ونحن نـرى أن المشكلة الـرئيسيـة التي تـواجـه العلماء اليـوم هي المعتقـدات غـير المتمـاسكـة لـلانجيل . ولكن اذا استـطعنـا أن نشـير الى حـل هـذه المعضـلات (بـالنسبـة للغرب) فان فكرة (الله الخالق) تصبح الفكرة الوحيدة المقبولة .

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٨٠ .

الباب الثالث

وجود الروح والخالق

الفصل العاشر

الزمن والسؤال :

لقد رأينا في الفصول السابقة أن نظرية التطور لا تقف على قاعدة صلبة ، وأن الأدلة العلمية الحديثة تشير الى أن الحياة جاءت نتيجة للخليقة . وهنا فان القضية بالنسبة للمفكر الأوربي والمفكر المادي ترجع الى نفس المشكلة التي صادفها غيره قبل بضعة قرون ، والذين عندما لم يستطيعوا حلها تركوا فكرة الله والتجأوا الى فكرة التطور لعلهم يجدون الجواب هناك .

وتطرح الاسئلة القديمة نفسها مرة اخرى ، منها : من الذي خلق الله ، وهل يستطيع الله أن يميت نفسه ، وما معنى أن الله على كل شيء قدير ، وما هي الروح ، وكيف تعمل وغير ذلك من الاسئلة .

في الفصول القادمة ، سوف نحاول الدخول في عمق هذه الاسئلة ، وأسئلة أخرى، للاجابة عليها والانتهاء برسم صورة أوضح عن الحقائق التي تخص الروح ، والحياة بعد الموت ، والله الخالق للكون . وسنحاول الدخول في موضوع الزمن والمكان ومعناهما بصورة مختصرة في هذا الفصل في محاولة لتوضيح حقيقة أن الزمن ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، ويستمد وجوده من وجود

المادة . وهذا سيفتح الطريق أمامنا للاجابة على الأسئلة التي طالما كانت مستعصية على كثير من المفكرين .

الزمان والمكان :

كثيراً ما نسمع ان (اينشتاين) اكتشف واحداً من قوانين الفيزياء المعقدة في هذا القرن ، وهذا القانون ينص على أن الزمن متغير ، وهو البعد الرابع . فماذا يعني ذلك ؟

في الواقع ان هذا الموضوع لا يفهمه سوى قليل من الناس المتبحرين في علم الفيزياء بسبب صعوبته وصعوبة تصوره . وسنتطرق هنا الى هذا الموضوع باختصار ، وبعيداً عن الرياضيات المعقدة ، في محاولة لتوضيح معنى الزمن وكيف يتغير .

الزمن عبارة عن ظاهرة يمكن أخذها بنظر الاعتبار من زاويتين . الأولى هي الزمن المقاس بواسطة المشاهد الساكن بالنسبة لحادثة ما ، أي المشاهد الذي يسير بنفس سرعة الحادثة واتجاهها ، فهو ساكن بالنسبة لها (والحادثة هي أي حدث مثل لقاء شخصين او اصطدام سيارتين أو انسان يقرأ أو حشرة تطير الخ والمشاهد هو الذي يشاهد ذلك) . ومثال على هذا النوع من الزمن اذا حدثت حادثة على الأرض وسجلنا وقت حدوثها والزمن الذي استغرقته الحادثة فيكون هذا الزمن مسجل من قبل المشاهد (الذي هو نحن) والذي يسير في نفس اتجاه وسرعة الحادثة ، فكلانا على الكرة الأرضية . الثانية هي الزمن المقاس من قبل المشاهد المتحرك بالنسبة للحادثة . فالحادثة اعلاه اذا سجلت من قبل مشاهد يسير بسرعة عالية ويمر قرب الكرة الأرضية ، فان وقت حدوثها والزمن الذي تستغرقه الحادثة يختلفان عن الزمن الذي يُسجَّل من قبل المشاهد الساكن بالنسبة للحادثة . ومثال ذلك اذا كنت تدخن سيجارة واستغرقت خمس دقائق في ساعتك لتدخينها بأكملها ، فان المشاهد المتحرك بالنسبة لك والذي يسير مبتعداً

عنـك سوف يـرى ان السيجارة استغـرقت زمناً أطـول (على سبيـل المثال سبـع دقائق ، الا أن هذا الزمن في الحقيقة يعتمد على سرعة المشاهد بالنسبة لـك) في ساعته لكي تحتـرق بأكملهـا . وكلاكـما صحيـح وليس هنـاك خـطأ في أي من الساعتين ، بـل كلاهمـا صحيحتان . واذا عشت خمسـين سنـة ، فبالنسبـة الى مشـاهدنـا هذا فـان عمرك سبعـون سنة ، أي أنـك في رأيه عشت سبعـين سنة وليس خمسـين سنة ، وهـو صحيح وأنت صحيـح أيضـاً لاعتقـادك أنـك عشت خمسين سنة وليس هناك خطأ ، فكيف يحدث ذلك ؟

ان الجواب على هذا السؤال ليس معقداً جداً ، ذلك ان الزمن يعتمد على سرعة الضوء . ولكن ماذا يعني ذلـك ؟ في الواقـع ان أسهل طـريقة لفهم هـذا الموضوع هي الآتية . ان المشاهد يسجل الحادثة عندما يراها ، أي عنـدما يصله الضوء . فاذا كان يبتعد عنك بسرعة كبيرة فان الضوء الصادر منك سوف يأخـذ وقتـاً أطول للوصـول اليه كلما ابتعـد ، وهكذا فـانه لا يـرى الحادثـة التي تحدث عنـدك الا بعد فتـرة من الزمن ، وهـذه الفترة تكبـر كلما ابتعد عنـك وذلك لأن الضوء يأخذ وقتاً أطول للوصول اليه ، أي انه لا يرى الحادثـة في وقت حدوثهـا ولكنه يراها بعد فترة من الزمن تعتمد على مكانه الآني بالنسبة لك وسرعتـه التي يبتعد بها عنك . لذا فانه اذا سجل بداية تدخينك لسيجارتك عندما يمر قربك ، فانه سوف لن يراها في اللحظة التي تنتهي فيهـا لأنه في تلك اللحـظة سيكون في مكـان يختلف بالنسبـة لك وفي حالة ابتعـاد عنك ، وبسبب سـرعته فـان الضوء يستغـرق زمناً أطـول لكي يصله ، وفقط بعد ان يصله الضـوء فـانـه سيـرى ان السيجارة انتهت . وهنا فاننا نرى ان حادثة معينة استغـرقت زمناً معينـاً بالنسبـة لمشاهد ، وزمناً آخر بالنسبة لمشاهد أخر . وبذلك فان الزمن قد تغير .

ولتوضيح تـأثير الضـوء على الـزمن نذكـر المثال التـالي : نفرض أن هنـاك جـرماً سمـاوياً يبعـد عنا مسـافة كبيـرة جداً ، ولنفـرض أنها تسعاً وأربعـين سنة ضوئية . أي انه على مسـافة بعيـدة جداً بحيث ان الضـوء الصادر منـا يستغرق

تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصله ، وكذلك فان الضوء الصادر منه يستغرق تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصلنا . فاذا كان هناك شخص جالس في هذا الجرم وينظر الى الأرض بتلسكوب فانه لا يرى الحوادث التي تحدث على الأرض الا بعد تسع وأربعين سنة . ولذا فان هذا المشاهد اذا كان ينظر الينا فانه سيرى حرباً تدور على الأرض ، وهي الحرب العالمية الثانية . وليس هناك ما يدل له على أن هذه الحرب انتهت لأن الضوء الذي صدر عن الكرة الأرضية والذي يدل على أن الحرب قد انتهت لم يصله بعد . لذا فهو لم ير شيئاً منه بعد .

ولنتطرق الآن الى موضوع آخر يساء فهمه من قبل معظم الناس ، وهو المكان . فانت اذا كنت جالساً في الزاوية اليمنى من الغرفة فانك تشغل ذلك الحيز من الفضاء الموجود في الزاوية اليمنى من الغرفة . فاذا قمت وجلست في الزاوية اليسرى من الغرفة فانك قد غيرت الفضاء الذي يشغله جسمك ، أو هكذا يبدو لك لأن جدران الغرفة وزواياها والكراسي والدار والشوارع الخ كلها بنفس المكان الذي كانت فيه دائماً . ولكن الحقيقة هي أنها كلها في مكانها بالنسبة لك ، وبالنسبة لبعضها بعضاً ، إلا أنها كلها في حركة دائمية في الفضاء لأنها كلها على الأرض والأرض تدور في الفضاء . لذا فان الفراغ الذي يشغله الدار والشوارع الخ بتغير مستمر ، والذي معناه ان الفراغ الذي يشغله جسمك في تغير مستمر أيضاً ، وليس هناك سكون . وبالنسبة لك فان اعتقادك انك تتحكم في الفراغ الذي يشغله جسمك عندما تتحرك من احدىٰ زوايا الغرفة الى زاوية اخرى ليس سوى وهماً وسوء ادراك للحقائق . فليس هناك من يستطيع التحكم بالفراغ الذي يشغله جسمه مثلما انه ليس هناك من يستطيع أن يسيطر على الزمن ، فكلاهما متغيران ويمران عبرنا دون سيطرة لنا عليهما . وقد بينت علوم الفيزياء الحديثة ان الزمان والمكان شيء واحد ومظهريهما المختلفين يعتمدان على المشاهد .

والسبب في اعتقادنا بأننا نستطيع أن نتحكم في الفراغ هو لأننا ساكنون

نسبة الى الكرة الأرضية ، وعندما نتحرك من زاوية الى اخرى ثم نتوقف فاننا نتوقف نسبة الى الكرة الأرضية والأشياء التي عليها .

ان اجسامنا تشغل فضاءاً معيناً في زمن معين . وكلاهما متغير باستمرار . فنحن وما حولنا عبارة عن موجودات تشغل مكاناً معيناً في وقت معين . أو بكلمة أخرى كل شيء عبارة عن حوادث تحدث في اماكن معينة في أوقات معينة . فوجود الشيء عبارة عن حدوثه في مكان معين في زمان معين . والمكان والزمان يختلفان بالنسبة للمشاهد اعتماداً على مكانه وزمن تسجيله للحادثة . اي اعتماداً على احداثيات المكان والزمان له . وهذا ما يسمى بنظرية الزمكان .

لذا لا يمكن تحديد شيء معين دون تعيين الوقت ايضاً من جانب المشاهد وتعيين الاحداثيات للمشاهد الذي يقيس مكان وزمن ذلك الشيء بالنسبة الى هذه الاحداثيات . فاختلاف المشاهد معناه اختلاف كل شيء . فنقول ان القمر في مكان كذا في وقت كذا بالنسبة لنا على الأرض ، ولا يمكن القول ان القمر في مكان كذا فقط . واذا قيل ذلك فانه مغالطة لا يقبلها الفيزيائيون وعلماء الفلك . فالمكان وحده غير كافٍ لتعيين حادثة معينة . وهذه الحقيقة موجودة حتى في حياتنا الاعتيادية ، فتقول كنتُ في مكان كذا في الساعة كذا ، ولا يمكنك القول كنتُ في مكان كذا فقط لان السامع يريد معرفة وقت وجودك في ذلك المكان .

ولتسهيل حساب تتابع الحوادث اتخذ الانسان بعض المقاييس لقياس الزمن هي الأيام والسنين والساعات الخ كما اتخذ مقاييساً لقياس الفراغ (الطول والعرض والارتفاع) هي الامتار والكيلومترات الخ . ولتثبيت الحوادث لدينا نعطيها احداثيات المكان والزمان ، وهي احداثيات بالنسبة لنا ولمحورنا لأن مشاهداً آخر يسير بسرعة اخرى سوف يعطي احداثيات زمان ومكان اخرى مختلفة لنفس الحوادث ، وكلانا على صواب . ويستطيع الانسان ان يتصور تغير المكان أو الفراغ ولكن تغير الزمن ، كأن يكون اسرع أو ابطأ ، فان تصوره

يصعب عليه بسبب تعوده على عدم مقدرته السيطرة على الزمن كما يسيطر على المكان . وسبب ذلك سرعتنا البطيئة بالنسبة لسرعة الضوء .

لغز التوأمان المتناقض :

نفرض أن توأمين يولدا ، وفي لحظة ولادتهما يترك احدهما على الأرض ويوضع الآخر في مركبة فضائية تتحرك بسرعة متسارعة (أي ذات تعجيل) قريبة من سرعة الضوء . وبعد سنة من زمننا ترجع المركبة الفضائية الى الأرض . فهل سيكون التوأمان بنفس العمر ؟ سؤال يبدو غريباً !! لأننا نتوقعهما أن يكونا بنفس العمر طبعاً ، ولكن الحقيقة ليست كذلك لأن احدهما سيكون أكبر عمراً من الآخر . فكيف يحدث ذلك ؟ الجواب على هذا السؤال معقد جداً ، ولكننا سندخل في محاولة مبسطة لشرح الموضوع وملابساته .

عندما تترك المركبة الفضائية الأرض فان الأرض لا تبقى في مكانها لأنها في حركة مستمرة في الفضاء . لذا فان ما عندنا هو الآتي : الأرض والمركبة الفضائية تلتقيان في المكان (أ)، ثم تفترقان ، ثم تلتقيان مرة أخرى في المكان (ب) . ولما كان الزمن يعتمد على المشاهد ، وكما ذكرنا سابقاً فانه ليس من الصحيح تعيين المكان فقط بل علينا أن نعين المكان والزمان ، ولذا يجب أن نقول أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية التقتا في المكان (أ) في زمن معين ، ثم مرة اخرى في المكان (ب) في زمن آخر . أي انهما التقتا في الحادثة (أ) ثم في الحادثة (ب) على محور الزمان ـ مكان (المسمى محور الزمكان) لاحظ ان الحادثة توصف بواسطة مكان وزمان .

نفرض الآن اننا نأخذ خطين (أو مسارين) بين نقطتين على الأرض (التي هي كروية) ، وعلى سبيل المثال القاهرة وطوكيو . وسؤالنا هو أي المسارين أقصر ؟ الجواب يمكن ايجاده بتقسيم كل مسار الى مقاطع متتابعة تتكون من خطوط مستقيمة قصيرة ، ثم نجمع أطوال جميع هذه المقاطع للحصول على

الطول الكلي للمسار . والمسار الذي يمتلك طولاً أقصر هو المسار الأقصر . ومثال التوأمين يمكن تحليله بطريقة مشابهة بواسطة تقسيم مسار الأرض في محاور الزمكان ومسار المركبة الفضائية في محاور الزمكان أيضاً الى أقسام متتابعة تتكون من مقاطع مستقيمة (لاحظ ان التقطيع ليس في الفراغ ولكن في محاور الزمكان ، فتخيل) ، ثم نستعمل « متري » الزمكان لحساب الزمن المستغرَق الكلي الذي يقترن مع كل من المسارين . وكما أن المسارين على الكرة يمتلكان أطوالاً مختلفة فان الحركات المختلفة بين حادثتين (تقعان على محاور الزمكان) تستغرق أوقاتاً مختلفة . وهذا معناه أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية تستغرقان زمنين مختلفين للتحرك من (أ) الى (ب). اي أن الأرض سوف تستغرق زمناً معيناً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) ، بينما المركبة الفضائية تستغرق زمناً مختلفاً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) . لذا فان التوأمين سيمتلكان عمرين مختلفين . وللتعرف على ذلك ندخل في الموضوع التالي :

يُعرَّف «متري»الزمكان بانه معادلة الزمكان للفترة بين حادثتين قريبتين. وتعرّف فترة الزمكان كما يلي : اذا كانت حادثتان قريبتان (اي أنهما حادثتان تحدثان قرب بعضهما بعضاً في الفراغ واحداهما تلي (تتبع) الأخرى بعد زمن قصير جداً) تفصل بينهما مسافة صغيرة جداً (م) في الفراغ ، واحداهما تحدث بعد الأخرى بزمن قصير جداً (ز) ، فان الفترة الزمكانية تعرف على أنها ($أ^{٢}$ ـ $ز^{٢}$) حيث $أ = \frac{م}{س}$ ، س = سرعة الضوء . والفترة الزمكانية ليس لها دور في حياتنا الاعتيادية ولكنها مهمة عند التعامل مع الفيزياء النووية .

في الزمكان ، ليس هناك مفهوم مثل « بنفس الوقت » أي ان مفهوم التعاصر لا يوجد . وبدلاً من ذلك تستعمل مفاهيم مثل « شبه الزمان » Timelike» و « شبه المكان » Spacelike « والصفر (أو شبه الضوء)»
Null (or Light like)

فالحوادث في الزمكان التي يمكن ربطها بعضها ببعض (اي أنها بامكانها أن تصل الى بعضها بعضاً) تسمى حوادث « شبه الزمان ». وهذا معناه انه باستطاعة مشاهد غير متسارع (أي لا يسير بتعجيل ، فأما أن يكون ساكناً أو متحركاً بسرعة ثابتة) ان يكون حاضراً في كلتا الحادثتين المتتاليتين (وفي قياساتنا العادية تسمى الحوادث غير المتعاصرة) .

والحوادث التي لا يمكن ربطها بعضها ببعض تسمى حوادث « شبه المكان ». وهذا معناه انه بالامكان ايجاد مشاهدٍ ما ليس باستطاعته أن يكون في كلتا الحادثتين المتتاليتين . (وفي قياساتنا الاعتيادية تسمى الحادثتان متعاصرتين) .

والحوادث التي يمكن ربطها بعضها ببعض بواسطة اشارة ضوئية (أي انه بالامكان ارسال إشارة ضوئية من احداهما الى الأخرى) تسمى حوادث « شبه الضوء ». وهذا معناه أن الفترة الزمكانية تساوي صفراً .

والتعاريف الأساسية صحيحة لأن هناك سرعة قصوى لا يستطيع الجسم المادي أن يصلها (وهي أقل من سرعة الضوء دائماً) .

التعريف الآخر المهم يسمى « الجيوديسي » وهو الخط الذي يمتلك أقل تحدب . لذا فان اقصر مسار بين نقطتين على الكرة هو الجيوديسي .

والآن نتطرق الى الموضوع المهم .

ان مسار الضوء في الزمكان يوصف بواسطة جيوديسي الصفر (أي جيوديسي شبه ـ الضوء) . والمشاهدون غير المتسارعين هم اولائك المشاهدين الذين يسيرون على جيوديسات شبه ـ الزمان على متري الزمكان (انظر تعريف المتري) . وهذا معناه أن اكثر الحركات استقامة بالنسبة لمشاهد في الزمكان هي الحركة غير ـ المتسارعة .

وفي الزمكان ، فان المسار الذي يمتلك أطول زمن بين حوادث مرتبطة

شبه ـ زمانية هو جيوديسي شبه ـ زمان . وهذا يوصف على أنه الكسل الزمكاني ، أو كسل الزمكان . أي ان الحوادث غير ـ المتسارعة تتحرك ببطء شديد . فهي تأخذ أسهل المسارات في الزمكان والتي تستغرق أطول الأوقات . من ذلك يتضح أن التوأم الذي يوضع في المركبة الفضائية سيكون أصغر سناً من التوأم الذي يترك على الأرض لأن الأرض ، وكأي جرم سماوي ، تتحرك بحركة غير متسارعة ، لذا فانها تستغرق وقتاً أطول للذهاب من (أ) الى (ب) .

عودة الى الزمن :

يتضح لنا مما جاء سابقاً ان الزمن متغير ، وبالامكان أن يكون طويلاً أو قصيراً اعتماداً على سرعة المشاهد . ونظرياً ، اذا تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فاننا نستطيع أن نتحكم بالزمن . ولكن وجد انه ليس بامكان أي جسم مادي أن يصل الى سرعة الضوء مهما كان عِظَم القوة التي تدفعه . وهذا هو أحد قوانين كوننا . ولكن هذا القانون لا يسري داخل الأجرام السماوية المسمات « الثقوب السوداء » . فقوانين الفيزياء التي نعرفها لا تستطيع أن تصف لنا ما يحدث داخل هذه الأجرام .

ان الأوقات التي نقيسها تعتمد على سرع المشاهد والحادثة المقاسة والضوء . والضوء عبارة عن طاقة على شكل جسيمات صغيرة تسمى الفوتونات . وهذه الفوتونات تسير بسرعة هائلة (٣٠٠,٠٠٠ كم / الثانية) بحيث لا يوجد هناك جسيم آخر في كوننا يسير بهذه السرعة . فهذه السرعة هي حدود حركة المادة في كوننا . لذا فان هذا الحد هو أحد حدود المادة الموجودة في كوننا . وهذا الحد لا ينطبق على ما هو (لامادي) .

وتمتلك الفوتونات خواص المادة والموجات معاً . ويمكن النظر اليها على أنها جسيمات مادية تمتلك كتلة مكافئة معينة ، أو موجات بأطوال مكافئة معينة . وفي الوقت الحاضر فاننا نعرف انه بالامكان تحويل المادة الى طاقة

وبالعكس ، وأن الهيئة المادية للذرة هي في الحقيقة عدد كبير من الجسيمات الأصغر التي تظهر وتختفي بالتحول من شكل الى آخر . كذلك فان الالكترونات والبروتونات والنيوترونات لم تعد تعتبر أصغر مكونات الذرة . فكل واحد من هذه المكونات عبارة عن عالم بحد ذاته يتكون من مكونات أصغر وهي في تغير وتحول مستمر ، وهذه المكونات تظهر وتختفي على شكل حوادث ولا يمكن تحسسها اكثر من ذلك . ولا يزال البحث مستمراً لمعرفة المزيد عن هذه الجسيمات . وقد تكون كل واحدة من هذه الجسيمات عالماً بحد ذاته ، اذ كيف يتم التحول فيها من شكل الى آخر !! وبامكاننا أن نذهب أصغر فأصغر حتى نصل الى الوجود اللامادي ، وهو شيء لا يمكننا تصوره بطبيعة الحال ، ولكن بامكاننا أن نفرض ، وبطمئنينة ، انه يشكل مكونات الطاقة . أي أننا نتعمق أصغر فأصغر في الحجم والنوعية من المادة الى الطاقة الى اللامادة (وقد لا يكون هذا التصور صحيحاً ، فلا أحد يعرف ماهية الشيء اللامادي) .

وعندما نصل الى عالم الجسيمات الصغيرة والمكونات الأساسية فان باستطاعتنا أن نتكلم فقط عن حوادث تقع في أماكن معينة في أوقات معينة . والمكان الذي لا تحدث فيه الحوادث في زمن معين يسمى الفراغ . والفراغ لا يعني انه لا يوجد شيء (اي لا يعني العدم) لأن الفراغ يمتلك مكوناته الخاصة التي تجعله فراغاً وجزءاً من الوجود (وليس عدماً) . والحادثة عبارة عن تأثير معين في مكان ووقت محددين . وهذا ينطبق على الفوتونات بطبيعة الحال ، أي على الضوء . لذا فان الضوء جزء من الوجود المادي لأنه ينشأ في داخله وينبعث منه . لذا نستنتج انه لو لم يكن الوجود المادي موجوداً لما كانت هناك فوتونات ، ولما كان هناك ضوء ، ولما كان هناك قياس للزمان أو المكان ، ولما كان هناك شيء (لا زمان ولا مكان) .

ما هو الزمن اذن ؟

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال ولكننا بطبيعة الحال نستطيع أن

نفرض انه نوع من الوجود ، وقانون مخلوق ، ويتغير مقداره مع تغير سرعة المشاهد . وكذلك فانه يعتمد على سرعة الضوء التي تعتبر ثابتة بالنسبة لجميع المشاهدين سواءاً كانوا متسارعين أو غير متسارعين . وقد يبدو هذا صعب التصور (وهو فعلاً كذلك) ولكن الفروق بين سرع المشاهدين المختلفين يعوض عنها باختلافهم في تحديد التعاصر (لحدوث الحوادث) بحيث أن سرعة الضوء تبدو دائماً نفسها بالنسبة لجميع المشاهدين مهما كانت كيفية حركتهم .

الزمن اذن ليس شيئاً ازلياً كما قد يظن بعض الناس . فعندما لم تكن المادة موجودة لم يكن الضوء موجوداً ولم يكن الزمن موجوداً أيضاً . والضوء عبارة عن طاقة ، لذا فانه تأثير معين في الوجود . والزمن عبارة عن متغير يعتمد على سرعتي الضوء والمشاهد . لذا فان الزمن ليس سوى تأثيراً آخر في عالم المادة والطاقة . وبصورة أكثر أساسية فانه نوع من الوجود . وهو ليس شيئاً أزلياً . ولو فني الوجود وأصبح عدماً فان الزمان والمكان ينعدمان أيضاً . وقد يكون تصور انعدام المكان أكثر سهولة (لأننا نستطيع أن نتصوره ينكمش الى نقطة صغيرة) ولكن تصور انعدام الزمن أكثر صعوبة .

وتقول لنا النظرية النسبية أن الزمان والمكان ليسا سوى شيئاً واحداً ، وشعورنا بمقدار كل واحد منهما يعتمد على سرعة حركتنا بالمقارنة مع سرعة الضوء . ولو تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فاننا سوف نستطيع أن نرى الماضي والمستقبل . وسبب ذلك أن المستقبل مستقبل لأن الضوء لم يصلنا منه بعد ولذا فليس باستطاعتنا معرفته بعد ، والماضي ماضي لأن الضوء منه كان قد وصلنا ولذا فاننا علمناه . فاذا استطعنا أن نتحرك أسرع من الضوء سيكون باستطاعتنا أن نذهب الى الامام (من ناحية الزمن) لكي نرى الحوادث التي لا زالت لم تصلنا بعد لأننا لسنا مجبرين على انتظارها حتى تصلنا ، بل نحن نذهب اليها . أي أننا نستطيع أن نرى المستقبل نسبة الى حالتنا . ولنأخذ مثلاً حادثتين (أ) و (ب) (لاحظ أننا هنا نتكلم عن الحوادث في محاور

الـزمكـان) . نفـرض أن الحـادثـة (أ) تمتلك محـاور زمكـان وتحـدث قبـل الحادثة (ب) من ناحية الـزمن . فاذا بقينـا في الحادثـة (ب) فان الحـادثة (أ) ستكون المستقبل بالنسبة لنـا لأننا يجب أن ننتـظرها حتى تصلنـا . ولكن اذا كان باستطاعتنا أن نتحرك بسرعة أعلى من سرعـة الضوء سيكـون بامكـاننا الـوصول اليها في لحظة حدوثها ، أي اننا سنستطيع رؤية المستقبـل . ولما كـانت الحوادث متتالية الواحدة بعد الأخرى من ناحية الزمن ، فاذا استطعنا أن نتحرك بالسـرعة الكافية (في الزمكان) فـاننا سـوف نتمكن من رؤية الحـوادث قبل أن تحـدث ، وأثناء انتظارها في طابور الزمن (كما قد يمكننا أن نتصور) . وكذلك بامكاننا أن نرجع الى الوراء في الزمن لرؤية الحـوادث الماضيـة لأنها مخزونـة في طابـور الزمن بعد حدوثها . وفي الواقع يمكننا أن نتصـور أنفسنا والحـوادث كما يـلي من ناحيـة الزمن : أما أننا ساكنـون والحوادث تمـر علينا (أي ان الـزمن يمر علينـا وهو مـا يحـدث لنا في حيـاتنا الاعتيـادية) وذلـك عندمـا تكون سـرعتنا أبـطأ من سرعـة الضوء ، أو أن الحوادث تنتـظر (أو مخزونـة) في طابـور ونحن نمر عليهـا ذهابـاً واياباً (من ناحية الزمن) وذلك عندما تكون سرعتنا أعلى من سرعة الضوء .

وكل هذا يحدث اذا كان الكون موجوداً (أو بكلمة أخرى اذا كان الوجود الذي نعرفه موجوداً) . فاذا لم يكن كـوننا مـوجوداً فـان الزمن سـوف لن يكون موجوداً ايضاً . فالزمن لم يكن موجوداً قبل وجود الكون . وأي شيء موجود قبل انبثاق الكون ، أي قبل انبثاق الـزمن لا يخضع لعـامل الـزمن . ونحن نستعمل كلمة قبل لا لتعني التسلسل في الحوادث لأن ذلك يتضمن زمناً . ولكن المقصود أن أي شيء مـوجود في عـالم خارج عـالم الزمن فـانه لا يخضـع لعامـل الـزمن . كذلك أن أي شيء موجود في عالم خارج عالمنا وكوننا (أي انه خارج الكـون بلا مكان) فانه لا يخضع لقوانينه من ناحية التكوين أو الفراغ ، لأن الفراغ نوع من الوجود الذي يخص عالمنا وما هـو موجـود خارج هـذا الكون لا يخضـع له ، أي ليس هناك وجوب بأن يكون على هيئة معينة تشغل فراغاً يشبه الفراغ الموجود في

عالمنا . وعندما نقول خارج هذا الكون فاننا لا نعني أنه خارج هذا الكون من ناحية الوجود المادي أو الفراغي أو الحجمي أو الجسمي ، فهذا التعبير سببه قصور اللغة التي يستعملها الانسان والتي كان قد طورها للتعبير عن حاجاته التي حوله ، ولكننا نقصد أنه نوع من الوجود ليس ضرورياً أن يحتاج لأن يشغل حيزاً ، لأن الحيز من صفات هذا الكون ، وذلك الشيء موجود بدون هذا الكون (وهو المقصود بتعبير لا مكان) ، لذا فهو لا يحتاج أن يتصف بصفاته أو يخضع لقوانينه ما دام وجوده غير محتاج للكون وفراغه وزمانه . فهو نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع للزمن ولا للفراغ لأنه ليس بحاجة اليهما ما دام انه موجود سواءاً كان كوننا موجوداً أم لا . اي انه موجود سواءاً كان الزمن والفراغ موجودين أم لم يكونا موجودين . ولذا فهو أيضاً لا يخضع لقوانين الكون الأخرى ولا يتأثر بتأثيراتها . فلا تؤثر فيه الحرارة ولا الجاذبية ولا الأشعة ولا الطاقة ولا أي شيء لأن هذه الأشياء كلها من كوننا ووجدت بوجوده .

والآنْ يمكننا أن نلخص ما جاء ذكره بالنقاط التالية :

ـ الزمان والمكان جزء من وجودنا وكوننا وهما متغيران .

ـ هناك نوع واحد من الوجود الذي يظهر على شكل زمان ومكان . والزمان والمكان ليسا سوى وجهين من وجوه هذا الوجود . وقد بينت النظرية النسبية أن الزمان والمكان هما شيء واحد في الحقيقة، ويسمى وحدة ـ الزمكان . وعندما نلاحظ الوجود فان هذه الوحدة تنقسم ، ويدرك المشاهدون المختلفون كميات مختلفة من أجزاء هذه الوحدة (على شكل زمان ومكان) وهذا معناه أن سرعة حركة المشاهد لها أثرها في كيفية ادراك وتحسس الواقع وكميات الزمان والمكان .

ـ اي شيء موجود بدون الحاجة الى عالمنا لا يحتاج الى زمان ، ومكان ولا يؤثران عليه . ولذا فانه خالد من وجهة نظرنا .

السؤال :

يمتلك الانسان عقلاً مفكراً ، وهذا العقل فضولي الطبع وفيه رغبة جامحة لمعرفة ما يحيط به وما يراه حوله . وتنقسم المعرفة التي يحصل عليها العقل الى نوعين بصورة عامة . المعرفة الأولية أو الأساسية ، وهي المعرفة التي يتلقاها الانسان خلال أحاسيسه كتحسس الحرارة وشم الروائح الخ . والمعرفة الثانوية ، وهي المعرفة التي يركّبها العقل باستعمال المعارف الأولية . ويولد العقل مفاهيم جديدة تقع خارج عالم الأحاسيس بالرغم من أنها قد تكون مستقاة من المعاني التي تجلبها اليه هذه الأحاسيس . وكمثال على ذلك ، اذا سخنا الماء الى (١٠٠) درجة مئوية فان الماء سيغلي . وقد نتحسس هاتين الظاهرتين (التسخين والغليان) بتكرار كثير ولكن أحاسيسنا لن تستطيع معرفة أن التسخين هو سبب الغليان ، وإنما العقل هو الذي يستنتج ذلك . ولكي يحصل على هذه العلاقة السببية فان العقل يجب أن يسأل فيما اذا كانت هناك علاقة بين التسخين والغليان أولاً . فيسأل : لماذا تتبع هاتان الظاهرتان احداهما الأخرى في كل مرة ؟ أو قد يسأل : هل هناك علاقة بين الظاهرتين ؟ وما نريد توضيحه هنا هو أنه بمعزل عن المعلومات الأولية التي نحصل عليها بواسطة حواسنا فان جميع المعلومات الاخرى يركبها العقل بواسطة الاسئلة . وقد يقول البعض ان العقل سيعرف أن سبب الغليان هو التسخين لانه سيرى ان الظاهرتين تتبع احداهما الأخرى . والجواب على ذلك هو أن العقل في هذه الحالة سيتمكن من رؤية ظاهرتين منفصلتين تتبع احداهما الأخرى ، ولكنه لا يتمكن من استنتاج ان احداهما ستسبب الأخرى دائماً . لذا فانه سوف لن يستنتج أن الغليان سيتبع التسخين دائماً . ولكنه يستطيع استنتاج ذلك بعد أن يسأل نفسه : لماذا يتبع الغليان التسخين ؟ ما هي العلاقة بينهما ؟ وقد لا يسأل العقل هذه الأسئلة جهرة ، ولكنه يسألها بصمت أو بمفهوم ادراكي .

فالعقل يسأل ولذا نقول انه فضولي ، ثم يجمع المعلومات الأولية أو

السابقة ويربط بينها للحصول على جواب السؤال . وبهذه الطريقة بنىٰ الانسان نظرية المعرفة ووصل الى ما وصل اليه من العلوم والتكنولوجية . والحديث الذي يظهر وكأنه ليس جواباً على سؤال هو في الحقيقة جواب على سؤال ضمني . فنقول أن عمراً يخبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يخبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يخبر زيداً لكي يكون الموضوع معلوماً عند زيد فيما لو أراد زيد أن يعرف ، أي فيما لو سأل ، لأن رغبته او احتياجه لمعرفة الموضوع هو السؤال . ووضع معرفة الموضوع عند زيد عبارة عن خزن المعلومات في ذهنه لكي يكون بامكانه استخراجها والاستفادة منها عند الحاجة أو الرغبة ، أي عند السؤال .

لذا يتضح أن معظم، ان لم تكن كل، المعرفة الثانوية يتم الحصول عليها فقط بعد طلبها ، أي السؤال عنها ، ثم معرفة الجواب على السؤال . والجواب قد يكون كلمة واحدة أو كتاباً كاملاً من الشرح والتفصيل . فالسؤال هو الرغبة في الحصول على المعرفة والجواب هو الحصول على المعرفة المبتغاة .

انواع الجواب :

للحصول على المعلومات المعقدة التي نتعامل معها في حياتنا الاعتيادية ، هناك ثلاثة أنواع من الأجوبة الممكنة ، ونوع الجواب المطلوب يعتمد على نوع السؤال الذي يُطرح . وهذه الأنواع هي :

١ ـ الجواب المباشر ، أي اثبات الشيء المطلوب مباشرة ، أو معرفة المجهول بصورة مباشرة ، كأن تسأل شخصاً عن اسمه فيخبرك .

٢ ـ اثبات صحة أو خطأ العكس أو النقيض وعندها نحصل على النتيجة أو الجواب لسؤالنا بأنه خطأ أو صحيح تبعاً لصحة أو خطأ العكس أو النقيض . مثال ذلك انك اذا أردت أن تبرهن أن زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة فانك

تفرض أنها ليست ١٨٠ درجة ، وهو العكس ، فتصل الى نتيجة خاطئة لا يمكن تصحيحها الا بفرض أنها ١٨٠ درجة .

والمنطق يجمع بين (١) و(٢) اعلاه لأنه سلسلة من الاحتمالات وكل احتمال سؤال وجواب . كما أن عملية الاستقراء التي يقوم بها الذهن وعملية قبول الاحتمالات أو رفضها عبارة عن سلسلة من الأسئلة والأجوبة .

٣ ـ النوع الثالث من الجواب هو اثبات أن السؤال خطأ ، أو ان فيه خطأ منطقياً أو ضمنياً كأن يحمل نقيضه فيه أو يحمل في طياته افتراضات غير مقبولة أو غير مسلَّم بها ، أو افتراضات تعارض جوهر وتعريف الموضوع المسؤول عنه . ولذا فليس هناك جواب على سؤال كهذا لأنه ليس هناك سؤال . وذلك لأننا عندما نسأل سؤالاً ونتوخى جواباً يجب أن يكون هذا السؤال سؤالاً مقبولاً ومنطقياً ولا يتعارض مع التعريف للموضوع الذي تحت البحث ، والا فانه ليس سؤالاً لانه سوف ينافي قاعدة طلب المعرفة ويصبح تبذيراً للوقت والجهود ويصبح عبثاً وهذا مرفوض .

فالجواب تفسير لشيء مبهم يطرح في السؤال ، واذا لم يكن هناك سؤال فليس هناك جواب . ومثال ذلك اننا اذا عرّفنا البقرة بأنها حيوان لا يتكلم ، ثم سأل سائل هل البقرة الفلانية تتكلم اللغة العربية ، فليس هناك جواب على هذا السؤال ، لأن السؤال خطأ منطقي بموجب التعريف ويحمل في طياته افتراض أن هناك احتمالاً بأن البقرة تتكلم وهو ما يعارض التعريف حيث أن البقرة لا تتكلم أصلاً . ولو تصورنا أننا نضع المعلومات التي تخص تعريف البقرة في حاسبة الكترونية ، وضمن هذه المعلومات نضع أن البقرة حيوان لا يتكلم ، فماذا سيكون جواب الحاسبة للسؤال السابق ؟ لا بد وانه سيكون جملة موضوعة في برامج الحاسبة مثل « السؤال غير منطقي »، لأنها سوف لن تجد ما تجيب به على السؤال . واذا ادعى السائل بأنه لا يتضمن في ذهنه هذه الفرضية متعمداً ، فنقول أن السؤال يحمل هذه الفرضية سواءاً عرف السائل ذلك أم لم يعرف ،

وان حمل السؤال لهذه الفرضية الضمنية يجعله في قائمة الأخطاء المنطقية التي لا يمكن قبولها من قبل العقل السليم . ومثاله كمثال السؤال بأي سرعة تطير السلحفاة في حين أن السلحفاة لا تطير أصلاً فأي سرعة يمكن توقعها كجواب لهذا السؤال ؟ أما اذا قال قائل ولكن الجواب على هذا السؤال هو أن السلحفاة لا تطير ، فنقول ان هذا الجواب ليس جواباً للسؤال أعلاه . وانما هو جواب للسؤال التالي : هل ان السلحفاة تطير؟ عندئذ يكون الجواب أن السلحفاة لا تطير . أما السؤال بأي سرعة تطير السلحفاة فانه خطأ منطقي بموجب تعريف السلحفاة .

هذا التفصيل لانواع السؤال والجواب يفيدنا في الفصل القادم في اثبات عدم منطقية الاسئلة التي تطرح بخصوص كينونة الله تعالى .

الفصل الحادي عشر

الصفات الالهية :

كانت مسألة الله والروح ، ولا زالت ، موضوعاً طال الجدال فيه بين المدارس الفكرية المختلفة . وهذا الجدال سببه سوء الفهم لبعض المسائل المتعلقة بمفاهيم الوجود العميقة . والنقطة الأساسية في الاختلاف هي العلاقة بين الروح والمادة .

في هذا الفصل سوف نحاول توضيح هذه المسائل ، خاصة واننا الآن نعرف أن الزمن متغير ، وأنه مجرد جزء آخر من عالمنا .

تعريف الله تعالى :

عندما نتكلم عن تعريف الله تعالى لا يمكننا أن نُعرّف ماهيته ، فهذا شيء لا يمكن لأي شيء أن يصل اليه سواه . وما نستطيع أن نتكلم عنه هو صفات الله وكونه خالق كل شيء والمالك لهذا الكون . فنقول أنه خلق كل شيء وانه مطلق الكمال ، وبدون نقص أياً كان نوع هذا النقص ، وانه لا يحتاج الى أي شيء لأن من يحتاج الى شيء خارجي ليس الهاً ذلك لأن الحاجة هي السعي نحو

تعويض خسارة أو شيء مفقود ، والخسارة نقص ، ولكن الله كـامل . ويـوصف الله تعالى بصفات عديدة مثل العظمة والعدالة والجمال والـرحمة والعلم . . الـخ وبالقول انـه مصدر الخـير ، وليس فيه شر لانـه ليس بحاجـة الى الشر حيث انه خلق كل شيء وقادر على أن يفعل كل شيء ، وهو موجود بدون الأشياء كلهـا . وهو الخالق الوحيد ، وكل الأشياء الأخرى مخلوقة .

ولكن هناك من يعترض على القول ان صفات الجمال والعـظمة والعـدالة والرحمة . . . الـخ كلها مـوجودة في الانسـان وهو الـذي ينسبها الى الله . وهنـا يمكننا القول بثلاثة أشياء . الأول ، ان الانسان لا يمكنه أن يصف الله باستعمال مفـاهيم لا يعرفهـا (هو نفسـه) . الثاني ، ان الانسـان لا يستطيـع استعمـال أوصاف لا توجد في عالمه لوصف الله تعـالى لانه لا يعي هـذه المفاهيم ولا يمكن للآخرين أن يفهموها . الثالث ، بما أن الله خلق الانسان على درجـة كافيـة من الذكاء فانه بالامكان ايداع مفاهيم هذه الصفات عنـده لكي يستطيـع أن يتعرف عـلى الخالق ، وبخـلاف ذلك فـان الانسان لن يكـون قادراً عـلى التعـرف عـلى خالقه . وعلى أي حال ، قد يمتلك الله صفاتاً أخرى لا نعرفها لأننا لسنا بحاجة لمعرفتها ، وليس مهماً أن نعرفها لانه ليس من المتـوقع أن نعـرف كل شيء وليس هناك ما يدعو الى ذلك . وحتى لو عـرفناهـا فاننـا سوف لن نفهمهـا لأن مفاهيم كتلك لا توجد في عالمنا أو في تصوراتنا . ولتوضيح النقـطة الأخيرة نضـرب مثلاً بسيطاً هو محاولة شرح النظرية النسبية لشخص امي لا يمتلك المعـرفة أو الخلفيـة العلمية التي تؤهله لفهمها . وعلى أي حال ، يمكننا هنا التـأكيد عـلى أن صفات الله تعالى التي ذكرناها هي بعض صفـاته لأنها لا تنـاقض ما خلق من الأشيـاء . وهو الذي وضـع بعضها فيـها خلق . ولما كـان الانسان مخلوقـاً واعياً وذكيـاً فقد استطاع أن يدركها .

هل ان الله مخلوق ؟

من أهم الأسئلة التي تطرح دائماً هو السؤال التالي : اذا كـان الله قد خلق

كل شيء فمن خلق الله ؟ و (برتراند رسل) فيلسوف الانكليز وفخرهم هو الآخر سأل هذا السؤال الذي سأله العاقل والجاهل من قدامى الوثنيين من قبله . ولما كان الجواب لهذا السؤال مستحيلاً فان الماديين يتخذون ذلك تبريراً معقولاً للاستنتاج الذي ينتهون اليه بأن الله ليس موجوداً . ولكن تبريرهم هذا ليس معقولاً أبداً لانه في حالة استحالة معرفة الجواب لهذا السؤال فان ذلك بحد ذاته ليس برهاناً على عدم وجود الله . وكل ما يعنيه هو أننا لا نعرف الجواب . وعدم معرفة الجواب لأي سؤال كان لا يقود الى استنتاج شيء آخر . بالاضافة الى ذلك أن الايمان بعدم وجود الله يجب أن يكون نتيجة لبرهان عدم وجوده ، وليس فقد عدم المقدرة على برهان وجوده .

ونحن هنا سوف نحاول أن نبحث في تعقيدات هذا السؤال التي لا يعيها الماديون بالرغم من ادعائهم العلمية . ولكي نفعل ذلك نرجع الى أنواع الأجوبة الممكنة للاسئلة التي تطرح ، والتي ذكرناها في الفصل السابق . فالجواب المباشر غير ممكناً لهذا السؤال لاننا لا نعرف كنه الله تعالى وليس هناك من طريق للرجوع بالزمن الى ما قبل خلق الكون لنتعرف على ما كان يحدث قبل خلق الزمان والمكان (ان كان هناك زمان قبل زمننا) ، ولا نستطيع الخروج من هذا الكون لنرى ما يوجد خارجه (ان كان هناك ما يشبه المكان الذي نعرفه) . النوع الثاني من الجواب هو فرض العكس او النقيض وايجاد حل له ثم استنتاج الجواب لسؤالنا . وواضح أن هذه الحالة لا تنطبق على سؤالنا . بقي النوع الثالث من الاجابة وهو امكانية أن تكون هناك افتراضات في السؤال تجعله سؤالاً غير منطقياً أو تجعله يحمل تناقضاً .

نرجع الى تعريف الله تعالى، حيث قلنا انه خلق كل شيء بما في ذلك المكان والزمان والمادة والطاقة والحياة التي نعرفها على الأرض (وربما حياة أخرى في مكان آخر) الخ . وعليه فهو لا يخضع لقوانينها لانه موجود بدونها لانه هو الذي أوجدها . اذن ان الله لا يخضع للزمان والمكان . وعند تمحيص السؤال

المطروح نستطيع ملاحظة وجود تسلسل زمني متضمَّن فيه ويتضمن أن الله خاضع للزمن . فالسؤال من الذي خلق الله يتضمن أن هناك شيئاً آخر كان موجوداً قبل وجود الله وذلك الشيء هو الذي أوجد الله في فترة زمنية لاحقة . كما أن السؤال يتضمن أن الزمن يسري ليس فقط على الله بل على خالقه الذي نريد معرفته حيث انه لم يكن قد خلق الله في الفترة الزمنية قبل خلقه له . لذا فهو يعيش تحت قانون الزمن الذي يسري عليه أيضاً . والسؤال في الواقع يفرض أن الزمن قانون مطلق وأزلي وليس قانوناً مخلوقاً ، وان الزمن موجود قبل وجود أي شيء وان كل شيء يخضع له . وهذا ليس صحيحاً كما رأينا (في الفصل السابق) ، فالزمن ليس سوى قانوناً واحداً من قوانين عالمنا ومجرد وجه من وجوهه ، وهو عبارة عن تأثير يعتمد على سرعة المشاهد وسرعة الضوء ، ويمكن أن يكون صفراً (نظرياً) ، أي ينعدم ، وكما انه لا يوجد شيء بدون وجود عالمنا ، لا حجر ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ليس هناك زمن .

فالسؤال اذن يتضمن افتراضات خاطئة تجعله خطأ لا يمكن قبوله وليس له جواباً لانه ليس سؤالاً . وهو يشبه السؤال عن سرعة طيران السلحفاة . والماديون عليهم أن يبرهنوا أن الزمن قانون أزلي قبل طرح السؤال . وهم يؤمنون بالعلمية ولكنهم بعيدون كل البعد عنها . والأسوأ من ذلك أنهم غافلون عن ذلك تماماً . فهم لا يعلمون ، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون . ولعل الحق أن نذكر في هذا المكان الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿[1]**واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**﴾ .

خلود الله :

اذا كان الله لا يخضع للزمن فهو خالد . وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد فناء كل شيء . وفناء كل شيء معناه فناء الكون وما فيه والله موجد الكون

(١) سورة البقرة، الآية ١٣ .

وما فيه ، فهو موجود بدونه . والقول أن الله موجود قبل كل شيء وبعد فناء كل شيء قول نسبي (بالنسبة لنا) لأننا لا نفهم قياس الأمور الا بالزمن . والزمن مخلوق كما نحن مخلوقون ويفنىٰ كما نفنىٰ وفناؤه لا يؤثر على وجود الله ، وليس لوجود الله علاقة بالزمن سوى انه خالقه وسيده . فالله تعالى خالد .

الله عالم الغيب :

اذا تحرك مشاهد بسرعة أسرع من سرعة الضوء فانه (نظرياً) يستطيع أن يرى المستقبل والماضي . ولما كان الله هو الذي خلق الضوء والزمن فانه يستطيع أن يرى (أو بتعبير أدق يعلم) ويقدّر ما سيحدث مستقبلاً بالنسبة للزمن . ولذا فهو يعلم المستقبل وليس هناك ما هو عجيب في ذلك بل ان تصور هذا الموضوع سهل . (لاحظ ما قلنا في الفصل السابق عن اختزان الحوادث في متتاليات زمنية) .

وكلمة «نظرياً» التي استعملناها هنا تنطبق على حالتنا نحن الخاضعون لقوانين هذا الكون لأن أجسامنا تتكون من المادة . ولكنه ليس نظرياً بالنسبة لشيء لا مادي . وكما رأينا سابقاً فان سرعة الضوء هي الحد الأعلى لسرعة حركة الجسيمات المادية ، أو بتعبير أعم المادة ، ولكنها ليست الحدود لما هو لا مادي . فليس من الضروري أن تكون هناك أي حدود لسرعة حركة الأشياء اللامادية ، أو الأشياء التي تتكون من نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع لقوانين كوننا الفيزيائية . وقد لا تكون هناك ضرورة للحركة لما هو لا مادي لأنه لا يحتاج أن يشغل فراغاً معيناً ثم يتحرك فيه ليشغل فراغاً آخر . فالموضوع بالنسبة له قد يأخذ أشكالاً وادراكات من نوع آخر لا نألفه نحن البشر على الأرض .

الله والموت :

هل ان الله ينام ؟ وهل يستطيع الله أن يميت نفسه ؟

كثيراً ما يسأل الناس اسئلة كهذه ويفكرون في هذه المواضيع ، خاصة

الماديون منهم . ويتأثر الكثيرون بها ، خاصة النشأ الجديد من الأجيال الطرية . ولذا فان الدخول في هذه المواضيع ، وان كان شائكاً لا يخلو من فوائد في توضيح بعض المسائل المهمة والرد على الالحاد .

وبالنسبة للسؤال الأول نستطيع القول انه وبموجب تعريف الله على انه خالق الأشياء كلها وانه ليس بحاجة الى شيء ، فانه لا يحتاج الى النوم . وهذا الجواب يكفي الآن ، وسوف نتطرق الى هذا الموضوع من وجهة نظر أخرى قريباً . وقبل الخوض في موضوع الموت لا بد من التعرف على بعض المفاهيم المهمة المتعلقة به لتوضيح الفرضيات التي تتضمنها هذه الأسئلة .

وهذه المفاهيم هي :

- تعريف الكائن الحي بموجب مفهومنا البشري .
- ماهية الموت .
- ماذا يحصل للكائن الحي عند الموت .

وبعد توضيح هذه المفاهيم نستطيع أن نحدد فيما اذا كان الله بحاجة الى النوم أو انه خاضع للموت . فاذا كان الله لا يخضع لقانون الموت فان الاسئلة أعلاه تصبح لا معنى لها سوى انها جمل لغوية لا تحمل أي أهمية فكرية .

ان الكائن الحي هو الكائن الذي يتحرك ويتنفس ويتغذىٰ وينمو ويتكاثر الخ . والموت ظاهرة تصيب الكائن الحي فيفقد قابليته على الحركة والتنفس والتغذي والنمو والتكاثر الخ وتفقد خلاياه قابلية الدفاع عن نفسها ضد الأحياء المجهرية والكائنات الحية الأخرى فيتفسخ الجسم ويتناثر ويرجع الى مكوناته المادية الأولية . هذه ظواهر مادية لا جدال فيها .

ولكن الكائن الحي ليس فقط مادة . فالمادة وحدها لا تتحرك أو تتغذىٰ أو تتكاثر . ولذا فانه يتكون من مادة ومحرك لتلك المادة . وهذا المحرك هو الفرق بين الحياة والمادة . والكائن الحي يفقد ذلك المحرك عند الموت . فما هو هذا

المحرك ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟

ان المسألة التي يجب توضيحها هي أن هذا المحرك كان موجوداً في الجسم الحي ، وبعد الموت لم يعد موجوداً فيه ، أو بتعبير آخر ان له سلطاناً وتأثيراً على المادة التي نسميها الجسم وبعد الموت يفقد سلطانه هذا .

ويقول بعض الناس انه ليس سوى تنظيماً معيناً للخلايا والحوامض الامينية والبروتينات والـ DNA فيها . وعندما يفقد الكائن الحي هذا التنظيم يتوقف عن الحركة ويموت . ولكن هذا ليس تفسيراً للموت ، بل هو وصف لما يحدث عند الموت . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا التنظيم موجود في جميع الخلايا الحية ، وعند الموت تفقد جميع خلايا الجسم هذا التنظيم مرة واحدة بحيث لا تجد خلية واحدة في الجسم الميت باقية على ذلك التنظيم ، بل لو فحصت جميع الخلايا لوجدت ان التنظيم قد دُمِّر. والذي يلاحظ هنا أن عملية تدمير هذا التنظيم عملية منظمة وتسري على جميع الكائنات الحية بنفس الطريقة والمقدار . فما هو سبب هذا التنظيم ؟ ومن الذي يحافظ عليه طالما الكائن الحي حياً ؟ ثم ما هو سبب تدميره عند الموت ؟

ان الكلام عن هذا التنظيم وسبب وجوده وسبب تدميره لا يختلف عن سبب الحركة في الكائن الحي وسبب توقفها عندما يموت الكائن الحي ، وعن سبب عدم تفسخ جسم الكائن الحي وسبب تفسخه بعد الموت . الا أن الفرق هو أن هذا التنظيم لا يمكننا ملاحظته بالعين المجردة ، ولكن توقف الكائن الحي عن الحركة وتفسخه يمكن ملاحظتهما بالعين المجردة . لذا يتصور بعض الناس ان هناك فرقاً بين تلك الظواهر ، وأن وجود تنظيم الخلية وحوامضها وبروتينها والـ DNA الخ أو عدم وجود هذا التنظيم هو سبب الحياة أو الموت . ولكن الحقيقة أن الحياة هي سبب ذلك التنظيم ، وأن هذا التنظيم والحركة والنمو والتكاثر الخ كلها من ظواهر الموت ، وان تنظيم الحوامض الامينية في الخلايا أو تدميره ليس سبباً في الحياة أو الموت ، ولكنه أحد ظواهر الحياة والموت ، والفرق

بينهما بالضبط كوجود الحركة أو عدم وجودها في الكائن عند الحياة أو الموت . وهذه ظواهر مادية بأجمعها . نرجع الى سؤالنا مرة اخرى ، ما هو المنظم وما هو المحافظ على ذلك التنظيم ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟ شيء واحد أكيد يمكن قوله هنا وهو أن المنظم يفقد سلطانه على تنظيم الحوامض الامينية عند الموت . نستنتج اذاً ان للموت ظاهرتين تبعاً لما تقدم . الظاهرة الأولى ، بموجب التعريف المادي ، هي توقف الجسم عن الحركة والتكاثر والنمو الخ . والظاهرة الثانية هي فقدان محرك المادة لسيطرته على تلك المادة .

ولكن أين هذا المحرك ؟ هل هو في داخل الجسم أم في خارجه ؟ هناك احتمالان . الأول ان محرك المادة موجود داخل الجسم عندما يكون الكائن حياً وعند الموت يفقد الجسم هذا المحرك . عندئذ نسأل الاسئلة التالية : أين يذهب هذا المحرك ؟ هل يبقى في عالمنا هذا (الذي يتكون من فراغ وزمن) أم انه ينتقل الى عالم آخر ؟ (لاحظ أننا هنا استعملنا مصطلح ينتقل بدلاً من يرتحل لان الإرتحال يتضمن حركة ويتطلب زماناً ومكاناً لاننا نستعمله لتوضيح تغيير المواضع ، والذي ربما ليس ما يحدث عند الموت . فالزمان والفراغ محدودان الى الوجود المادي . ومصطلح الانتقال قد يصف ما يحدث بصورة أفضل لانه انتقال نوعي خلال برزخ) . وعلى أي حال فان السؤال الذي يتبع هو : ما هو ذلك العالم ؟ وهل يحتوي على فراغ وزمان مثل عالمنا أم أنه وجود من نوع آخر لا يحتاج الى المكان والزمان ؟

ويمكن القول هنا انه لما كان تأثير المحرك يسري في عالمنا من خلال الجسم ، فان ترك الجسم يجعله غير مؤثر بالطريقة التي نتحسسها . وبما أنه ليست هناك أدلة على أن تأثيراً كهذا يسري خلال مادة اخرى (أي خلال جسم آخر) لاننا لا نرى الناس تُبعث من الموت بأجساد أخرى ، لذا بامكاننا أن نفرض وبطمأنينة ، ان المحرك يبقى معلقاً بشكل من الأشكال ، واذا فرضنا انه يبقى في عالمنا فان ذلك يعني انه سيشغل حيزاً . ولما كانت الحالة ليست كذلك

لاننا نفرض انه لا مادي ، لذا فانه بالامكـان أن نفرض انـه ينتقل الى عـالم آخر من الوجود . وهذا الوجود الآخر هو نوع من الوجود ليس بـالضرورة أن يكـون منفصلاً عن عالمنـا ، ولكنه درجـة اخرى من الـوجود. ولا يستـطيع المحـرك أن ينتقل اليه طالما انه مرتبط بالجسم (أي بالعالم المادي) . ولكن عندما ينقطع هذا الارتباط بواسطة الموت يصبح باستطاعته الانتقال الى العالم الآخر . وقد يستطيع أن ينتقل مرة اخرى الى عالمنا تحت ظروف خاصة . وبكلمـة أخرى فـان المحرك (الروح) بامكانه أن ينتقل الى / ومن العالم الآخـر تحت ظروف خـاصة . ومـا يفصلنـا عن ذلك العـالم هو حـاجز نـوعي لا تستطيـع أجسامنـا (أي المادة) أن تخترقه لاننا لسنا مخولين أو مؤهلين لتجربة كهذه ، ولكن المحرك مؤهل لها .

وليكن مـا قلناه هنـا كافيـاً الآن ، وسوف نـرجع اليـه عنـدمـا نتكلم عن العلاقة بين الروح والمادة حيث أننا سنوضح هذا الموضوع بالتفصيل هناك .

الاحتمـال الثاني ان محـرك المادة لا يـوجد داخـل الجسم الحي ولكنه شيء خارجي موجود خارج جسم الكائن الحي وبطريقة ما يؤثر على جسمه (أو بتعبير آخر على هـذه الكتلة من المادة التي نسميهـا الجسم) فيحركـه ويسبب فيه النمـو والتكاثر الخ . وهنا فان هناك شيء أكيد وهو ان ارتباط المحرك بـالجسم في هذه الحالة ، والوسط الذي يسري خلاله تأثير هذا المحـرك على الجسم ليسـا ارتباطـاً مادياً ولا وسطاً مادياً ، والا لرأينـاهما وللمسنـاهما . لـذا يجب أن يكونـا ارتباطـاً لا مادياً ووسطاً لا مادياً . وهنا نسأل السؤال التالي : أين يـوجد هـذا المحرك في هذه الحالة ؟ هل هـو في عالمنـا أم في عالم آخـر ؟ وماذا يحـدث له ولتـأثيره عنـد الموت ؟ وهل هناك محرك واحد يحرك كـل الكائنـات الحية أم هنـاك محرك واحـد لكل كائن حي ؟ وفي الواقع فان الجواب عـلى هذه الاسئلة ليس سهـلاً . ولكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الارتباط بين الجسم ومحركه ينقطع عند الموت . ومـا يمكن التأكيد عليه أيضاً هـو أن لكل كـائن حي محركـه ، وذلك بسبب اختـلاف رغبـات الكائنـات الحية وتعـارض متطلبـاتها التي تـدفعهـا لقتـل بعضهـا بعضـاً

للحصول على الغذاء أو غيره ، ووتدمير بعضهـا بعضاً . ولعـل ذلك أوضـح ما يكون عند الانسان حيث نجد الناس مختلفين في آرائهم الى حد التناقض في كثير من الأحيان ، ويتصارعون حتى الموت وبعضهم يتلذذ في قتل الآخرين أو انـزال الآلام بهم . فلو كان المحرك واحداً لجميع الكائنات الحية لَسَيَّرها بطريقة أفضل للجميع دون اللجوء الى الـدمار والقتـل والآلام ، لان هذه الآلام تصيب ذلـك المحـرك نفسه وليس من المعقـول أن يسبب المحرك تعـاسة نفسـه وآلامهـا لعـدم ضـرورة ذلك . كـذلك عنـدمـا يتلذذ جسم بـانـزال الآلام بجسم آخـر يحـدث التنـاقض لان المحرك (اذا كـان واحداً لجميـع الأجسام) سيشعـر بـاللذة والألم بنفس الوقت ، أي انه سيكون سعيداً وتعيساً في الوقت ذاته ، وهذا معناه وجود المتناقضين في شيء واحد ووقت واحد وهـو مستحيل لان البـديهيات العقليـة تقر بمبدأ عدم التناقض .

ومهما كانت الحالة فان المحرك شيء لا مادي وذلك لعدم امكاننا رؤيته أو لمسه ، ولكن بالامكان رؤية تأثيره الـذي هو الحيـاة . ولعله من المناسب هنـا أن نـذكر أن هنـاك أنواعـاً كثيرة من الحيـاة عـلى الأرض . وعـادة فـانها تصنف الى فيروسات ونباتات وحيوانات وبشر . وبعضها يتكاثر بالانشـطار وبعضها يتكـاثر بالبذور وبعضها يتكاثـر بالبيـوض وبعضها بـالولادة . ويتكـاثر بعضهـا بأشكـال أخرى مثل أقلام النباتات والبراعم الخ . وبعضها يموت اذا قطع جـزء مهم منه ولكن بعضها لا يموت حتى لو قطع معـظمه . وهـذه الأنواع كلهـا موجـودة على الأرض وليس هناك ما يدعونا للاعتقـاد أن الأرض هي الكوكب الـوحيد الـذي توجد فيه حياة .

وبعـد أن قلنا كـل هذا نـرجـع الى سؤالنـا : هـل يستـطيـع الله أن يميت نفسه ؟ وللإجابة عليه ، نقول : ان السؤال يحمل فرضيات كثيرة يجب تمحيصها أولاً والتأكد من صحتها أو عدم صحتها .

الأول : السؤال يتكلم عن المـوت ، وقد رأينـا أن للمـوت ظـاهـرتـين .

الأولى توقف الجسم عن الحركة والنمو والتكاثر الخ . فان كان هذا هو المقصود في السؤال فانه يتضمن أن لله جسماً مادياً . وهذا مرفوض لان الله هو الذي خلق المادة ولا يمكن ان يخضع لقوانينها كما رأينا . الثانية فقدان المحرك (الروح) وتأثيره على الجسم ، وهذا أيضاً يتضمن أن الله جسم مادي وفيه روح وهو مرفوض لنفس السبب السابق .

الثاني : ان الكلام عن موت الله يتضمن افتراض احتمال خضوع الله لقانون الموت . ولما كان هذا القانون من قوانين كوننا ، ولما كان الله هو الذي خلق الكون ولا يخضع لقوانينه ، لذا فالسؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فانه مرفوض أيضاً .

الثالث : ان الكلام عن موت الله تعالى يتضمن افتراضاً هو أن حياة الله تعالى مشابهة لحياتنا على الأرض لأن الموت هو نقيض حياتنا . ولما كانت حياة الله ونوع وجوده لا يشبه وجودنا بموجب تعريف الله الذي مر سابقاً . لذا فان السؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فهو مرفوض أيضاً .

الرابع : ان الكلام عن موت الله يتضمن أن الله حي وبالامكان ان يموت بعد فترة زمنية معينة . وهذا تسلسل زمني ، والذي معناه أن الله يخضع للزمن ، وهو مرفوض ايضاً لأن الزمن أحد قوانين الكون وليس شيئاً ازلياً كما مر سابقاً .

يتضح اذن ، ان السؤال : هل يستطيع الله أن يميت نفسه ، يحمل افتراضات خاطئة ويعتبرها بديهيات مسلّم بها مما يجعله سؤالاً خاطئاً . لذا فليس هناك جواب . ومَثَله كَمَثَل السؤال : هل يستطيع الحجر أن يلد . فالسؤال عن موت الله ليس سوى جمل لغوية لا معنى حقيقي لها في عالم الوجود . فتفكر كيف يلحد الجاهلون .

اما مسألة نوم الله تعالى، فانه من الواضح ان حاجة المخلوقات للنوم سببها اعياء الجسم والله لا جسم له فهو ليس بحاجة الى النوم .

ان المشكلة تكمن في صعوبة محاولة تطبيق القوانين التي خلقها الله تعالى عليه وهي محاولة خاطئة بطبيعة الحال ، ولذا فانها لا تلتقي مع المنطق على أي ارضية كانت لانها تقع خارج عالم المنطق الذي خلقه الخالق الذي خلق كل شيء . وبطبيعة الحال فان اتباع أي طريق يقع خارج الطريق الصحيح فانه ضلال وتيه ولا يمكن أن ينتهي بنتيجة حقيقية ، أو معقولة .

خلود الانسان في الجنة أو النار :

اذا أخرج الله تعالى الانسان من تأثير سلطان الزمن الذي هو ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، فانه سوف يكون خالداً ، وليس ذلك مستحيل على الذي خلق الانسان والزمن معاً .

ان الله جعل الزمن يحكم الانسان في هذا الكون وهذه الحياة وجعل الانسان خاضعاً له ، وبالامكان أن يخرج الله الانسان من تأثير هذا القانون فيصبح الانسان خالداً . هذا على فرض فناء الزمن يوماً ما . ونحن لا نقول أن هذا ما يفعله الله جل وعلا ، فانه هو وحده يعلم ما يفعل ، ولا نقول أن هذا هو فعلاً ما سيحصل . ولكننا نقول بامكانية وقوعه وعدم تعارض امكانية هذا الوقوع مع المنطق .

قِدَم العالم والعلم القديم :

الفلسفات الاسلامية التي سادت العالم الاسلامي ، وخاصة في فترة حكم العباسيين ، افترقت في الاتجاهات الفلسفية لتفسير قِدَم علم الله وربطه بالزمن وسموه العلم القديم ، ومفاده هل أن الله يعلم بالكون وجزئياته قبل خلقه كما يعلمها بعد خلق الكون ؟ أم ان الكون الحاضر يختلف عن ما كان في علم الله قبل خلقه ؟ والملاحظ أن الحديث في موضوع كهذا يفترض أن الله خاضع للزمن ، ويفترض أن الزمن موجود قبل خلق الكون . لذا فهو مرفوض من أساسه ، فليس هناك قديم وجديد (أو حديث) بالنسبة لله . ان القِدَم زمن

مقاس بالنسبة لنا ولا علاقة له بوجود الله وكينونته وعلمه . ولقد كتب ابن رشد مقالته في فصل المقال عن موضوع قِدَم العلم هذا مدافعاً عن الفلاسفة ورداً على علماء عصره الذين اتهموا الفلسفة بالكفر مفنداً آراءهم مما يدل على تأثير المسألة وانشغال أصحاب الفكر فيها في ذلك الوقت . وبالرغم من أن ابن رشد دافع دفاعاً جيداً ، إلا أنه لم ينتبه الى أن الله لا يخضع للزمن وليس هناك علم قديم أو حديث . وليس هناك زمن قبل خلق الكون لان الزمن جزء من كوننا هنا ، وأن القول بِقِدَم الله يتضمن سريان الزمن على الله ، وهو غير ممكن .

مسألة خلق القرآن :

مسألة أخرى شغلت المسلمين وهي مسألة خلق القرآن ، وهل أن القرآن ازلي في علم الله أم انه خُلق لحاجة البشر اليه ولم يعلم الله به من قبل ؟

ان هذه المسألة ، ومسألة العلم القديم ، سببتا حروباً ومذابح بين المسلمين وكانوا كلهم في خطأ جسيم حيث افترضوا أن الله خاضع للزمن مثلما هم خاضعون له ، فساووا بينهم وبين خالقهم من هذه الناحية ، وهذا كفر ، لقد كفروا دون أن يشعروا بذلك ، وتقاتلوا وكفّر بعضهم بعضاً ، وراحوا يفسرون القرآن بما تشتهي أنفسهم وبما تصوروه صحيحاً . لقد اتبعوا الظن ولا يغني الظن من الحق شيئاً . ولو أنهم انتبهوا لما هو مقصود في قوله تعالى:[1] ﴿ **وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ لما سمحوا لأنفسهم أن يخوضوا في موضوع كهذا . فصدق قول رسول الله (ص) حين قال : تنقسم امتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها هلكى ، الا واحدة . وهذه الواحدة هي التي قال فيها الله تعالى[2] ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون** ﴾.

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٦ .

من هـذا نـرى أن أصحـاب الفكـر والفلسفـة يخـوضـون في امـور كثيـرة لاعتقـادهم صحتها بسبب قلة المعلومـات المتوفـرة لديهم . ونـرى أيضاً خـطورة وجسامة أخطائهم والنتائج المرتتبة على ذلك .

الخلاصة :

يتكون الكون من مكان وزمان وحـوادث متواصلة الحـدوث . وبما ان الله هو الذي خلق الكون فلا يخضع لقوانينه . فهو لا مادي ولا يشغل حيزاً وفراغـاً معيناً ولا يخضع للزمن . لذا فهو خالد وسـرمدي ولا بـداية لـه ولا نهاية ، لان البداية والنهاية ، مسائل نسبية زمنية . وليس له شبيه ولذا قال جل مـن قـال : ولم يكن له كفؤاً احد .

واذا كـان الله لا يخضـع للزمن وهـو الـذي خلق الـزمن ، فهـو يعلم مـا سيحدث في المستقبل لان المستقبل مستقبل بالنسبة لنـا زمنياً وليس بـالنسبة لله . والله حي لا يمـوت لأن الموت يتضمن زمنـاً . كما أن خلود الانسـان في الجنـة أو النار أمر ممكن وذلك باخـراج الانسان من سلطان الـزمن . وليست هناك أهميـة فكـريـة للكـلام عن قِـدّم العلم والعلم القـديم ، فليس هنـاك علم قـديم أو حديث . والكلام عن قِدَم القرآن أو إحداثـه كـالـدوران فـي الحلقـة المفرغـة فليس هنـاك قرآن قـديم أو حديث . ولا يمكن القـول بأن الله قـديم لأن ذلـك يتضمن سـريان الـزمن على الله جـل وعـلى الا اذا كـان المقصـود انـه لا يخضـع للزمن .

من مآثر الامام علي بن أبي طالب في هذا الخصوص :

لا بد لنا قبـل الانتهاء من هـذا البحث أن نتطرق الى بعض أقـوال الامام عـلي بن أبي طالب ، المـأثـورة في هـذا الصـدد ، والتي كـانت ولا زالت الهـامـاً لا متناهياً للعلم في أبعد آفاقه وللفلسفة الالهية في اعلى مراحلها ، فقـال عن الله تعالى ؛

(فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة لا يكون الا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره . ان قيل : كان ، فعلى تأويل ازلية الوجود ، وان قيل : لم يزل ، فعلى تأويل نفي العدم) .

وقال : (لا تصحبه الأوقات ، ولا تردفه الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده والابتداء أزله) .

وقال : (لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه) .

الى أن قال : (وان الله سبحانه وتعالى يعود بعد فناء الدنيا وحده ، لا شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها ، كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ، ولا مكان ، ولا حين ، ولا زمان ، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء الا الواحد القهار ، الذي اليه مرجع جميع الأمور) .

الفصل الثاني عشر

الروح :

قلنا سابقاً ان المادة عندما تتحول الى كائن حي فانها تمتلك شيئاً جديداً وهو الحياة ، وقد سميناها المحرك ، أو الروح . والسؤال الذي سوف نحاول الاجابة عليه في هذا البحث هو : هل هناك روح تختلف في كينونتها عن المادة ؟ أي هل ان الكائن الحي يتكون من شيء واحد، وهو المادة فقط كما يزعم الماديون ، أم من شيئين ، هما المادة والروح ؟

وهذا السؤال يأخذنا الى مشكلة الفلسفة التي استمرت على مر العصور ، والى معترك الصراع بين المدارس الفكرية حول ما اذا كانت هنالك روح أم أن الوجود بأكمله مادة فقط . وفي الواقع ظهرت ثلاث مدارس فكرية على مر العصور . المدرسة الأولى تعتقد بوجود المادة وحدها وليس هناك روح وهي المدرسة المادية . المدرسة الثانية تعتقد بوجود الروح فقط وتزعم انه ليس هناك مادة ، وان ما يسمى المادة هو تصورنا عن الوجود فقط وهذه هي المدرسة المثالية . المدرسة الثالثة تؤمن بوجود المادة والروح معاً وتقع المدرسة الاسلامية ضمن هذه المدرسة . والفكر السائد في عصرنا الحاضر ، وخاصة في أوربا ، هو

الفكر المادي بعد أن تم التخلي عن المسيحية . ونحن نود أن نشير هنا الى أنه اذا كانت المسيحية لها مشكلاتها التي جعلت الفلاسفة والمفكرين يتخلون عنها فان هذا لا يعني أن الحل الآخر الوحيد هو المادية . ذلك لأننا اذا صححنا المشاكل التي تعاني منها المسيحية بواسطة فكرة أخرى أو مفهوم آخر فاننا نستطيع أن ندعي ثنائية الوجود (أي المادة والروح) مرة اخرى دون أي مشكلة أو أي تناقض . ويتضح أن مشكلة الفلاسفة الأوربيين المعاصرين ، والذين يولد معظمهم على التعاليم المسيحية ، هي أنهم عندما تخلوا عن المسيحية لم يأخذوا الأديان الأخرى بنظر الاعتبار والتمحيص . حيث أنهم اعتبروا المسيحية أقدس الأديان الموجودة ، ولما أصبحت غير مقبولة لديهم ، أصبحت بقية الأديان غير مقبولة ايضاً ، وبذلك رفضوا فكرة الله ، ثم بدأوا يفلسفون أصل فكرة الله ومن أين أتت فخرجوا بالنتيجة السحرية التي تقول أن الانسان هو الذي خلق فكرة الله . وهو قصور واضح في التفكير لأن الفلاسفة يجب أن يبحثوا عن الحقيقة أينما كانت ، وعليهم ان يمحصوا كل الأفكار المطروحة وكل الأديان . واذا تخلوا عن فكرة ما عليهم اعطاء التبريرات المنطقية الكافية . ولكي تتضح تفاهة الفلاسفة الماديين أنظر ماذا يقول الفيلسوف الانكليزي (برتراند رسل) عن الاسلام فهو يقول ([1]والسكان(*)، ، ولكي يتخلصوا من الجزية تركوا المسيحية بكثرة للدخول في الاسلام) .

وبطبيعة الحال فان (رسل) يكذب ويفتري على الاسلام ، فالجزية في الحقيقة هي مقدار ضئيل من المال تُفرض على الذمي لقاء اعفائه من الخدمة العسكرية ولقاء كثير من الضرائب التي يدفعها المسلمون لقاء توفير الامن والخدمات وتسقط عن الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والفقراء، وهذا

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤١٤ .

(*) يقصد أهل الكتاب الذي أصبحوا تحت السيطرة الاسلامية بعد الفتوحات .

المقدار البسيط لم يكن واجباً الا على الرجل الذي يستطيع الحرب ، فاذا أعطاها تدرأ عنه واجبه . فهل يُعقل ان انساناً يغير دينه ويذهب الى الحرب لكي لا يدفع هذا الثمن البخس ؟ وهل يُعقل أن يكون هذا الثمن باهظاً كما يدعي (رسل)خاصة وان المسلم يدفع اكثر منها على شكل زكاة ؟ وبطبيعة الحال فان (رسل) لم يكن يبحث عن الحقيقة كما يجب على الفلاسفة ،بل أقصى ما كان يبحث عنه هو ايجاد ما يسند ادعاءه المادي . ويا ليته كان يجد الوقائع التي تسند ادعاءه فعلاً بدلاً من الأكاذيب التي يحشو بها عقول قومه . والفلاسفة الأوربيون الذين كانوا يؤمنون بوجود الخالق كانت تجابهم صعوبات كبيرة لانهم لم يستطيعوا أن يبرروا معتقدات الكنيسة التي كانت تشكل المشكلة ، فقد كانوا محدودين بحدودها التي لعب الانسان بها كثيراً .

وهناك مشكلة اخرى يمكن ملاحظتها في تفكير الفلاسفة ، خاصة الاوربيين منهم ، تلك انهم تستحوذ عليهم فكرة محاولة تفسير الوجود على أنه يتكون من شيء واحد ، أما المادة وأما الروح . و (فرويد) أيضاً حاول أن يفسر سلوك الانسان على أنه مرتبط بشيء واحد وهو الجنس . وهذه الفكرة يمكن ملاحظتها على تفكير الكثير من المفكرين . ويبدو الآن أن فكرة المادة قد تبخرت واتضح أن المادة ليست سوى وجهاً من وجوده هذا الوجود ، وهو الوجه المحسوس من العالم . وهناك وجهان لهذا الوجود هما المادة والعقل ، أو ما نطلق عليه الجسم والروح بالنسبة للانسان . والسؤال الآن هل أن المادة هي تصورات العقل عن الوجود ؟ أم ان العقل نفسه ليس سوى المادة آخذة طابعاً آخر ؟ أم أنهما شيئاًن متميزان يتكونان من نوع آخر أكثر أساسية من الوجود ؟ هذا ما سنحاول أن نتعرف عليه في ما يلي .

ان نكران وجود الله يتزامن معه نكران وجود الروح دائماً . ذلك لأنه اذا اعترفنا بوجود الروح فان ذلك يقودنا الى الاعتراف بما وراء المادة والذي يقودنا على الاعتراف بوجود الله . وبالرغم من أن المفروض في الفلاسفة أن يبحثوا عن

الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقـة ، فانهم ليسـوا كذلـك ، الا القليل ، القليـل جداً ، منهم . والملاحظ أنهم كبقيـة الناس (ولكنهم أكـثر ذكاءاً) يحملون فكـرة معينـة ويحاولـون جمـع الأسبـاب لتبريـر هذه الفكـرة . وبـطبيعـة الحـال فـانهم يختلفون في درجة تحيزهم الى الفكرة التي يحملونها مسبقاً .

وبالنسبة لموضوعنا ، العقل والمادة ، فان احـدى الأفكار تقـول أن العقل والمـادة هما شيء واحـد ولكن الاختلاف بينهـما درجة . وهـذا المفهوم تشـير اليـه الاكتشـافات الجـديدة في علـم الفيـزياء والآراء الحـديثـة في علـم النفس . ولكن الاكتشافات العلمية وبعض الآراء غير الـواثقة في علم النفس أدت الى نـوع من التشويش وعدم الوضوح .

(بـرترانـد رسل) يقـول ([1]يجب القول ان التمييـز القديم بـين الـروح والجسم قـد تبخر بسبب ان المـادة فقـدت صـلابتهـا ، وبسبب أن العقـل فقـد روحيته) . ونحن نقول أن المادة قد تكون فقدت صلابتها لانها خاضعة للتجربة العلمية ، ولكن من الصعوبة وصف العقل على أنه فقد روحيته لانه غير خاضع للتجـربة العلميـة المادية على طـريقة علوم الفيـزياء (لاحظ أننـا هنا نتكلم عن العقـل وليس الدمـاغ) . من هذا يتضـح أن أي رأي يطرح في هـذا الخصوص ليس سوى ظناً ، وانـه محدود الى حـامله . لانه ليس هنـاك من سبيل أو طـريقة أمام العلم يستطيع أن يبرهن فيها أن الـروح ليست موجـودة . ولكن (رسل) يؤكـد مرة اخـرى بالقـول ([2]ليس هناك دليـل على وجـود أي فرق أسـاسي بين مكـونات عـالم الفيزيـاء والنفس . ونحن نعرف عن كليهـما أقل ممـا كان يُعتقـد سابقاً ، ولكننا نعرف ما فيه الكفاية لكي نكـون متأكـدين من أنه لا الـروح ولا الجسم باستطاعتهـما أن يجدا مكـاناً في العلم الحـديث . فالفيـزيائيـون اختزلـوا

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٣٢ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٤ و١٣٩ .

الذرة الى سلسلة من الحوادث . ولأسباب جيدة مساوية ، يجد علماء النفس أن العقل لا يمتلك هوية الشيء الواحد المستمر ، بل سلسلة من الوقائع مرتبطة بعضها مع بعض بواسطة علاقات وثيقة معينة) . ونحن نقول انه قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للمادة ولكن ليس بالنسبة للعقل . وقصور الرؤيا سببه قصور التمييز . فالحوادث التي تكوّن المادة ليست حوادث عشوائية ولكنها حوادث منتظمة ومرتبطة بطرق وأساليب خاصة تؤدي الى تكوين الأجزاء المختلفة من الكون (أو الظواهر كما قد تسمى) ، أي أنظمة الكون . وليس هناك دليل على أن العقل مشابه لذلك أيضاً . وحتى لو فرضنا جدلاً أن ما يقوله (رسل) صحيح فالسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي هذه العلاقات الوثيقة ؟ وما هو الشيء الذي يحافظ عليها مرتبطة بعضها ببعض بهذا النظام العجيب ؟ وما هو السر وراءها الذي يحافظ عليها من الانعدام ؟ و (رسل) يستمر بالقول [(1)]ولا يستطيع حتى المتوقد ايماناً بالروحية أن يدعي معرفة الأدلة على بقاء الروح[(*)]بقدر ما يستطيع أن يتقدم به المؤرخون للبرهنة على أن السَحَرَة يبايعون الشيطان جسدياً) . وانه لواضح أن ما يريده (رسل) هو أن نموت ثم نرجع لنخبره بالجواب ، وهو ما طلبه الناس من الأنبياء . و (رسل) بطبيعة الحال يعلم أنه يطلب المستحيل ، ويتصوره سنداً قوياً لنظريته . ولكن ليس كذلك !!! فالاكتشافات الحديثة بينت عكسه وهو ما يشير اليه (كودمان) عندما يقول ان [(2)]اكلز . . . الحائز على جائزة نوبل ، تحدى رأي المائة سنة للماديين علناً بالقول أن الانسان يتكون من كلا الشيئين ، نظام فيزيائي وروح غير ملموسة ، مرتبطين بواسطة حاسبة متطورة جداً أو وسيلة اتصال متبادل وثيق ـ وهو الدماغ . وهو قد توقع التعقيدات التي تتضمنها البحوث الأكثر حداثة على

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٣٧ .

(*) اي بقاءها بعد الموت .

(٢) انظر المصدر ١٠ ـ ص ٢٦٤ .

خبرات قرب ـ الموت عندما أكد في الستينات من هذا القرن أن روح الانسان تبقى ما بعد موت الدماغ الفيزيائي) . و (رسل) يعطي أسبابه بالقول ([1]ان الصعوبة بالنسبة للعلم تنبع من حقيقة انه لا يبدو ان هناك كينونة كالروح أو النفس) . وانه لمن العجيب بالنسبة لرجل مثل (رسل) ان يشذ بهذا المقدار لكي يعطي سبباً كهذا ، ولكن من يبدأ بداية خاطئة ، ومن يحاول الوصول الى هدف خاطيء ، لا بد وأن يطرح سخافات متعثرة كهذه . وخلافاً لرأي (رسل) اننا نعتقد أن الصعوبة أمام العلم هي ليست عدم وجود شيء كالروح ولكن لأن العلم وأدواته محدودة الى العالم المادي وليس بامكانها الوصول الى ما وراء ذلك لتحسس أي شيء هناك . والعلم ، على كل حال ، لم يَدَّعِ الوصول الى حدوده القصوى بعد ، فالبحوث ما زالت مستمرة وفي تقدم وهناك الكثير الذي ما زال لم يكتشف . و (رسل) يحاول أن يرسم صورة للعلم وكأنه قهر كل شيء ووصل الى الروح فاكتشف انها غير موجودة . وهذا بعيد كل البعد عن واقع العلم . و (رسل) يُظهر لنا نقصاً رهيباً في المعلومات ، وقد يكون متعمداً ، عندما يؤكد على أن ([2]الروح ، وكما ظهرت لأول مرة في الفكر الاغريقي ، كانت تمتلك أصلاً دينياً بالرغم من أنه ليس مسيحياً . . . . والفيثاغوريون اثّروا على افلاطون ، وأفلاطون أثر على آباء الكنيسة . . . وبهذه الطريقة فان معتقد الروح على أنها شيء متميز عن الجسم أصبح جزءاً من المعتقد المسيحي) . أليس هذا غريباً !! فهل يقصد (رسل) ان مفهوم الروح لم يكن موجوداً قبل الفيثاغوريين وأفلاطون ؟ وماذا عن الأنبياء والأديان التي كانت موجودة في الشرق الأوسط كأرض الرافدين والجزيرة العربية ؟ ان ما يقوله (رسل) يدحضه التاريخ ، فمفهوم الروح كان موجوداً في الشرق قبل أن يظهر الاغريق على مسرح الأحداث ، والمسيحية لم تكن بحاجة الى افلاطون ليعلمها

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١١١ .

فكرة الروح حيث كانت هذه الفكرة احدى المفاهيم الذاتية لها منذ البداية كما هي الحال مع بقية الأديان السماوية . ونحن لا نفهم من أين أتى (رسل) بهذا الرأي وكيف توصل الى هذا الاستنتاج الساخر ، ومن الواضح انه لم يؤمن بالحياة بعد الموت كما صرح هو بذلك في مناسبات عديدة ، ولذا فانه ، وكنتيجة طبيعية ، لم يؤمن بالروح ، وقد يكون العكس . ومهما يكن السبب فان ذلك ليس مهماً . ولكننا نعتقد انه تخلى عن المسيحية، ولذا فان الباقي يتبع .

ولتفسير الوجود فان (رسل) يطرح نظريته التالية ([1]ان الشيء الذي يتركب منه عالمنا الذي ندركه ، في اعتقادي ، ليس العقل وليس المادة ولكنه شيء آخر اكثر بساطة من كليهما . فكلا العقل والمادة يبدوان متركبين[*]، والشيء الذي يتألفان منه يقع بينهما بمعنى ، وفوقهما بمعنى ، كأنه السلف الأعلى) . اذن بالنسبة (لرسل) هناك شيء ثالث أساسي . ولكن هل أن هذا الشيء مادي أو لا مادي ؟ و (رسل) يسهب في الكلام عن حوادث فيزيائية وعقلية والفروق بينهما ، ويصل الى كيفية تكوين الصور في العقل ، والتي يصعب شرحها مادياً ، فيقول ([2]ان المشكلة الحيوية هي علة الصور . وقد رأينا أنها خاضعة الى أسباب تتعلق بالذاكرة ، وهذه الأسباب التي تتعلق بالذاكرة قد يمكن اختزالها الى أسباب فيزيائية في الخلايا العصبية . وهذا هو السؤال الذي يدعو الى أن يتحول تفكيرنا باتجاه ما قد يطلق عليه المادية . وأحد معاني المادية هو الرأي القائل أن جميع الظواهر العقلية معتمدة سببياً على الظواهر الفيزيائية في المفهوم المعرف أعلاه للتبعية السببية . وسواءاً كانت هذه هي الحالة أم لا ، فانني لا أتظاهر بأنني أعرف . والسؤال يبدو لي انه نفس السؤال ما اذا

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٠ .
(*) اي انهما يتكونان من شيء آخر على شكل تركيب .
(٢) انظر المصدر ٣٣، ص ٣٠٣.

كانت العلة التي تتعلق بالذاكرة هي النهائية ، والتي درسناها دون اتخاذ القرار . ولكنني اعتقد أن معظم الأدلة تشير الى الجواب المادي على أنه الاكثر احتمالاً) . ويبدو أن الصعوبة تنشأ من محاولة نسب علة الصور الى الظواهر المادية ، والتي هي سؤال يستعصي حله بالنسبة (لرسل) ، ولذا فانه يتركه دون حل . ونحن نتساءل اذا كانت هذه هي الحالة فما هو الذي يدعوه الى القول بأنها مادية ؟ واذا كانت هناك أدلة ، كما يقول ، لماذا لا يستطيع اتخاذ القرار بصددها ؟ ان التناقض واضح في تفكيره ، وعجزه عن اتخاذ القرار لا يليق بالفيلسوف . فاما أنه يترك القضية بدون ابداء رأيه ، أو انه يسند رأيه بأدلة مقبولة اذا كانت مادية . ولكن ما يحدث هنا هو أن (رسل) لا يستطيع أن يقرر على الجواب ولكنه بنفس الوقت يزيح رأيه نحو المادية بدون أي دليل أو تبرير منطقي . والسبب الوحيد الذي نراه لهذا الموقف المتذبذب هو تحيزه ضد وجود الروح ، لان الاعتراف بوجود الروح يقوده الى الاعتراف بوجود الله وبالنسبة له فان هذا معناه الرجوع الى المسيحية ومعتقداتها التي تشكل تناقضاً لا يمكنه أن يتحمله . ولذا فانه في الواقع مُحاصَر ، ولا يمكنه الا ان يبقى كذلك . ولكنها زاوية ليست مريحة تماماً لكي يضع نفسه فيها . وهو لم يبحث عن حل لتناقضات المسيحية بواسطة مذهب آخر قد يعطيه الأجوبة لحل الغموض والالتباسات التي واجهها هناك . ولكنه ، ولكي يفر من هذا الموقف ، فانه يحاول المحاولة التالية ، وهي طلب أقل ما يقال عنه انه غير مقبول من مفكر . فهو يقول ([1]ان الصوفي نفسه قد يكون متأكداً انه يعرف ولا يحتاج الى اختبارات علمية ، ولكن اولئك الذين يطلب منهم أن يقبلوا بيِّنته سوف يخضعونها الى نفس نوع الاختبارات العلمية كتلك التي تطبق على الرجال الذين يقولون انهم ذهبوا الى القطب الشمالي) . فهو يطلب أدلة علمية ، وبطبيعة الحال أن الأدلة العلمية تتضمن تحسساً . والتحسس يتضمن المادية . وهو طبعاً يعرف ما يطلبه جيداً ، ونحن نرى انه

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٧٨ .

يطلب المستحيل لان ما وراء الطبيعة ، وبالتعريف ، ليس شيئاً مادياً ولا يمكن اخضاعه للتحسس المادي . وهذا يذكرنا بما كان يُطلب من الأنبياء ـ المعجزات . وقد قال تعالى [1]﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة**) . والأنبياء أتوا بالمعجزات ، ولكن ليس لأناس مثل (رسل) الذي يجب أن يقتنع بشيء أقل من المعجزة المادية الواضحة . وأنه لواضح أن (رسل) طلب واحدة . وهذا يذكرنا بما أراد (كاكارين) عندما قال لم أَرَ الله . وهذا يبين أن الانسان لم يتغير كثيراً خلال العصور كما قد يظن بعض الناس بالرغم من التقدم العلمي المعاصر . وقد قال تعالى[2]﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ .

اما بالنسبة للصور فقد بين الفلاسفة الاسلاميون أنها لا مادية . وحجتهم في ذلك هي كالآتي . دعنا نأخذ حالة النظر الى دار بنظر الاعتبار . ما هي الصورة التي تدركها عقولنا عن الدار ؟ والجواب يقع ضمن أحد الاحتمالات الثلاثة التالية التي تختلف عليها المدارس الفكرية . الأول أن الدار نفسه هو الصورة الموجودة في ادراكاتنا ، وهذا بطبيعة الحال مستحيل لاننا أحياناً نرى أشياء غير موجودة (حيث يخيل لنا وجودها) ، ولأن ما عندنا من الشيء المرئي هو الاشعة الضوئية المنعكسة منه فقط . الاحتمال الثاني أن الصورة المدركَة هي نتاج مادي يوجد في خلايا الادراك في الدماغ . وهذا غير ممكن أيضاً لان الصورة المدرَكة بحجمها الكبير ، وأبعادها من الطول والعرض والارتفاع ، لا يمكن أن توجد في مادة الخلايا العصبية الصغيرة الحجم . وبطبيعة الحال فاننا لا ننكر أن هناك تأثيراً ما يحدث في الخلايا العصبية لانتاج الصورة ولكن هذه الصورة المادية في خلايا المخ ليست الصورة التي يدركها العقل لانها لا تمتلك

---

(١) سورة النساء ـ الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الاحزاب ـ الآية ٦٢ .

الابعاد التي تمتلكها الصورة المدركة . وكما أننا لا نستطيع أن نضع صورة للدار تمتلك نفس ابعاد الدار على قطعة صغيرة من الورق فاننا لا نستطيع أن نضع صورة عقلية للدار على منطقة صغيرة في الدماغ ، حيث ان طبع صورة كبيرة على ما هو أصغر مستحيل ، لاحظ ان العقل يدرك الأبعاد الكبيرة للدار ، وكذلك أبعاد الأجزاء الكبيرة والأجزاء الصغيرة ، من خلال الصورة التي يدركها ، وبالطبع فانه يدرك ان حجم الدار أكبر من حجم الدماغ . وهذه كانت الصعوبة التي واجهها (رسل) .

الاحتمال الثالث الذي بقي هو أن الصورة المدرَكة للدار لا مادية وتوجد خارج المادة . وهذا هو المقصود بالمفهوم القائل ان الادراك لا مادي بطبيعته . وهذا المفهوم يسنده الثبات . والمقصود بالثبات أن الصورة التي يدركها العقل ثابتة ولا تتغير بتغير الصورة المنعكسة للدار على خلايا الدماغ . كما هي الحال عند النظر الى الدار من مسافة بعيدة . فبالرغم من أن الصورة المنعكسة عن الدار أصغر في هذه الحالة ، فان العقل يدرك نفس الصورة الأصلية حتى لو فرضنا ان ذلك يتطلب خبرة سابقة . فان الحقيقة تبقى نفسها ، وهي ان الصورة المدرَكة تبقى ثابتة بينما الصورة المنعكسة تتغير بتغير المسافة بينها وبين الدار ، والتي تؤكد الطبيعة اللامادية للصورة المدرَكة. وبذلك فان مشكلة (رسل) التي كان عاجزاً عن اتخاذ القرار بصددها قد تم حلها .

و (رسل) يعود ليقع في تناقض مع تحيزه الأول نحو المادية ، فيقول[1](وأنا اعتقد ، وعلى كل حال ، وعلى أساس نظرية المادة . . . . ان تفسيراً علمياً نهائياً لما يحدث في العالم ، اذا كان من الممكن التحقق منه ، سيشابه علم النفس أكثر من الفيزياء فيما وجدناه من فرق حاسم بينهما) . وبهذا الرأي يتضح تردد (رسل) وتذبذبه في اتخاذ القرار النهائي لتفسير طبيعة

---

(١) انظر المصدر ٣٣ ـ ص ٣٠٥ .

الوجود . وفي هذا الرأي الأخير له يمكن تحسس التناقض مع نظريته في « الشيء الثالث » الذي تتكون منه المادة والعقل . وذلك لانه اذا كان الشيء النهائي يشبه علم النفس وليس الفيزياء ، والذي معناه العقل وليس المادة ، فلا يبقى هناك مبرر للشيء الثالث الذي يطرحه (رسل) كنظرية ، والشيء النهائي هو العقل وليس المادة . ولذا فان (رسل) يشير الى ([1]ان خطأ فلسفة المادة هو الذي سبب كثيراً من الصعوبات في فلسفة العقل . . . . والعقل عبارة عن درجة ، متمثلاً بصورة رئيسية في عدد وتعقيد العادات . . . . . وكل القضايا المسلّم بها ، في كلا الفيزياء وعلم النفس ، خاضعة الى قوانين العلية النفسية ، ولكن قوانين العلية الفيزيائية ، وعلى الأقل في الفيزياء التقليدية ، يمكن صياغتها بلغة المادة فقط والتي هي ليست معلومات مسلّم بها سواءاً كانت مُستَدَل عليها أو مركبة . وفي هذا الخصوص فان علم النفس هو أقرب الى ما يوجد فعلياً) .

ان التذبذب بين ما اذا كان الشيء النهائي هو المادة أو العقل واضح عند (رسل) . وبالرغم من انه يقترب من الوصول الى حقيقة الشيء النهائي الا أن نظرية المادية تحجب صورة الواقع النهائية عنه ، وهو في الواقع لا يوضح ما اذا كان الشيء النهائي مادة أم عقل . فتارة يقول أن العقل درجة من المادة ولكنه يرجع ليقول أن علم النفس هو أقرب الى ما يوجد في الواقع . وفكرة محاولة البرهنة على أن الوجود يتكون في النهاية من شيء واحد لا زالت تستحوذ على تفكير (رسل) . وبسبب ذلك . وبسبب تصوره ان العقل والمادة ليسا سوى تركيبين منفصلين ، فانه يعتقد انه اذا مات الانسان فان التركيبين يتحطمان ، ولذا فانه من غير الممكن اعادة اجتماعهما مرة اخرى . ولكنه لا يتكلم أبداً عن كيفية اجتماعهما في المرة الأولى . وقد يكون ذلك بسبب ايمانه بأن الحياة انبثقت

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ٣٠٧ و٣٠٨ .

في المادة بطريقة الصدفة كما تزعم نظريات التطور ، فهو يقول ([1])اذا كنا نريد أن نؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت ، يجب علينا أن نفترض وجود استمرارية للذاكرة أو على الأقل العادات ، لانه بدون ذلك لن يكون هناك سبب لافتراض أن نفس الشخص مستمر في الوجود . . . . والعادات والذاكرة كلاهما ناتجتان عن تأثيرات معينة على الجسم ، خاصة الدماغ . . . والتأثيرات على الجسم التي تولد العادات والذاكرة تنمحي بالموت والتفسخ ، وانه لمن الصعب رؤية كيف يمكن انتقالهما ، عدا حدوث المعجزة ، الى جسم جديد كالذي يُفتَرَض اننا نقطنه في الحياة الآخرة . . . . ان استمرارية الشخص طيلة حياة جسمه ، اذا كانت تعتمد، مثل ما اؤكد ، على تكوين العادات فانها يجب أن تعتمد أيضاً على استمرارية جسمه . . . . فالشخصية هي قضية تنظيم بصورة أساسية ، حيث أن حوادث معينة تجتمع مع بعضها بواسطة علاقات معينة لتكوين الشخص . والاجتماع يُنجَز بواسطة قوانين العلية ـ تلك التي لها علاقة بتكوين العادات ، والتي تتضمن الذاكرة ـ وقوانين العلية المعينة تعتمد على الجسم . فاذا كان هذا صحيحاً ـ وهناك أسس علمية قوية للاعتقاد بأنها كذلك ـ فان توقع بقاء الشخصية بعد تحطيم الدماغ هو مثل توقع بقاء نادي للكركت(*)عندما يموت كل اعضاؤه) . ان ما يتضمنه هذا الكلام مهم للغاية لان ما يريد (رسل) ان يراه هو بقاء الروح في عالمنا هذا بعد الموت كبقائها عندما تكون داخل الجسم . وهذا يفترض ، كحقيقة مسلم بها ، ان الوجود المادي هو الوجود الوحيد ، والذي في الواقع يجب على (رسل) ان يبرهنه بدلاً من اعتباره حقيقة . ولنرجع الى نظرية « الشيء الثالث » التي يقترحها . فاذا كانت الظواهر التي تكوّن العقل مختلفة عن الظواهر التي تكوّن الجسم فلماذا يفترض تحطيمها هي الأخرى عند تحطيم ظواهر الجسم ؟ اننا نستطيع أن

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٤١ ـ ١٤٣ .

(*) لعبة تتطلب فريقين للقيام بها .

نقترض بقاءها وليس هنالك اشكال .

ان هـذه النظريـة (نظريـة الشيء الثـالث) عـلى اي حـال لا تفسر كيف يحدث بناء العقل . وان الشيء الذي تقـود اليه هـذه النظريـة هو الآتي : بعـد الشيء الأساسي الثالث تأتي المادة وفقط (قبـل خلق الحياة) . وانـه لمن الصعب تصـور كيفية بنـاء العقل والمـادة (من خـلال هـذه النـظريـة) في وقت لاحق . والشيء الذي لم ينتبه اليه (رسل) هـو أن العقل يتحكم بـالمادة بحيث أن المـادة تتجمـع لانشاء نـظام معقد (هـو الجسم) . وبكلمة اخـرى، ان الظواهـر التي تسمى العقل تتحكم بالظواهر التي تسمى المادة بحيث ان العقل يقود المادة كـما يقود السائق السيارة . واذن عندنا هنا نوعان من الظواهر المـنظمة ، احـداهما ، وهي المـادة ، سلبيـة أو المستعبـدة ، والثـانيــة ، وهي العقـل ، فعــالـة ، أو المسيطرة . ويتضح أن هناك نظاماً تسلسلياً من نـاحية المـراتب . ولكن الغريب فيهـا ان ما كـان موجـوداً أولاً هو المسيـطَر عليه ، ثم ولـد المسيـطر من المسيـطر عليه . وهذا لانه ، وبموجب النـظرية ، مـا كان مـوجوداً أولاً هـو الشيء الثالث والذي كان على شكل مادة فقط (لان الحياة لم تكن موجودة في البداية) . ومنـه يتبع أن الوجود بأكمله كان على شكـل مادة أولاً لانـه من الصعب تصور وجـود المادة وجزء من الشيء الثالث على شكل شيء ثالث نقي ، والذي أصبح العقـل بعدئذ . والصعوبة الأخرى هي أن هناك عقولاً جديدة تخلق عند الولادة . فأمـا أن المـادة تتحول الى عقـل ، وفي هذه الحـالة تصبـح نظريـة الشيء الثـالث غـير ضرورية ، أو ان هناك جزءاً من الشيء الثالث النقي ما زال موجوداً ، وبطريقة ما ، وبأسلوب معقد ومتطور جداً ، يتحول الى العقل ويتحد بـالمادة بحيث انهما يبدوان وكأنهما وجهان لشيء واحد . وفي هذه الحالة فانهما ينفصلان عند الموت ، واذاً ما هو الشيء الذي يمنع اتحـادهما مـرة اخرى تحت ظـروف مشابهـة للظروف التي أدت الى اتحـادهما أولاً ؟ أليس بـالامكـان تصـور الانبعـاث والنشـور بهـذه الـطريقة ؟ فلمـاذا يصعب عـلى (رسـل) تصـور اتحـاد الـروح (أو مـا يسميـه

العادات والذاكرة) مرة اخرى بالجسم في الحياة الآخرة بعد تحطيم الجسم لأول مرة عند الموت . من هنا نستطيع أن ندرك فشل (رسل) في تفسير الوجود ، ذلك الفشل الذي جعله متذبذباً في آرائه بين المادة والعقل .

وعلى أي حال ، فان نظرية (رسل) ليست اكثر من نظرية الفلاسفة الالهيين الأوربيين مصاغة باسلوب آخر . فأولئك قالوا بوجود الروح والجسم كوحدتين منفصلتين ، و (رسل) ، الذي انتقد هذه النظرية انتقاداً لاذعاً وساخراً ، لم يفعل اكثر من قول النظرية نفسها بطريقة اخرى . فبدلاً من وصف الجسم على انه مادة وصفه بالظواهر الأساسية للمادة ، كذلك الروح سماها العقل ووصفها بظواهر أساسية أخرى تختلف عن الظواهر الأساسية المكونة للمادة ، واعتبرهما تركيبين مختلفين مستمدين من شيء ثالث . وبذلك انتهى الى القول بثنائية الوجود دون أن يعي ذلك .

الصعوبة الأخرى للنظرية هي صعوبة تفسير كيفية اتحاد روح الحيمن مع روح البويضة في ضوء النظرية لتكوين روحاً واحدة في الانسان الجديد (وهذه الصعوبة نفسها تواجهها النظرية في الحيوان والنبات أيضاً) . وقد واجه الفلاسفة الالهيون الأوربيون نفس الصعوبة . ولحلها قالوا أن الروح تدخل الجسم في مرحلة لاحقة . و (رسل) لم يحاول أن يتطرق الى هذا الموضوع الشائك . وبدلاً من ذلك اختار أن لا يدخل في الموضوع وأن يتجاهله كلياً ، عدا انتقاده للفلاسفة الالهيين دون تقديم الحل .

وهناك صعوبة اخرى للنظرية أيضاً ، تلك هي انها لا تفسر كيف ينضج العقل ، وهذا النضج يمكن النظر اليه كنمو في عالم الوجود . فكيف تنمو الأفكار والذاكرة وقوة الادراك والتمييز والارادة والوعي من الشيء الثالث بينما الانسان يُدخِل المادة فقط الى جسمه على شكل غذاء ؟ فالنمو الجسمي يمكن فهمه لان الغذاء مادة تضاف الى مادة ، ولكن كيف ينمو العقل اذا كان مستَمَدّاً

من ظواهر مختلفة حيث ان الانسان لا يأكل هذه الظواهر ولا يستنشقها ؟ واذا قلنا أن العقل يأخذ احتياجاته من المادة وينمو ، فليس هناك حاجة الى الشيء الثالث اذن . وفي هذه الحالة ، وكما هو واضح ، نرجع الى المادية التي برهنا على عدم كفايتها لتفسير الوجود .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن العقل هو نمط متطور من التركيب ، أو الوجود لانه يتحكم في المادة . لذا فانه يمتلك خصائص لا تمتلكها المادة حيث أن المادة وحدها لا تسلك ولا تتغير بنفس الطريقة التي تسلك أو تتغير فيها عندما يحكمها العقل . وهذا يقودنا ضد المادية أيضاً ، لانه اذا كان العقل نوعاً من المادة لماذا اذن محدوديته الى أجزاء معينة من المادة الموجودة (التي تصبح حية) بدلاً من المادة بأجمعها؟ ولماذا لا تتغير المادة الميتة الى عقل (أو حياة) الا تحت ظروف خاصة تتطلب تدخل عقول اخرى (بواسطة الانجاب) ؟

و (رسل) يزعم في نظريته هذه انه لا يوجد محرك يحرك الجسم ، وليس هناك روح ، ويدعي ان ما يوجد ليس اكثر من ظواهر مربوطة بواسطة علاقات وثيقة . فهو يقول [(١)]ان الحقائق الأولية التي يمكن ملاحظتها لا تمتلك ثنائية كهذه ، ولا تعطي سبباً لاعتبار أي من الأشياء أو الأشخاص أي شيء عدا كونها مجموعة من الظواهر) . وهنا فانه لا يميز بين الظواهر التي تكوّن المادة والظواهر التي تكوّن العقل . ولا نعلم ماذا حدث للشيء الثالث وثنائية ظواهر ـ العقل وظواهر ـ المادة التي يطرحها هو نفسه . وما نريد توضيحه هنا هو انه لا شك اننا عندما ننزل الى الأساسيات فان الوجود يظهر على شكل مجموعة من الظواهر ، ولكن هذه الظواهر ليست عشوائية ، بل أنها منظمة ومقيدة باتباع اتجاهات ومسالك معينة لبناء المادة والعقل والوجود الذي نتحسسه سواءً في داخلنا أو خارجنا . وهذه الظواهر يؤثر بعضها على بعض باسلوب مصمم وليس

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٢١ .

عشوائياً . واحسن مثال على ذلك هو الفرق الواضح بين العلاقات المكونة للحجر والعلاقات المكونة للشجر ، أو بصورة أفضل العلاقات المكونة للمادة والعلاقات المكونة للعقل ، وهما نوعان متميزان من الوجود . فالفرق واضح ، ذلك ان احدهما يتحكم في الآخر بأسلوب معين والذي نسميه الارادة والرغبة عندما نهبط في عالم الوجود الى مستوى احساساتنا وادراكاتنا . ويقول (رسل)[1] (ان جزء العقيدة هذه الذي يخص الحياة الحاضرة زائف بكل تأكيد ، حيث أن مادة الجسم تتغير باستمرار بواسطة عملية التغذية وطرح الفضلات . وحتى لو لم تكن كذلك ، فان الذرات لا تعتبر الآن على أنها تمتلك وجوداً مستمراً في علم الفيزياء ، وليس هنالك معنى للقول : ان هذه هي نفس الذرة كتلك التي كانت موجودة قبل بضعة دقائق . واستمرارية جسم الانسان ليست سوى مظهراً وسلوكاً ، وليست من المادة) . وهذا الاستنتاج ينم عن قصور شديد في الادراك والتفسير . لا شك فيه أن الذرة تتغير ، حيث أن مكوناتها تدور حول النواة فيها ، وتتحول من نوع الى آخر ضمنها ، ولكن الذرة نفسها ، وباعتبارها وحدة معينة ، لا تتغير أو تتحول الى وحدة من نوع آخر ولا تتحطم أو تتغير الى شيء آخر ، والا لاقتضى تغيرها أن تتغير مكونات وخصائص الجسم . فصحيح ان هناك حركة ضمن الذرة ولكنها ليست فعل انعدام . وعلى أي حال ، ليست هناك أدلة على أن التحولات من نوع الى آخر للجسيمات (ذات الحجوم المتناهية في الصغر) المكونة للذرة تفصل بينها فترات زمنية (مهما كانت هذه الفترات صغيرة) بحيث توجد هناك فترة زمنية خلالها لا يوجد شيء (أي خلالها يحدث العدم) . فالتحولات تحدث بشكل مشابه لسلخ قشرة البرتقالة حيث تخلع القشرة وبنفس الوقت يظهر اللب ، وليس هناك فترة زمنية خلالها تكون القشرة قد أزيلت وليس هناك لب تحتها . لذا فان استنتاج (رسل) القائل انه ليست هناك استمرارية في الوجود ، وأن ذرة اليوم ليست نفس الذرة

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

التي كانت موجودة امس ، ليس استنتاجاً صحيحاً . أما عن مادة الجسم الفعلية فانه من الواضح أنها تتغير وتتبدل خلال حياة الانسان ، وليس هناك سبب أو حاجة ، تدعو الى فرضها ثابتة لاننا نرى ذلك عندما تزداد أجسامنا وزناً ، أو تفقد وزناً ، و (رسل) يخلط بين استمرارية وجود الجسم مع مادة الجسم الفعلية الموجودة فيه . فالمادة تتغير ، ولكن الجسم (وهو الصورة) يبقى نفسه . وعلى كل حال ، فان هذا مثالاً رائعاً على امكانية بعث الانسان بمادة مختلفة ولكن بنفس الجسم ، ولا تدعي الأديان السماوية اكثر من ذلك ، فهي لم تزعم أن مادة الجسم نفسها تبقى . ويتضح أن (رسل) يدحض افتراضاً يطرحه بنفسه ولكنه يدعي أن الأديان تزعمه . وسوف نرى في نهاية هذا الفصل كيف ان الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي شرح هذا الموضوع قبل بضعة قرون شرحاً يخلب لب الحكماء ولكن (رسل) غافل عنه .

ويستمر (رسل) برسم نفس التشابه بالنسبة للعقل كما رسمه للمادة فيقول [1] ان الاستمرارية الذهنية للشخص عبارة عن استمرارية للعادات والذاكرة : كان هناك شخص ما أمس استطيع أنا أن اتذكر شعوره ، وذلك الشخص أنا اعتبره نفسي البارحة ، ولكن في الحقيقة ، أن نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الآن ، ويُنظر اليها كجزء من الشخص الذي يتذكرها الآن . وكل ما يكوّن الشخص هو سلسلة من الخبرات مربوطة بواسطة الذاكرة وبواسطة تشابهات معينة من النوع الذي نسميه العادات) . وهنا فان (رسل) يفترض أن هذه الوقائع مفصولة بعضها عن بعض بواسطة الزمن (بطريقة تشابه زعمه في تغيرات الذرة) . ولذا فانها بالنسبة له سلسلة مربوطة بواسطة الذاكرة . ولكن السؤال هنا هو : ما هي الذاكرة ؟ وعندما نرجع الى نظريته في تفسير الوجود نجد أنها لا بد وأن تكون عبارة عن سلسلة

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ٧٠ .

من الوقائع أيضاً . وفي هذه الحالة نحن نسأل ، ما هو الشيء الذي يربط هذه الوقائع مع بعضها لتكوين الذاكرة لكي تتمكن هذه الذاكرة من ربط سلسلة الوقائع التي تكوّن الشخص ؟ فان لم تكن مربوطة بشيء ، فان ذلك معناه ان السلسلة ستكون متقطعة ، وبذلك ينقطع الشخص لانه ليس هناك جسر يربط الوقائع المكونة له . واذا كانت مربوطة بشيء يجلعها مستمرة فليس هناك ما يمنع افتراض أن الوقائع التي تكوّن الشخص هي الأخرى مستمرة أيضاً ، وبنفس الوقت مربوطة الى الذاكرة بصورة ما (وعلى سبيل المثال بصورة شعاعية) كما هي الحال في ربط الذاكرة الى وحدة المعالجة المركزية في الحاسبات الالكترونية الحديثة . وبذلك فان التشابه الذي افترضه (رسل) بين الوقائع المكونة للعقل والوقائع المكونة للمادة (بعد افتراض الأخيرة منقطة بدون أي دليل منطقي) لسنا مجبرين على الأخذ به .

المسألة الثانية في هذا الموضوع هي ان الانقطاع بين الوقائع يفترض أحد الاحتمالين التاليين . الأول أن تتحول الواقعة الواحدة من نوع من الوجود الى نوع آخر من الوجود ثم ترجع الى النوع الأول . وفي هذه الحالة ليس هناك تقطع في الوجود ، واذن فالأنا مستمرة بالوجود وليس كما يزعم (رسل) . الثاني أن تتحول الواقعة من الوجود الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى . أي انه يفترض حدوث العدم بين وجودين ، وهو مرفوض أصلاً . فالوجود لا يتحول الى عدم ، واذا انعدم الوجود فان رجوعه مستحيل . وواضح ان هذه مسألة لم تخطر على بال (رسل) اطلاقاً . لاحظ كذلك ان القول بأن الوجود يتحول الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى معناه القول بأن المتناقضين يتبادلان (لان العدم هو نقيض الوجود) وهو مستحيل بديهياً .

ان نظرية الوقائع المنفصلة ، التي تكوّن سلسلة ، لا تفسر الوجود . ونحن نعتقد ان المادة قد يمكن تفسيرها بواسطة سلسلة من الوقائع غير المتقطعة وغير المنفصلة بواسطة التحولات أو عمليات التغير والتبدل . وقد بين العلم أن

هـذه التغيرات تحـدث بشكل دوري حيث يتحـول الجسيم من نوع الى آخـر ثم آخـر وآخـر ثم يـرجـع الى نفس نـوع الجسيم الأول وهكـذا . والعقـل لا يمكن تفسيره بهذا الاسلوب لأنه نوع من الـوجود يختلف عن المادة . وبالنسبـة لقول (رسل) « ان نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنيـة معينة يتم تذكرها الآن» لا تفسـر اي شيء ، وبـالتأكيـد لا تعني أن هناك انقـطاع في الاستمـراريـة وان « أنا البارحة » ماتت (والذي تتضمنه العبارة اعلاه) ، لأن السؤال الذي يطرح نفسه هو : من هو « الأنا الحاضر » الذي يتذكر ؟ ومن أين أتى ؟

ان هذا الأسلوب في التفكير قاد (رسل) الى القول انه عندما يمـوت الفرد فـان الشيء المكون لـه يتحطم بـأكمله . فهو يقـول [1]لذا اذا كنـا سنعتقـد ان الشخص يبقى بعد الموت فـانه يجب علينـا أن نعتقد أن الـذاكرة والعـادات التي تكوّن الشخص ستستمر بالعرض بنوع جديد من الوقائع . ولا أحد يستطيع أن يبـرهن ان ذلك لن يحـدث . ولكنه من السهـل أن نـرى أن ذلـك غـير محتمـل جداً . فذاكرتنا وعاداتنا مقيدة بتركيب الدماغ بطريقة مشابهة جداً لارتباط النهـر الى حوضه ، حيث الماء في النهر يتغير دائماً ولكنه يجري بنفس المجـرى لأن المطر السابق حفر قناة . وبأسلوب مشابه ، فان الحوادث السـابقة قـد حفرت قنـاة في الـدماغ ، وأفكـارنا تجـري في هذه القنـاة . وهذا هـو سبب الذاكـرة والعـادات الذهنية . ولكن الدماغ كتركيب يذوب عند الموت ، ولذا فان المتوقع ان تـذوب الذاكرة هي الأخرى أيضاً . وليس هناك من سبب للاعتقـاد بعكس ذلك بقـدر ما هناك سبب لتوقع أن يبقى النهر في مجراه القديم بعد أن تتمخض هـزة ارضية عن جبل في المكان الـذي كان فيـه الوادي) . و (رسـل) هنا ، وبعـد أن قال بعـدم استمراريـة الروح (وأنها عبـارة عن وقائـع متقطعـة) وبدلاً منهـا تـوجـد الذاكرة والعادات ، يذهب الى القول أن هذه العادات لا تبقى بعد تحطيم خلايا

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

الـدماغ وذوبـانها عند المـوت . وهنا فانـه يتكلـم عن بقاء الصـور والادراكـات ضمن عالمنا الحاضر . وليس هناك من أحـد يشك في ذلـك ، ولكنه تـوصل الى استنتاجه هذا على افتراض أن كل شيء في الوجود مـادي ، وهو ليس كـذلك . لانه اذا كانت الروح لا مادية ، وهي كذلك واذا كانت مستمرة الوجـود ، وهي كذلك كما برهنا ، فان الشخص سيبقىٰ بعد الموت . وعـلى أي حال ، فـان مثال النهـر الذي ضـربه لنـا مرفـوض لان الدمـاغ ليس قناة أو ممـراً كحوض النهـر ، والعقل ليس فقط افكاراً تجري خلال الـدماغ كـما يجري النهـر خلال حـوضه . فـالعقل مهنـدس تصميم وبناء وهـو يشيّد الأفكـار بطريقـة ينظم فيهـا الظواهـر المبعثـرة التي تكوّن الأفكـار بأسلوب منـظم خاص بحيث تصبح هذه الـظواهـر مـربوطـة بعضها الى بعض بـواسطة عـلاقـات خـاصـة ، لـذا فـان العقـل يبني الأفكار ، مستعملاً الدماغ كآلة . والأفكار لا توجـد بنفسها ، وإنمـا التي توجـد هي الظواهر التي تعتبر اللبنات الاساسية لها . ولو كانت منتظمة أصلاً كأفكار لما كانت هناك حاجة للعقل لكي يفكر . والبناية لا تـوجد لان الـطابوق مـوجود ، ولكنها توجد بعد ترتيب الطابوق على شكل نظام خاص . وكذلك الأفكار فانها لا توجد لأن الظواهر التي تشكل لبناتها الأساسية موجودة ، ولكن بعد أن يـربط العقل هذه اللبنات بواسطة علاقات خاصة ، عندئذ تصبح أفكاراً . ولذا فـاذا ذابت الآلـة (أي الدمـاغ) فان البنّـاء يستطيـع أن يركّب الأفكـار بواسـطة آلـة اخرى (لاحظ ان الذاكرة والعادات هي جـزء من الأفكار) . ولـذا فان البقـاء بعد الموت والبعث مرة اخرى ممكنان .

والبـرهان عـلى أن العقل مهنـدس بناء يكمن في مـلاحظة انـه ليس هناك شخصان متشابهان في كل شيء حتى ولو تمت تربيتهم تحت نفس الظروف . فان كـل واحد منهـما ستكون لـه شخصيته المميـزة ، وحتى التوأمـان المتشابهـان فانهما مختلفان في شخصيتيهما .

ونظرية (رسل) تقر بوجود الروح بالرغم من انكاره لهـا . فهو نكـر بقاء

الروح بعد الموت بالرغم من أن انفصالها عن الجسد لا يتضمن رجوعها الأكيد الى الشيء الثالث الأساسي الذي تقول به نظريته ، أي التحطيم . لذا فان احتمال بقاءها بعد الموت لا يمكن نفيه . لاحظ ان مادة الجسم لا ترجع الى الشيء الثالث بعد الموت ولكنها تبقى كمادة ، وكذلك يمكن تصور الروح .

ان فكرة الروح والجسد المنفصلين عن بعضهما لها مساويء كثيرة . دعنا نسمي الظواهر التي تركّب العقل ظواهر العقل ، والظواهر التي تركّب المادة ظواهر المادة . فاذا كانت ظواهر العقل تتحكم بظواهر المادة ، وهي كذلك ، فان ظواهر العقل أعلى من ظواهر المادة في مرتبة الوجود . ويتبع ذلك انه لما كانت ظواهر العقل مُستمـدَّة من الشيء الثالث فهناك احتمالان . الأول ان الشيء الثالث أرقى من ظواهر العقل في مرتبة الوجود ، أي انه اكثر ذكاءاً . وطبعاً فان النظرية لا تفسر التعقيدات التي تتبع ذلك ، فهذه النتيجة معناها أن الشيء الثالث الأساسي ليس أساسياً جداً كما يزعم (رسل) لانه يمتلك ذكاءاً ، والذي بدوره يدحض النظرية نفسها . الاحتمال الثاني أن هناك نوع من الوجود اكثر تطوراً من الشيء الثالث الأساسي يصوغ الشيء الثالث الأساسي الى عقل والى مادة بواسطة تراكيب خاصة . وكلا الاحتمالين يتضمنان وجود نوع من الوجود أعلى مرتبة من العقل . وهذه النتيجة ليست مفرحة كثيراً (لرسل) ، وهي بالتأكيد ليست النتيجة التي كان يود أن ينتهي اليها . ونظرية الروح والجسد المنفصلين التي زعمها (رسل) والذين من قبله ، بأي شكل كان ، تجعل من الصعب تصور كيفية تأثير احدهما على الآخر ، ذلك التأثير الوثيق الذي نراه في الأنسان . فاذا مرض الانسان أو تألم تتأثر نفسيته ، واذا تأثرت نفسيته تتوعك صحته . ولعل اصعب ما يواجه العلم الحديث هو هذا التأثير المتبادل والارتباط الوثيق بين الروح والجسد ، أو كما يسميها بعض الناس العقل والجسد .

وقد أدرك الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي حل المشكلة . وهو في هذا المضمار يعتبر الفيلسوف الحق وحكيم الحكماء لعصور كثيرة . ونظريته تقول أن العقل والمادة نوعان مختلفان من الوجود ، ولكن ليس بنفس المفهوم الذي حمله (رسل) او الفلاسفة الأوربيون من قبله . فالمادة تتحرك في حركتها الجوهرية للارتقاء نحو الكمال في عالم الوجود (وهذه الحركة ليست حركة فيزيائية أو جسمية ، ولكنها حركة نوعية تحولية ، أي محاولة الارتقاء في مرتبة الوجود) تتحرك نحو الكمال للاقتراب من الكمال اكثر فاكثر ، وتستمر بالارتقاء حتى تفقد ماديتها تحت ظروف معينة وتتحول الى وجود لا مادي . ولذا فليس هناك حد فاصل بين العقل والمادة كما يتصور بعض الناس ، ولكنها درجتان من الوجود تربط بينهما الحركة الجوهرية . والروح ، وان كانت لا مادية ، ولكنها تمتلك علاقة مادية لانها المرحلة العليا لكمال المادة في حركتها الجوهرية . فالمادة عندما تمتلك الكمال تتحول الى روح . وبهذا الادراك لمفهوم الروح والمادة فان العلاقة بين المادة والعقل وتأثير احدهما في الآخر يمكن فهمه بدون أي صعوبة . ذلك لأن العقل ليس شيئاً منفصلاً عن المادة ولكنه صورة مادية بعد الارتقاء الى عالم الكمال من خلال الحركة الجوهرية . والفرق بين العقل والمادة يمكن تصوره كالفرق بين درجة الحرارة العالية ودرجة الحرارة الأقل منها بدرجة واحدة . وهذا لا يعني أن العقل هو من نتاج المادة ولكنه نتاج حركتها الجوهرية نحو الكمال . والحركة الجوهرية لا تنبع من المادة نفسها لأن الحركة هي خروج الشيء من القوة الى الفعل تدريجياً . والقوة لا تصنع الفعل ، وكذلك فان الممكن لا يصنع الواقع . ولذا فان الحركة الجوهرية لها سببها خارج نطاق المادة المتحركة . والعقل (او الروح) هو نتيجة هذه الحركة ، والحركة هي الجسر الذي يربط بين المادة والروح . لذا فان الحركة بالضرورة تنتج من علة خارجية ، والعقل (او الروح) هو محرك المادة والذي نسميه النفس . والعقل شيء حي (بموجب تعريف الحياة على أنها الادراك والوعي وقابلية الحكم) . أما المادة فانها ميتة (بموجب تعريف الموت على انه

فقدان الادراك والوعي وقابلية الحكم) . لاحظ ان الحيوانات والنباتات حية ، ولكن بدرجة أقل من الادراك والوعي وقابلية الحكم من الانسان . لذا فانها تمتلك الأرواح أيضاً ، ولكن بدرجة أقل (لأن الوعي قليل أو منعدم) . والعلة الخارجية هي الله الخالق لكل شيء ؟ وضمن هذا التفسير لا يوجد تناقض ، سواء بين المادة والعقل ، أو مع الاكتشافات العلمية مهما تقدمت في المستقبل . وهذه النظرية تفسر كيفية اتحاد الحيمن والبويضة لتكوين الانسان . لانه اذا كانت الروح وحدة منفصلة عن المادة تصبح الحالة مستحيلة التفسير ، وقد يكون هذا السبب هو الذي دعا بعض الفلاسفة ، مثل القديس اكويناس ، الى القول بأن الروح لا تنتقل مع الحيمن ولكنها تُخلق كشيء جديد مع كل انسان . ذلك لان القول بأن الروح تنتقل مع الحيمن يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : وماذا عن الروح في البويضة ؟ فاذا قيل انها تمتلك روحاً أيضاً ، فالسؤال يصبح : كيف تتحول الروحان الى روح واحدة في شخص واحد اذن ؟ واذا قيل انها لا تمتلك روحاً ، فالسؤال يصبح : اذا كانت ميتة كيف تتحول وتصبح حية ؟ لذا فان اسلم السبل بالنسبة له هو القول بأن الروح تُخلق من جديد في كل انسان . وهذا الرأي جعل (رسل) يُعلّق بكل سخرية بالقول (1)عندما يولد الانسان خارج نطاق الزواج ، يبدو ان ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا) . ولو أن (رسل) كان قد رأى تفسير صدر المتألهين للروح وعلاقتها بالمادة لامسك عن هذا التعليق الذي لا يليق بالحكماء . ونحن لا نعلم ، أليس المفروض فيه كفيلسوف أن يطلع على فلسفة صدر المتألهين لعله يتعلم شيئاً من الحكمة الحقيقية التي يفتقدها الانسان الأبيض ؟ .

ويبدو أن نظرية صدر المتألهين هي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية اندماج الحيمن بالبويضة لكي يصبحان روحاً واحدة في النهاية . وعندما يبدأ المخلوق

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤٤٩ .

الجديد بالنمو (بعد الاخصاب) فانه ينمو جسدياً ويصبح اكثر تعقيداً . وكذلك روحه تنمو ولكن ليس حجمياً ، فليس هناك حجم لان الروح شيء لا مادي ، ولكنها تنمو من ناحية انها تصبح اكثر تطوراً في مستوى الوجود (وهو ما يطلق عليه النضج) . والمادة في تركيبها العضوي الجديد والمعقد تصبح تحت الظروف الملائمة لكي تتطور الروح التي في داخلها في مراتب الارتقاء (خلال حركتها الجوهرية) اكثر فاكثر نحو الكمال في عالم الوجود . وبطبيعة الحال فان الروح لا تصل الى الكمال المطلق لأن الكمال المطلق من صفات الخالق تعالى، ولكنها تصل الى مراتب أرقى بكثير من مرتبة المادة . والروح في الانسان تصل الى مراتب أرقى من الروح في النباتات والحيوانات ، الى أن تصل المستوى الذي تمتلك فيه الوعي .

والمادة تمتلك الروح بالقوة ، ولكن هذه القوة لا تخرج الى الفعل من نفسها . لذا فان المادة لا تتطور الى كائن حي بنفسها مطلقاً . ولكن عند توفر الظروف الملائمة ، وهي الترتيب العضوي للمادة ووجود الحياة ، أو بكلمة أخرى وجود الروح والحركة الجوهرية التي تربط المادة بالروح ، فان القوة تخرج الى الفعل ، وتتكامل المادة حتى تفقد ماديتها وتتحول الى الروح . وهذا يفسر كيفية نمو العقل ونضوجه عند نمو الجسم . وتستمر الروح (أو العقل) بالتطور والنمو تحت هذه الظروف بالضبط كما يتطور الجسم وينمو . لذا فان وجود الحياة المسبق ضروري لتطور المادة نحو الكمال لكي تبلغ مراحل الروح . وهذه الحياة المسبقة هي التي تقرر الحدود التي يقف عندها تكامل المادة ، سواءاً تصبح روحاً نباتية ، أو حيوانية أو انسانية . لذا فان أرواح النبات والحيوان والانسان تختلف بعضها عن بعض ، ولكن بدرجة ، أي بمستوى ، وليس بالطبيعة (بنفس الطريقة التي تكوّن المواد العضوية المختلفة الأحياء المختلفة) . وروح النبات هي الأدنى بين مستويات الأرواح . وروح الحيوان أكثر تكاملاً من روح النبات . وروح الانسان أكثر تكاملاً من روح الحيوان . وعلى اي حال فان

درجة التكامل لا بد وأن تحملها الروح المسبقة كما تحمل الجينات المعلومات التي تحدد الخصائص والصفات الجسمية للكائن الحي . وبطريقة مشابهة فان الروح تمتلك مستويات مختلفة وكل روح تحمل مستواها الخاص بها .

يتضح اذن أن وجود الحياة المسبق ضروري لخلق الحياة الجديدة واستمراريتها وتحديد مستواها في مراتب الوجود . وهذا معناه أن وجود الروح شرط أساسي لانتاج الأرواح الجديدة من المادة (أي استخراج الفعل من القوة) . لذا نستنتج ان الحياة الاولى لا بد وأنها خلقت بواسطة عقل اكثر رقياً وتطوراً .

ان الروح والمادة عبارة عن وجهان لنفس الوجود . احدهما سلبي (وهو المادة) والآخر فعال (وهو الروح) . وكلاهما عبارة عن حلقتين في سلسلة الوجود المتصل . والوجود يجب أن يكون متصلاً ولا يُعقل ان يوجد عدم يفصل بين مستويات الوجود المختلفة (اذا كانت هناك عدة وجودات مختلفة) .

وهذه النظرية تعطي تفسيراً أفضل لكيفية اتحاد روحي الحيمن والبويضة حيث انها يتحدان طبيعياً وتلقائياً عندما تتحد المادتان المكونتان للحيمن والبويضة . وكذلك تعطي تفسيراً أفضل لكيفية نمو العقل ونضوجه حيث انه يتغذىٰ على المادة التي تدخل الى الجسم على شكل غذاء ، ويستخرج منها الظواهر التي تشكل لبناته الأساسية . (لاحظ ان العقل الواعي هو أعلى مراحل الروح . ولذا فان الروح ، وان كانت موجودة في مراحل الجنين الأولى ، الا أن العقل الواعي يبدأ بالنشوء بعد تكوين الآلة التي من خلالها يفعل ، وهو ألدماغ) . وبذلك فان الغموض الذي يكتنف كيفية اجتذاب هذه الظواهر الى العقل قد تم اجلاؤه ، بعكس نظرية (رسل) . فالعقل ينمو بموجب هذه النظرية بواسطة نظام متطور مسيطر عليه باحكام ، وفيه فان الذاكرة والعادات ليست الا فروعاً ولواحق (أو اجزاء مساعدة) . وهذا يفسر ظاهرتي الحياة

والعقـل أفضل من تفسـير (رسل) الـذي يحوّل العقـل الى شيء ليس اكـثر من ظواهر عارية ليست ذات أهمية تذكـر . والنظريـة تجعل من السهـل تصور كيفيـة الحفـاظ على الحيـاة في الفيروسـات والحبوب والبيـوض لفترات زمنيـة طـويلة . وكيفيـة تأثـير الروح والجسم في بعضهـما بعضاً طـالمـا انهما ليسـا سـوى درجتـين مختلفتين لنفس الوجود مربوطتين باحكام ، وهـذا الاحكام يمثـل الوجـود المتصل للموجودات . وهي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية نشوء الحياة في الخلايا الحية الجـديدة حيث ان هـذه الحياة الجـديدة استنسـاخ وليس انتقال من خـلايـا حيـة أخرى لأن الخلية الأم لا تموت عند تكوين الخلية الجديدة داخل الجسم الحي .

وأخيراً ، فانـه من خلال هـذه النظريـة التي تربط المـادة بالعقـل بطريقـة رائعة ، نستطيع أن ندرك كيف يمكن للعقل أن يكامل نفسه تحت ظـروف معينة ويصل الى المراحـل التي يذوب فيهـا في ذات الخالق ويصبـح متصلاً بـه بعد أن يـرتقي الى مراحـل الكمال (أو المـراحل القـريبة من الكمـال) . وهذا يحـدث لـلأنبياء والمعصـومين فقط . وهـذه أعـلى مـراحـل الكمـال في عـالم الـوجـود ، ولاتحدث بصورة عشوائية ، أو لا واعية ، ولكنها تحدث بصورة واعيـة ، أي ان التكامل يحدث للروح بالفعل الواعي المتجرد عن الماديات الواطئة ونكران الذات الكـلي ، لأن هذا التكـامل يخص أعـلى أنواع الـوجود في الانسـان وهـو العقـل الواعي .

ولكي يكامل ذاته الى حدود أبعد، فان وجودنا يرتبط بالمستويات الأخـرى من الوجـود (الممكـن وجودها) بطريقة تشبه الجريان ، وفي النهاية فانها ترتبط بذات الله الذي هو وحيد من نوعه ، وهو النهاية . انه كـل شيء ولذا لا يـوجد شيء اسمه العدم لان ذلك يناقض الـوجود المـطلق لله تعالى. وولادة الكـائنات الحية الجديدة هو تحويل ظواهر الوجود من نوع الى آخر، والتي تبـدو لنا (بسبب محدوديتنا وجهلنا) انها أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل .

بقي هنا أن نذكر شيئاً يخص الآية الكريمة ﴿[1]**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً**) ، **فيقول بعض المفسرين انه لا سبيل لمعرفة الروح بدليل الآية الكريمة ولذا فان البحث فيها مسألة عقيمة ولا يجوز الدخول فيها** . ولكننا نرى ان الآية تصرح بأن الروح من أمر الله فقط وهذا شيء لا يختلف عليه أحد، فكل الأشياء من أمر الله بضمنها الروح . ونحن لا نعلم كنه الروح بطبيعة الحال الا ان ذلك لا يمنع من محاولة اثبات وجودها بالطرق العقلية ومعرفة علاقتها بالمادة ، رداً على ما يزعمه الماديون الذين لا يقبلون بمنطق القرآن لانهم لا يعترفون بكونه كتاباً مقدساً، بشرط ان لا يتعارض منطقنا مع محكم التنزيل .

وبالنسبة للكلام عن تبدل المادة مع بقاء الجسم يقول صدر المتألهين في الجزء الثاني من كتاب الاسفار « فالفاعل الذي هو فوق المادة والغاية التي هي فوق المادة سببان بعيدان للموجودات المادية . ولو كان هذان السببان البعيدان كافيين لايجاد الموجودات المادية لكانت هذه الموجودات المادية باقية دوماً ولا تنالها يد الفناء والعدم ، ولكانت محتوية منذ البداية على الكمالات اللائقة بها ، ولأمسى أولها عين آخرها ، ولكن هذين السببين البعيدين غير كافيين وإنما هناك سببان قريبان يؤثران ايضاً وهما المادة والصورة ، فمن جهة الصور يحكم التضاد وتقبل الكيفيات الأولية الفساد ، وكل مادة لها قابلية الصور المتضادة ، ولهذا فان أي موجود يملك نوعين متضادين من القابلية لونين متضادين من الاقتضاء ، احدهما من ناحية الصورة والثاني من جهة المادة . فالصورة تقتضي أن يكون الموجود باقياً ومحافظاً على وضعه ، أما المادة فتقتضي أن تتغير حالته وتوجد فيه صورة أخرى مضادة للصورة الأولى . ولما كان من المستحيل تحقق هذين الاستحقاقين والاقتضاءين المتضادين في شيء واحد فلهذا لا يمكن أن تكون المادة

---

(١) سورة الاسراء، الآية ٨٥ .

محتوية على صور متضادة في آن واحد ، والعطاء الالهي يوجب تكميل مادة هذا العالم الذي هو أسفل العوالم بواسطة الصور ، ولذا قدرت الحكمة الالهية أن تكون الحركة دورية والزمان غير منقطع والمادة متغيرة بحيث تتغير الصور على امتداد الزمان ويتبدل موقعها ، وتحكم الضرورة أن تكون لكل صورة مدة معينة تختص بها فتستوفي كل صورة حصتها من الوجود .

ولما كانت المادة مشتركة فكل صورة لها حق في الصور الأخرى بحيث يناسب أن تعاد الى صاحبها ، فالعدل يوجب أن تعطىٰ مادة هذه الصور لتلك ومادة تلك لهذه ، وعلى هذا الترتيب تنتقل المادة خلال الصور يداً بيد ، ولهذا السبب يقتضي العدل ورعاية الاستحقاق أن يقوم نظام العالم على بقاء الأنواع لا الأفراد . يا له من فهم عميق ورائع لمعنى الوجود !! ويمكننا أن نفهم معنى كلام هذا الحكيم الذي بلغ ذرة الحكمة ومنتهاها على مستوى الفلاسفة بواسطة مثال الشجرة والحيوان والانسان . فالمادة تنتقل من الأرض الى الشجرة ثم الى الحيوان ثم الى الانسان ثم الى الأرض مرة اخرى . وهنا فان المادة تنتقل بين الصور ، والصور هي الشجرة والحيوان والانسان . فكل صورة توجد لفترة معينة من الزمن ثم تختفي ، ولا تستطيع نفس المادة أن توجد ضمن أكثر من صورة واحدة بنفس الوقت . لذا فان التناقض قد يحدث بين الصور ، ولكن ليس ضمن المادة . قارن هذا المفهوم الحكيم مع ما قاله (برتراند رسل) بصدد عدم رجوع الجسم بعد الموت لأن مكونات الجسم تتغير ثم انظر كيف ان (رسل) فاته ادراك الفرق بين المادة والصور .

عودة الى التطور :

اذا كان العقل والمادة يتكونان من نوعين من الظواهر المختلفة ، فان القول بأن هناك تطوراً ، وليس خليقة ، معناه القول أن الظواهر المكونة للعقل في خلق مستمر وان العلاقات التي تربط بينها تُمسي اكثر تطوراً باستمرار أيضاً ولأسباب

مجهولة . وهـذا التطور معقـد جداً ويـدفع بـاتجاه الأحسن فـالأحسن . وبكلمة اخرى ، هناك بناء مستمر لأنـظمة اكـثر تطوراً . واذا كـانت هذه الأنـظمة غـير مخطط لها فان معنى ذلك ان ما كان موجوداً في البداية ليس سوى ظواهر من نوع ما ، وهذه الظواهر بدأت ترتبط ببعضها بعضاً بطريقة الصـدفة المحضـة لتكوين المادة ثم الحياة ثم العقل ، والعملية لا زالت مستمرة . وبذلك فان هـذا التطور هـو نتيجة للعشـوائيـة العميـاء . ولكننـا قـد نتسـاءل : من أين أتت الـظواهـر الأساسية الأولى التي كـونت الوجـود في المراحـل اللاحقـة ؟ ومن أين أتى مفهوم العشوائية ؟ ونحن نستطيع أن نحدد ثلاثة أشياء كان يجب أن توجد في البداية . الأول هي الظواهر ، والثاني العشوائية والثالث القـابلية والاستعداد الذاتيـين لهذه الظواهر لكي ترتبط لتكوين الأنظمة . ولـو كان أحد هذه الأشياء مفقوداً لما كان باستطاعة المادة الأساسية للوجود أن تصنع العالم ، الا اذا فرضنا عدم وجـود أي شيء في عالم الوجود على الاطلاق ، والذي كنـا قد بـرهنا عكسـه حيث يجب أن يكـون هناك شيء مـا في الوجـود ولا يمكن أن نكون نحن عـدماً ، لأننـا اذا كنا عدماً سوف لن يكون بامكاننا معرفة الوجود والتكلم عنه ، ولا حتى العدم . ولما كنـا ندرك الـوجود فـلا بد وأننـا مـوجـودون لان ادراك الـوجـود من خصـائص الموجود .

وعـلى أي حال يتضـح أن الأشياء الثـلاثة الأسـاسية ، ولسبب مجهـول ، أنتجت نظاماً متطوراً الى الدرجة التي صُنع فيها العالم الذي نعرفه . ولكن كيف ولماذا ظهر مفهوم النظام الى عالم الوجود ؟ اننا تعلمنا أن نفهم العشوائية على أنها عكس النظام وهذا ما يعنيه التعبير نفسه . ولذا لا بد وأن يكون هناك نـوع آخر من الوجود ما فوق الظواهر الذاتية واستعدادها للارتباط ، وهذا النوع من الوجود اكثر تطوراً من هذه الأنواع الثلاثة من الموجودات بالضرورة ، وهو الذي شكلها باسلوب معـين ، مستخرجـاً الفعل من القـوة ، والواقـع من الممكن ، لتكوين الكـون .

والسبب في ذلك هو أن القوة وحدها لا تصنع الفعل ، والممكن وحده لا يصنـع الواقع .

الفصل الثالث عشر

العدل الإلهي

الخير والشر

إن فكرة الخير والشر فكرة قديمة طالما تمسك بها الماديون في معركتهم ضد معتقدات الكنيسة الأوربية التي لم تستطع أن تدافع عن نفسها ضد إتهامتهم بسبب نظرتها الخاطئة لهذه القضية . ويتركز الحوار حول ماهية الخير والشر وهل أنهما مفهومان مطلقان أم نسبيان . والماديون الذين لا يؤمنون بوجود خالق للكون ينسبون الشر الى الخالق الذي تدعيه الكنيسة ، بالقول أنه إذا كان الشر موجوداً في المخلوقات ، وإذا كان الله قد خلق هذه المخلوقات ، فمن أين أتاها الشر ؟ لا بد وأنه من الله . وهذا ما عبر عنه (برتراند رسل) بالقول[1] (أن الموجود الذي يمتلك القدرة المطلقة والذي خلق عالماً يحتوي على الشر ليس بسبب الخطايا فلا بد وأن يكون هو نفسه شريراً جزئياً) . وهذا رأي في منتهى السذاجة التي لا تليق بمفكر أو فيلسوف لهذه المسألة الهامة . ثم يستطرد

---

(١) انظر المصدر ٢٥، ص١٩٤ .

(رسل) فيقول[1] (قد يمكن فهم أن الشر الذي سببه الذنب على أنه نتيجة لإرادتنا الحرة ، ولكن مشكلة وجود الشر في عالم ما قبل الإنسان تبقى بدون فهم) ، وهذه إشارة واضحة على إعتبار الشر مطلقاً ، ولكنه لم يحرك نفسه للتحقق من كون مطلقية الشر صحيحة أم لا . وبدلا من ذلك فإنه يردد الإعتقاد القائل أن فكرة الله فكرة إختلقها البشر ، ثم يتعامل مع هذه الفكرة بإستخفاف لا يليق بالحكماء متناسياً السجل التاريخي للأنبياء وحججهم وتفانيهم في سبيل هذه الفكرة . وأنه لمن العجيب أن يعتبر هؤلاء الناس الأنبياء وفكرة الله زائفة لمجرد أنه قد تبين أن بعض معتقدات الكنيسة خاطئة ، والتي يرددها (رسل) ويؤكد عليها في أكثر من مناسبة . وبطبيعة الحال فإنه لم يرغب (ولعله لم يع) أن يعتبر سبب الخطأ هو تدخل الإنسان في صياغة معتقدات الكنيسة ، أولئك الرجال الذين لعبوا (وباعترافه كما رأينا في الفصل الأول) دوراً مهماً في قولَبَة الدين المسيحي على مر التاريخ ، بدلاً من التمسك بتعاليم الله والمسيح نفسه . ولعله كان مؤمناً بالمادية ولذا فإن غاية ما كان يبحث عنه هو البرهنة على أن الكنيسة خطأ ، وقد يكون إعتبر المسيحية على أنها دين المجتمع الأوربي المتقدم في عصرنا هذا ، لذا فإنه من غير الممكن أو المعقول أن تكون الأديان الأخرى أفضل منها لأنها معتقد الإنسان المتحضر . وبعد البرهنة على أن المعتقدات المسيحية تتخللها التناقضات فلماذا يضيع وقته بالنظر الى الأديان الأخرى الأقل تحضراً . وكل أفكاره كانت مصوّبة بإتجاه واحد وهو أن الله ليس موجوداً . وبسبب إعتقاده هذا فإنه يربط الأديان الأفضل بالمجتمعات المتحضرة ، وهذا قد يكون صحيحاً إذا كان الدين هو الحاكم والمنتج للمجتمع الأفضل ؛ إلا أن الحالة ليست هكذا بالنسبة لأوربا التي تقدمت فيها الإكتشافات العلمية بعد أن تخلت عن الدين وقيوده . كما أن التاريخ يشهد لنا بأن الدين كفكرة إصلاحية ظهرت دائماً في المجتمعات المحرومة والمضطهدة ،

---

(١) نفس المصدر، ص١٩٤.

وليس في المجتمعات المتحضرة . وهذا صحيح بصورة خاصة مع المسيحية التي أتت الى أوربا من الشرق الأوسط الذي كان مستعمراً من قبل الرومان في ذلك الوقت .

وبعد أن توصل (رسل) الى إستنتاجه للشر الذي رأيناه ، يستمر ، عازيا كل شيء الى إختلاق الإنسان ، بالقول[1] (ولذا فطالما بقينا متجردين عن التحيز ، فقد نكون مقتنعين بالقول إن كلا أفعال الخير والشر عبارة عن وهم . . . . فالخير والشر ، وحتى الخير العلوي الذي يجده التصوف في كل مكان ، هي أنعكاسات لعواطفنا على الأشياء الأخرى ، وليست جزءاً من مواد الأشياء كما هي بنفسها . ولذا فإنه عند التأمل المتجرد والمتحرر من كل الرواسب مع النفس ، سوف لن يكون الحكم على الأشياء لا بالخير ولا بالشر) . أي أنه ليس هنالك خير بحد ذاته أو شر بحد ذاته ، ولكنهما نسبيان . ولكن إذا كانت هذه هي الحالة فمن أين أتت أفكار الصحة العدالة والجمال ؟ أن ميل الإنسان نحو الصحة والعدالة والجمال ميل فطري ، وكذلك رفض الشر والقبح . فالصحة والعدالة والجمال تؤثر بصورة متشابهة على طيب راحتنا النفسية والفكرية ، وكذلك فإن الخطأ والشر والقبح تؤثر بصورة متشابهة ضد راحتنا النفسية والفكرية ونحن لا نتكلم هنا عن ما هو الصحيح أو العادل أو الجميل ولا عن ما هو الخطأ أو القبيح ، ولكننا نتكلم عن مفاهيم هذه الأفكار . ونحن نعتقد أن الجميع متفقون على وجود هذه المفاهيم . وقد نختلف عن الأشياء التي يمكن إعتبارها عادلة والأشياء التي نعتبرها غير عادلة ولكننا نتفق على وجود العدالة كمفهوم بحد ذاته . وأهمية هذه المفاهيم بالنسبة لبحثنا يأتي من كون إرتباط الصحة والخير بالعدالة والجمال وإرتباط الشر بالخطأ والظلم والقبح . وما يدعيه (رسل) يوصله الى القول بأنه ليس بإمكاننا ، فيما لو حررنا أنفسنا من

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٧ .

رواسب الماضي الفكرية ، إن نعطي أي حكم من أي نوع لأننا سوف لن نعرف ماهية العدالة والظلم بسبب عدم وجودها بحد ذاتها على حد قوله . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إذا كانت هذه هي الحالة فعلاً فمن أين إكتسبنا قابلية التحكيم وكيف ظهرت هذه المفاهيم الى عالم الوجود ؟ فاما أن تكون هذه القابلية قد تطورت فينا من الداخل ، وهذا معناه أنه يوجد صح وخطأ مما دعانا الى التمييز بينهما . أو أن القابلية قد منحت إلينا من الخارج والتي تعني أن الله موجود . وفي كلا الحالتين فإن النتيجة هي أن كلا الخير والشر موجودان . وفي الواقع فإن الأعراف لم تقم إلا على أساس هذين المفهومين .

إذن ، وخلافاً لإعتقاد (رسل) ، فإن الخير والشر موجودان ، وما نحتاجه هو توضيح الغبار الذي يشوه الأفكار الصحيحة حولهما . وأصل هذا التشويش هو إعتبار كلاهما مطلقين ، والذي يؤدي الى التناقض الذي جعل (رسل) يرفضهما ، وجعله يذهب بعيداً الى القول بأنه ليس هناك شيء نبيل وشيء فاسد ، فهو يقول[1] (أنه عند إدراك أن الشرور الأساسية سببها إمبراطورية المادة العمياء، وأنها التأثير الكلي الضروري للقوى التي لا تملك الوعي والتي هي لهذا السبب ليست نبيلة وليست فاسدة فان مفهوم الظلم يصبح سخيفاً . . . أنه من الواضح أن بعض الأشياء حسنة وبعضها رديء ونحن لا نمتلك الواسطة التي تمكننا من معرفة فيها إذا كان الحسن هو السائد أو الرديء هو السائد) . وهذا الرأي مستمد من نظرته المادية الى الوجود . والواقع أن الكون واسع جداً بالنسبة لنا ، ونحن والحالة هذه لا يمكننا أن نعد الأشياء الحسنة والأشياء الرديئة لكي نعرف أيهما السائد ، ولذا فإن (رسل) ينتهي الى إستنتاجه . ونحن هنا نتكلم عن مفاهيم الخير والشر وليس فيها إذا كانت الأشياء النبيلة سائدة أو الأشياء الفاسدة سائدة . وعلى كل حال نحن نعتقد أننا نستطيع

(١) انظر المصدر ٣٠ ـ ص٦٨ .

إدراك أي من المفهومين يأتي أولاً ، وأيهما مطلق ، وعليه فإننا نستطيع أن ندرك أيهما السائدة .

دعنا أولاً أن نعرف ما هو الشر .

الشر هو أي شيء مناقض للخير . والخير يمكن تعريفه بأنه العدالة ، وهي إعطاء كل ذي حق حقه سواءاً كان خصلة أو صورة أو ملكية أو شيئاً آخر ، وسواءاً كان الإنسان، أو الحيوان أو أي مخلوق آخر ، حياً أو ميتاً ، حتى الأشياء الصغيرة والتي نعتبرها تافهة ، أي إن العدالة هي وضع الشيء في موضعه . وخلافاً لإستنتاج (رسل) بأن الله شرير جزئياً (تعالى عن ذلك) فإننا نقول إذا كان الله خلق كل شيء فإنه ليس بحاجة لشيء لأنه موجود سواءاً كان الخلق موجوداً أم لم لا . ولذا فإنه ليس بحاجة الى الشر .

ولإتمام الفائدة من هذا البحث سوف نتطرق الى موضوع العدل الإلهي من ناحيتين فقط وهو ما يهمنا هنا ، علما أن هناك نواحي أخرى بيّنها الفلاسفة الإسلاميون بالتفصيل (ولكننا لسنا هنا بصدد ذكرها) . الناحية الأولى هي أنه إذا كان الشر هو سلب الحق من صاحبه ، وإذا كان الله خلق كل شيء فهو المالك لكل شيء ، لذا فان مفهوم الظلم بين الله وخلقه غير وارد لأنه إذا سلب الله المخلوقات أشياءها سيكون الله قد أخذ ما يملك وما يعود إليه وما هو حقه . الثاني إن الظلم سيقع إذا لم تأخذ الأشياء من الوجود ما تستحق . والذي يحدث فقط إذا أوقف الله فيض الوجود بحيث أنه لا يصل الأشياء ما تستحق ، والذي يجعلها ناقصة أو معدومة الوجود ، والذي لا يتفق مع مطلقية الله . والأشياء تختلف من وجهة نظر إكتساب نوعية الوجود الذي تستحقه ، ومن ناحية أن كل شيء يمتلك حقاً معينا وقابلية معينة لإكتساب ما يستحقه من الوجود . ولما كان الله مطلق الوجود فإنه لا يوقف فيض الوجود الى الأشياء . والأشياء لا تمتلك حقاً أكثر لإكتساب الوجود مما جُبِلت عليه بموجب خلقها ، ولذا فإنها لا تمتلك حقاً تجاه الخالق أكثر مما تُعطى . ولما كان هو الخالق فإن

الأشياء لا تمتلك حقاً تجاهه يجعل إعطاءها الحق وكأنه دَيْن على الخالق أو واجب عليه . وعدالة الله هي الوجود نفسه ، والذي معناه إن هذه العدالـة غير محـرمة عـلى المخلوقات . وتتجـلى العدالـة بالنسب الصحيحـة للأشيـاء ، وليس هنـاك فقدان للتجانس .

من ذلك يتضح أن الخير مطلق وسائد .

وبعد هذه المقدمة عن الخير نستطيع الآن أن نستمر في حوارنا لمعرفة أصل الشر . وقبل أن ندخل في الموضـوع سوف نحـاول أن نقربـه من الذهن أكـثر ، وسوف نأخذ بنظر الإعتبار ما يطلق عليه شر القدرة ، وهو أكثر أنواع الشر الذي يشـار إليه عنـد الكلام عن الشر . وهـو شر الإنسان نحـو أخيه الإنسـان . فإذا إشتريت سكيناً من حداد وطعنت بها شخصـاً فقتلته ، أين الشر في ذلـك ؟ هل هو في الحداد ؟ أم في السكـين ؟ أم فيك ؟ طبعـاً أنه ليس في الحـداد لأن الحداد ليس مسؤولاً عن الجـريمة بسبب صنعـه للسكين التي صنعهـا لكي يستفيـد منهـا الناس في عمليات التقطيع لما فيه الخير لسعادتهم وتسهيـل أعمالهم (عـلى فرض ذلك) . والشر ليس في السكين التي لا يمكن رمـي اللوم عليها حيث أنها ليست واعيـة ولا تمتلك من زمام أمـرها شيئـاً . لذا فـإن الشر فيـك أنت المسؤول عن الجريمة لأنك تمتلك الإرادة وأسأت إستخدامها ، والشر أسـاسه إسـاءة إستخدام الإرادة التي يمتلكهـا الإنسـان ، وإسـاءة إستخـدام الإمتيـازات والقـابليـات والخصـائص الأخرى التي منحهـا الخالق لـه . ومَثَلُ السكـين هنـا كَمَثَـل هـذه القـابليات ، ومَثَـل الحداد كَمَثَـل الخالق ، تعـالى الله عن تمثيله بالأشيـاء . فلا الخالق مسؤول عن الشر وإلا القابليات التي يعطيها للإنسان مسؤولة عن الشر ، ولكن االإنسـان هـو المسؤول عن الشر . ولا يمكننـا أن ننسب الشر المـوجـود في الإنسان الى الله (كما يـدعي رسل) لأن الشر يكمن في محـاولة الإنسـان الحصول على ما ليس من حقه بإستخدام الوسائل المتوفرة لديه في غير ما يجب وغير ما هـو مرسوم لها أن تستخدم من أجله . ويتضح من ذلك أنـه إذا كان الإنسـان سبب

الشر فإن الشر نسبي وليس مطلقاً وهذا بدوره يجعله غير موجوداً في الخالق ، لأن ما يوجد في الخالق يجب أن يكون مطلقاً ، بخلاق الخير المطلق . إن الله خلق الوسائل والقابليات في الإنسان من أجل أن يستعملها الإنسان لسعادته ومن أجل الخير ، والإنسان هو الذي يسيء إستعمال هذه الإمتيازات من أجل غاياته الأنانية خلافاً للغاية التي مُنِحَ من أجلها هذه الإمتيازات .

إن الحب الذي تمتلكه المرأة تجاه طفلها هو شعور ضروري أودعه الله فيها لكي يدفعها الى المحافظة على الطفل ورعايته من أجل إنشاء الأسر المترابطة والمجتمعات البشرية الصالحة . فإذا مات الطفل وكان ذلك مؤلماً للأم فإن ذلك لا يعني أن الله أودع الحب في المرأة تجاه طفلها لإنزال الألم بها عند موته والذي قد يعتبر شراً ، ولكن ألَمها نتيجة عرضية لا بد منها ، فهي أن لم تشعر بذلك الشعور القوي نحو الطفل فإنها سوف لن تتمكن من تحمل أعباء رعايته والمحافظة عليه ، بل ربما تقتله في كثير من الأحيان لكي تريح نفسها من تربيته المتعبة فالحب هذا خير أودعه الله في المرأة ، وليس شراً بالرغم مما يمكن أن ينتج عنه من ألم في حالة موت الطفل . وقد اقتضت عدالة الله تعالى ان يتلاشىٰ هذا الالم بعد فترة زمنية معينة .

وإذا كان الخير هو السائد ، وإن الله أعطى كل شيء حقه ، وبذلك فقد ملأ الوجود خيراً ، فإنه يمكن القول (كما بين ذلك الفلاسفة الإسلاميون) إن الشر عموماً هو فقدان الخير . أي أنه إذا كان الخير هو ما منحه الله للأشياء فإن إنعدام وجود الخير يمكن النظر إليه على أنه الشر لأن الشر هو نقيض الخير . وعلى سبيل المثال فإن الطرش هو ليس سوى فقدان القابلية على السمع وهو ليس شيئاً بحد ذاته ولكنه فقدان لشيء . والظلم هو فقدان الرحمة في قلب الظالم . والجهل فقدان المعرفة التي هي كمال ، وعندما لا يمتلك الإنسان المعرفة فهو لا يمتلك صفة أو خاصية تسمى (فقدان المعرفة) والتي لا يملكها العالم ، فالعالم كان جاهلاً قبل أن يتعلم وهو لا يفقد شيئاً عند إكتساب العلم وإنما

يكتسب شيئاً . ولو كان الجهل شيئاً بحد ذاته لكان التعلم مصحوباً بفقدان شيء ما . ومن الأمثلة الأخرى الفقر الذي هو عدم إمتلاك الثروة والموت الذي هو فقدان الحياة وليس إكتساب شيء أخر . ويتبع ذلك أن الأشياء التي تسبب فقدان شيء ما ، مثل الهزات الأرضية والبراكين والحيوانات الوحشية وغيرها تسمى شراً ، ولو لم تسبب فقدان شيء ما كالحياة لما إعتبرت شراً . فالأشجار لا تعتبر شراً ، والجبال لا تعتبر شراً ، وهذا النوع من الشر هو النسبي . وبالنسبة لهذا الشر فإن (رسل) يقول[1] (إنني لا أعتقد أن الدكتور بارنز سيقبل الحل الذي يقدمه وليم جيلسبي أن أجسام الوحوش الضارية كانت مسكونة من قبل الأشرار الذين سبقت خطيئاتهم الأولى خلق الوحوش ، ومع ذلك فإنه من الصعب رؤية إمكانية إقتراح أي جواب آخر منطقي ومقبول) . وتعليقنا على هذا الرأي يتضح مما أسلفنا من القول بأن الحيوانات الضارية ليست شراً بحد ذاتها . فالكائنات الحية لا بد وأن يعيش بعضها على بعض على شكل دورة كاملة ، وبذلك فإن الحيوانات تمثل شراً نسبياً لنا . ومن خلال هذه النظرة فإن الخروف شر بالنسبة للأدغال .

إن سبب شر الخصائص ، مثل الجهل ، وضعف الإرادة ، يمكن تقفي سبب أثره الى الانسان في النهاية ، وهو ليس خاصية ذاتية في المخلوق بسبب الخالق . وحتى العيوب التي يمتلكها بعض الناس بالولادة فإن سببها الإنسان . مثلاً أن تكون نسب المواد الغذائية التي تأكلها الأم ليست صحيحة ، أو بسبب شرب الكحول أو التدخين أو المخدرات ، أو إستعمال بعض الأدوية في فترة الحمل أو العيش تحت ظروف صحية رديئة تؤثر على نفسية الأم ، كالظروف العائلية الكئيبة أو العلاقات العائلية الفاسدة أو المقلقة ، او ظلم الانسان لاخيه الانسان ، أو سبب ضعف من الماضي ينتقل الى الأجيال عن طريق الوراثة

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ص١٩٤ .

والذي سببه يرجع في الاصل الى الإنسان أيضاً .

وبعد هذا السرد نود أن نناقش الرأي التالي (لرسل) الذي يقول[1] (من المألوف أن السعادة لا يتم إحرازها كما يجب من قبل الذين يبحثون عنها بصورة مباشرة ، ويبدو أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير . واعتقد ، على أي حال ، أن أولئك الذين ينسون الخير والشر ويبحثون عن معرفة الأشياء هم أكثر إحتمالاً لإحراز الخير من أولئك الذين يرون العالم من خلال الوسط المشوه لرغباتهم الذاتية) .

يبدو أن (رسل) هنا يصطنع تشويشاً ويثير غباراً كثيفاً حول الموضوع بواسطة ربط مواضيع ليس لبعضها علاقة ببعض ، ثم يستعمل مفهوماً لا يختلف عليه أحد لكي يبرز في النهاية بنتيجة كان قد صمم عليها سلفاً . فالمواضيع التي لا علاقة لبعضها ببعض هي أولئك الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير . وأنه لمن الواضح أن الذين يبحثون عن السعادة ليسوا سعداء وإلا لما بحثوا عنها ، ولكن عندما يقول (رسل) أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير فهل أنه يقصد أن أولئك الذين يبحثون عن الخير هم أشرار وإلا لما بحثوا عن الخير؟ فإذا كان هذا هو ما يرمي إليه ، فهل أن ذلك يعني أن الناس التقاة الذين يدعون الى الخير هم أشرار ؟ في هذه الحالة ، وبرسم التشابه مع السعادة بنفس الأسلوب الذي إستعمله (رسل) ، فهل يعني ان الناس الأشرار هم الأفضل قدرة على امتلاك الخير واحرازه مثلما ان اولئك الذين لا يبحثون عن السعادة هم سعداء ؟ وهل يعني ان الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك لأنهم لا يمتلكون الخير ، أي انهم اشرار؟ الا يناقض ذلك تعريف مفهوم الشر نفسه حيث أن الشر لا يعرف الخير؟ وهل أن الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك من أجل أنفسهم فقط ولأجل رغباتهم الشخصية ؟ وماذا عن المصلحين والأنبياء الذين تحملوا المعاناة والآلام لأنهم

(١) نفس المصدر السابق ـ ص٢٩ .

كانوا يبحثون عن الخير للبشرية ؟

و (رسل) بعد ذلك يخلط بين شيئين لكي يصل الى مقصده . وهذان الشيئان يتمثلان بأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، وهو شيء نبيل ، وأولئك الذين يمتلكون الرغبات الشخصية التي تشوه الطريق نحو الخير ، وهو شيء قبيح طبعاً . وأنه لواضح أن طريق الخير بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات خاطئة أو رغبات ذاتية يكون مشوهاً . ولكن هذه الطريق بالنسبة لإنسان يتملسك بمعتقدات صحيحة ويمتلك رؤيا واضحة لا يكون مشوهاً حتى ولو لم ينس الخير والشر . وعلى كل حال ، ما هي الحقيقة وكيف نصل إليها بدون معرفة الخير والشر والفرق بينهما ؟ وكيف نستطيع أن نميز بين الخير والشر عندما نصل إليهما إذا كنا غافلين عنهما أو نسيناهما كما يرغب (رسل) ؟ و (رسل) يتوسع في هذا الموضوع بالقول[1] (يبدو لي أن الناس الذي تمسكوا به «أي الخير» كانوا هم الأشرار في معظم الأحيان . وأنك لتجد الحقيقة الملفتة للنظر أنه كلما كان الدين أكثر قوة في أي فترة زمنية كلما كان الإعتقاد المتغطرس أكثر عمقاً وكانت القساوة أعظم وكانت الحالة أكثر سوءاً . وفيما يسمى عصور الإيمان ، عندما كان الرجال يؤمنون حقاً بالدين المسيحي بكل كماله ، كان هناك الظلم والتعذيب، وكان هناك الملايين من النساء المسكينات اللاتي أُحْرِقْن بإعتبارهن ساحرات ، وكان هناك كل أنواع القساوة والوحشية التي مورست على كل أنواع الناس بإسم الدين .

وإذا بحثت في العالم فإنك ستجد أن كل تقدم صغير في الأحاسيس الإنسانية وكل تحسن في قانون الجريمة ، وكل خطوة نحو إزالة الحروب ، وكل خطوة نحو التعامل الأفضل مع الأجناس الملونة ، وكل تخفيف للعبودية ، وكل تقدم أخلاقي حدث في العالم ، قد عارضته الكنيسة العالمية المنظمة بصورة

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ـ ص٢٤ .

ثابتة . وأنا أقول وبكل تعمد أن الدين المسيحي ، كما هو منظم بكنائسه ، كان ولا زال العدو الرئيسي لتقدم الأخلاق في العالم) . وهذه الملاحظات ولا شك ، لها ما يبررها ، ولكن (رسل) يبادل بين الدين والمسيحية . والمسيحية أحد الأديان ولكن ليس كل الأديان مسيحية الأصل أو التفرع . ولذا يجب أن يكون واضحاً للقاريء أن (رسل) يتكلم عن المسيحية فقط ، ولا يجب أن توسع أراؤه لتشمل الأديان الأخرى التي لم ترتكب شناعة الكنيسة أو ممارساتها اللانسانية في أوربا . ولو كان النبي عيسى (ع) حياً لما قبل أن ترتكب تلك الجرائم بإسمه ، أو بغير إسمه . وبدلاً من ذلك كان سيأمر بمعاقبة مقترفيها . فليس الله تعالى ولا عيسى ، ولا أي إنسان يمتلك ذرة من الرحمة في قلبه يقبل بحرق النساء أمام الناس بدعوى السحر والشعوذة . .وحتى أولئك اللاتي يستحقن الموت بسبب جريمة يقترفنها فإنه بالأمكان سلب حياتهن بطرق أقل بشاعة وإهانة من الحرق في الأماكن العامة ، والتي بالتأكيد لا بد وأن إنعكست على نفسية الأطفال الذين شاهدوها ، خالقة أجيالاً جديدة متوحشة بدلاً من المجتمع الذي يسوده الحب والأمن الذي أراده الله وعيسى .

وعلى كل حال فإن وصف أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بأنهم أولئك الذين يجب أن ينسوا الخير والشر ، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك بأنهم يمتلك رغبات مشوشة ليس صحيحاً على الإطلاق . بل على العكس ، إن الذين كانوا يدعون الى الخير كانوا يطلبون من الناس أن يتعرفوا على الحق ويتبعوه ، وعلى الباطل فيجتنبوه . وكانوا يتمسكون بمعتقداتهم ولم ينسوا الخير والشر ، وهذه المعتقدات لم تكن رغبات رخيصة . ومن هؤلاء الناس نحن تمكنا من معرفة الأخلاق الحميدة التي نعرفها اليوم (أو ما بقي منها) والتي جاءتنا خلال الأجيال . وأن الربط بين الناس الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير محاولة غش وخداع ، وكذلك فإن الإلماح بأن أولئك الذين يتمسكون بمفهومَيْ الخير والشر يمتلكون رغبات مشوهة وأنهم لا يبحثون عن

الحقيقة ، محاولة دس وغش هي الأخرى ، ولا تليق بالحكماء من أصحاب العقول . فهذا هو (رسل) ، وهذه محاولاته ، ومع ذلك فإن البعض من الناس يعتبرونه الفيلسوف الحكيم .

هل أن الله على كل شيء قدير ؟

يجادل بعض الماديين حول معنى قدرة الله تعالى ، فيقولون إذا كان الله على كل شيء قدير فهل يستطيع أن يتخلى عن خلقه ؟ أي هل أنه يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث أنه لا يمكن إرجاع سلطانه على الخلق ؟

وفي ذلك إحتمالان :

الأول ، إذا كان الله لا يستطيع أن يفصل خلقه عنه فإنه ليس على كل شيء قدير .

والثاني ، إذا كان الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث لا يمكن إرجاع سلطانه عليه فيصبح ليس على كل شيء قدير .

إذن في كلتا الحالتين إن الله ليس قادراً على كل شيء وبذلك فإنه ليس إله .

ولحل هذا التناقض نود أن نذكر بأن هذه الحجة تشابه في طبيعتها تلك الأسئلة غير المنطقية التي واجهناها سابقاً . وتكمن أسباب التشوش حول هذه القضايا في عدم إدراك المعنى الحقيقي لتعريف الله وصفاته . ويتضح أن فكرة الله يساء فهمها الصحيح حتى من قبل أولئك الذين يحملون فكرة الإيمان بها . فالكل يتصور أن الله شيء واحد ولكن بإتجاه واحد من التفكير فقط . ولذا فإن الحوار في إتجاه مختلف يصل الى التناقض لا محال .

إن الله واحد من ناحية نوع الوجود وليس من ناحية العدد ، وهذا معناه أن طابع وجوده فريد النوع . فالأرقام والأعداد جزء مما خلق ، ولذا فإنه لا

يمكن تطبيقها عليه ، وهو لا يخضع لها ولا لحكمها لأنه لا يمكن أن يخضع لما خلق . وكما رأينا سابقاً فإن وجود الله لا يحتاج الى الزمان أو المكان ، ولا يخضع لهما . ولذا فإنه من غير الممكن إدراك ماهية وجوده (لأن إدراكاتنا محدودة بالزمان والمكان ولا يمكنها أن تتصور شيئاً خارجهما) والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أن الله فريد في ماهيته . فالمقصود بوحدانية الله إذن هو فرادة النوعية ، ولا يمكننا أن نقول أكثر من ذلك .

والله يمتلك صفات عديدة ، قال تعالى[1] ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ ، وهذه الصفات لا تكوّنه ، أي أنه لا يتألف منها ، ولكنها تنبع منه وتشع منه ومن عطائه بكميات لا محدودة ولا متناهية ، وتأثيرات هذه الصفات لا يمكن فصلها عنه . فالله عادل ورحيم وجميل وجبار ومقتدر وعالم الخ ، وكل هذه الصفات مطلقة ومجتمعة بنفس الوحدة الواحدة التي هي واحد نوعاً (وليس عدداً فالأعداد ليس لها معنى هناك) . وهذه الصفات لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، أي أنه لا يمكن النظر الى الله على أنه مقتدراً مثلاً وننسى الصفات الأخرى ، أو عادلاً وننسى الصفات الأخرى ، بل يجب أن نتصور الله وفيه جميع هذه الصفات مجتمعة بنفس الوقت ، وهي عطاءاته التي لا تنضب لأنها مطلقة ، والمطلق لا ينقص لأنه إذا نقص فهو ليس مطلقاً . وتشع عطاءاته منه كما يشع الضوء من الشمس ، ولكن ليس على سبيل تشبيه المكان بل من ناحية الوجود كوجود، فالزمان والمكان هما تصوراتنا عن الوجود ونظرة الله الى الوجود قد تكون مختلفة عن نظرتنا . والله يستطيع أن يتصور الوجود كما نتصوره نحن أيضاً بطبيعة الحال لانه هو الذي خلقه وصوره .

والسؤال القائل هل أن الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه يتضمن إنفصالاً من ناحية المكان ، والذي لا يمكن قبوله لأن الله غير خاضع للمكان ، أو إنفصالاً

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٠ .

من ناحية نوع الوجود والذي لا يمكن قبوله أيضاً لأنه يعني أن نوعية وجودنا ونوعية وجود الله مختلفتان ، وهذا بدوره يتضمن الحاجة الى وجود واسطة تربط الله بالخلق ، أي أن الله بحاجة الى شيء يربطه بالخلق وهو مستحيل لأنه ينافي مطلقية الله . كما أنه يُلْمِع الى وجود إنفصال فراغي بين الله وخلقه وهو مرفوض أيضاً كما تقدم .

يتضح من ذلك أن السؤال يتضمن إفتراضات ومفاهيم غير مقبولة منطقياً ، وغير مقبولة بموجب تعريف الله ، بالرغم من عدم وعي الماديين لهذه الإفتراضات الضمنية في أسئلتهم .

إن الخلق يكتسب وجوده من الخالق بطريقة تشبه حصول الضوء على وجوده من الكهرباء ، فإذا قطع التيار يختفي الضوء وينعدم . وكذلك إذا إنفصل الخلق عن الله بأي مفهوم كان فان الخلق يختفي الى العدم . من هنا فإن السؤال الذي نحن بصدده مرفوض ولا يمثل سوى جملة لغوية لا تحمل أي معنى منطقي من وجهة نظر االواقع ، ومنه نستنتج أنه لا يوجد أي تناقض ، والتناقض الذي رأيناه سابقاً وهمي ولا وجود له .

وكذلك فإن السؤال السابق يتناقض مع تعريف الله وصفاته التي ذكرناها . فهو يأخذ صفة واحدة ويتناسى الصفات الأخرى وعليه فإن هذا ليس الله الخالق لكل شيء لأن الخالق كامل من كل الوجود وفي جميع الإتجاهات بنفس الوقت كوحدة واحدة ، ويجب النظر إليه هكذا . وبطبيعة الحال ، إذا أخذنا بعض صفات الله بنظر الإعتبار ونسينا الصفات الأخرى نصل الى التناقض ، وذلك لأنه في هذه الحالة فإن كلامنا سيخص شيئاً آخر غير الله . أما إذا أخذنا جميع صفات الله بنظر الإعتبار في نفس الوقت فسوف لن يكون هناك تناقض . وفي الواقع أن جميع الذين يتطرقون الى الله وصفاته ويصلون الى التناقض هم في الواقع يرتكبون هذا الخطأ ، وهو أخذ بعض الصفات ونسيان

الصفات الأخرى، وبذلك فإنهم في الواقع يتكلمون عن جزء لا عن الكل، ولما كان الله لا يمكن تجزأته بأي إسلوب أو مفهوم كان ، فإن الكلام عن الجزء ليس كلام عن الله . وبذلك فإن هؤلاء الفلاسفة ، خاصة الأوربيين وعلى رأسهم (رسل) ، هم في الواقع يتكلمون عن شيء غير الله (لأنهم يتكلمون عن الجزء) وينسبونه الى الله متصورين أنهم على صواب . وأنه لمن العجيب كيف أن هؤلاء المفكرين لا يعون هذه المسألة البسيطة وهم المتبحرون في الفلسفة . وصدق الله حينما قال[1] ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾ .

وعلى سبيل المجادلة ، دعنا نفترض أن الله يفصل خلقه عنه . ماذا سيحدث ؟ هناك شيء واحد نستطيع أن نقوله بكل تأكيد ، بسبب ملاحظاتنا عن الإنسان وتاريخ الإنسانية ، ذلك إن الظلم سيجد طريقه الى المجتمع الإنساني ، وبأقل تقدير سيسود في إحدى زوايا الخلق ، خاصة الإنسان . والظلم هو عكس العدالة . ولذا فإن الحالة ستعني أن الله سمح للظلم أن يحدث بطريقه مطلقة لأنه سوف لن يكون ما يعيقه إذا فصل الله الخلق عنه . وهذا يعني أن الله يقبل بالظلم وهو منافي لصفة العدالة المطلقة له . وبطبيعة الحال فإن ذلك غير ممكن لأنه سيعني أنه بالرغم من أن الله هو العدل المطلق فإنه يقبل الظلم ، وهو تناقض مرفوض ففصل الله للخلق عنه معناه وقوع المستحيل وهو مستحيل .

ويتضح أن المقصود (بأن الله على كل شيء قدير) ليس مفهوماً بصورة صحيحة . فإنعدام القدرة هو نتيجة لتصوراتنا نحن البشر لأن الله في وجوده لا يحتاج أن يفعل شيئاً لأنه ليس بحاجة الى أي شيء . والحاجة هي تصورنا عن الأشياء ، وليس تصوره هو . لذا فإن إنعدام القدرة لا يوجد في وجوده لأنه ليس هناك إنعدام في وجوده ، فإنعدام وجود أي شيء يناقض وجود الله المطلق

---

(١) سورة الفرقان، آية ٤٤ .

وهـو مستحيل . وإنعـدام قدرة الله تجـاه أي شيء يناقض قـدرته المطلقـة وهـو مرفوض . لذا نستنتج أنه ليس هناك مـا يمكن أن يطلق عليـه إنعدام القـدرة في وجود الله . والتعبير عن اللاقدرة أو العجز هو تصورنا الذي لا يمكن تطبيقه على الله . فالمطلقية معناها القدرة فقط ، واللاقدرة لا توجد . وبـذلك فـإن إفتراض عـدم قدرتـه على الأشيـاء التي لا يفعلها معنـاه إفتراض وجـود التناقض ، وهـو مـرفوض لأنـه ينافي المنـطق . ذلك لأنـه إذا كانت القـدرة المطلقـة موجـودة فإن إنعدام القدرة يشكل تناقضاً وهو مستحيل .

إن سوء الفهم الصحيح لهذه المفاهيم ، وعـدم المقـدرة عـلى أخذ مفهـوم الله بنظر الإعتبار بفكر واضح قاد القديس (أكـويناس) Aquinas الى القـول أن الله (لا يستـطيع) أن يشـأ الأشياء المستحيلة التي تمتلك الإستحـالة في ذاتهـا ، بدلاً من القول أنـه لا يفعلها لأن ذلـك ليس ما كـان قد قـرره هو . فـإستحالـة الأشياء في ذاتها ليست خارجة عن إرادة الله وإنما هو الذي خلقها مستحيلة بهـذا الشكل وإن شاء بدلها . إن مفهـوم الإستحالـة ومفهوم التنـاقض وغيرهمـا عبارة عن مفـاهيم خلقها الله تعـالى لأنه خلق كـل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهـوم الإستحالة ومفهوم التناقض وغيرهما عبارة عن مفاهيم خلقها الله تعالى لأنه خلق كـل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهـوم الإستحالـة كجـزء من كينـونتهـا التي خلقهـا الله عليها تصبح مستحيلة . وكذلك الحال مع الأشيـاء المتناقضـة . وأنه لـواضح أن هذه المفاهيم كانت قد وضعت في هذه الأشياء من قبل الله تعالى ، ولم تـأت من نفسهـا ، والقول أنها أتت من ذاتهـا معناه أنها خـارج قدرة الله وإن الله لا يقـدر عليها . والقول بذلك معناه إن هناك بعض الأشيـاء مطلقـة (لأنها خارجـة عن إرادة الله) ، والـذي معنـاه وجـود المـطلق خـارج الله وهـو مستحيـل لأنـه يعني أن الله مطلقاً حيث أن المطلقية يجب أن تتضمن كـل شيء وليس هناك شيء خـارجها . كذلك إذا كانت المفاهيم ذاتية في أصلها ، كـما يتضمن قول أكـويناس ، فكيف دخلت الى الأشياء التي هي من خلق الله (والتي يُفْهَم منها أنها خُلِقيت من قبـل

الله كلياً) ؟

وفي خضم سوء الفهم لهذه المفاهيم يأتي القديس (اكويناس) ليطرح فكرته تلك عن الله ، والتي دعت (برتراند رسل) الى القول[1] (أنه على سبيل المثال أن الله لا يستطيع أن يجعل تناقضاً ما صحيحاً . ان مثال القديس بأن هناك شيئاً ما خارج القدرة الإلهية ليس مثالاً سعيداً جداً ، فهو يقول إن الله لا يستطيع أن يجعل إنساناً ما جحشاً) . إن التشويش وعدم وضوح ارؤيا المحيطين بهذه الفكرة سببهما النظرة غير واضحة لصفات الله تعالى . فالتناقض لا يوجد في ذات الله (لأن التناقض جزء مما خلق) . والكلام في هذه المفاهيم هو من نوع أفتراض إفتراضات في عالمنا ثم نسبها الى الله ، وهو بطبيعة الحال حجة غير واردة . ولكي يكون الحوار مجدياً فإنه تجب البرهنة على أن هذه المفاهيم توجد في ذات الله قبل الكلام عنها .

هل لله علة ؟

وهناك موضوع آخر مشابه لما مر علينا من ناحية سوء الفهم ، وهو إخضاع الله الى علة سببت وجوده . و (رسل) يقول إذا كان كل شيء يحتاج الى علة فإن الله يحتاج الى علة . والصحيح هو أن نقول أن كل شيء في عالمنا ، أي كل شيء مخلوق ، يحتاج الى علة ، لأن العلة هي إحدى قوانين كوننا الذي خلقه الله ، وطبعاً فإنه لا ينطبق على الله ، لأنه وكما قلنا ، لا يخضع لما خلق . فالله خلق الأشياء وربطها بقوانين وجعل بعضها علة لبعض ، وهو علة الكون لأنه موجده . ولما كنا نجهل ماهية وجوده فإنه من غير الممكن ، ولا المعقول ، أن نتكلم عن علته لأن وجوده قد لا يحتاج الى علة . كذلك فإن قانون العلية يحكم الأشياء الناقصة التي بحاجة الى شيء آخر لكي توجد ، والكامل بالتعريف

(١) المصدر ٢٨ ـ ص٤٤٩ .

لا يحتاج الى شيء آخر ، فهو لا يحتاج الى علة .

إن أخطر تشويش للأفكار هـو تطبيق القـوانين التي خلقهـا الله على الله . وهذا بطبيعة الحال ، وكما قلنا ، مـرفوض لأنـه كيف يمكن أن يخضع لما خلق ؟ وهو معنى القول الحكيم[1] (لا يجـري عليه السكون ولا الحركـة ، وكيف يجري عليه ما هـو أجراه ، ويعـود فيه مـا هو أبـداه ، ويحدث فيـه ما هـو أحدثـه) . وصعوبة إدراك هـذه الحقيقة قـادت (برتـراند رسـل) أن يجادل بـواسطة تطبيق القـوانـين عـلى الله فانتهىٰ القول بأن الله وسيط وأن إدخـالـه في النقـاش غـير ضروري ، على حد تعبيره . وعلى سبيل المثـال ، فإنـه يقول[2] (إذا كـان هناك سبب للقوانين التي وضعهـا الله ، فإنه نفسـه خاضـع للقوانـين) . وهذا يمثـل قصوراً شديـداً في الرؤيـا لأن القانـون ضروري بـالنسبة لنـا وليس للشيء الذي كماله مطلق . فإذا كـان الله بحاجـة الى القانـون فهو ليس كـاملاً لأنـه سيكون بحـاجة لشيء خـارج عنه لتنـظيمه . ولكن إذا كـان الله كامـلاً ، وهـو كـذلـك بموجب التعريف ، فـإنـه ليس بحاجة للقانـون أو لأي شيء آخر . ونحن نـرى أن مـا يجهله الناس هـو معنى الكمال والمـطلقية ومـاذا يتضمنـان . والمخلوقـات بحاجة الى هداية ، وإذن هي بحاجة الى القانون . أما المُطلق فإنه يعرف الأشياء بدون الحاجة الى ما يسيّره .

لماذا خلق الله الخلق ؟

الحديث الذي سردناه يضعنا أمام السؤال الذي يطرحه كثير من الناس ولا يجـدون عليه جـواباً . وهـو لماذا خلق الله الخلق ؟ وهنـاك من يقول أن المسـألـة ليست في متسعنـا ، وليست عندنـا القابليـة لمعرفـة الأسبـاب لأنها تقـع مـا وراء إدراكاتنا ، وهذا صحيح بطبيعة الحـال . إلا أن القول أن هنـاك أسباب للخلق

---

(١) علي بن أبي طالب ـ نهج البلاغة .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص١٧ .

معناه إخضاع الله لهـذه الأسباب وهـو مرفـوض لأن الله لا يخضع لشيء . ومنهم من يقول أن الله خلقنا لكي نعبده ، كما يصرح هو بذلك في اية الكريمة[1] **﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾** . وهذه الآيـة تتكلم عن الأنس والجن فقط وليس عن مجمـل الخلق (وسوف نناقش مسألـة العبـودية في الفصـل الـرابـع عشر) . وهناك من يقول أن الله خلق الخلق ليبرهن على وجوده ويظهر وجوده . وهـذا معناه أنـه بحاجـة لإظهار وجـوده ، وهـو ينـافي غنى الله عن الخلق ، لأن حاجة الله لإظهار وجوده معنـاها رغبـة (أو ضرورة) ونقص ، والله تعـالى ليس مضطراً لشيء ، وليس ناقصاً .

ولكن إذا كان الله ليس بحاجة لخلق الأشياء فلماذا خلقها ؟ والجـواب على هذا السؤال لا يمكن إعطاؤه إلا من قبـل الخالق نفســه . وهو لم يعـطنا الجـواب الواضح ، فهو القائل ، عزّ من قـال ،[2] **﴿وإذا قال ربـك للملائكـة إني جاعـل في الأرض خليفة قالـوا أتجعل فيهـا من يفسد فيهـا ويسفك الـدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لـك قال إني أعلم مـا لا تعلمـون﴾** . ولكن ذلـك لا يمنعنـا من محاولة البحث حول الموضوع بشرط عدم الوقـوع في تناقض مـع صفات الله التي سردناها ، وعدم إخضاع الله لشيء ، كالقانون أو السببية مثلاً ، ونحن نعتقـد أنه إذا كان الله مطلقاً من كل الوجوه ، وهو كـذلك طبعـاً ، فإن الخلق ليس إلا نتيجة من نتائج هذه المطلقية ، ويتبع ذلك إحتمال وجود عددٍ لا متناهٍ من أنـواع ومستويات الوجود ، وعالمنا لـيس إلا واحداً من هـذه الوجـودات . وكل هـذه الـوجودات مجتمعـة تمثل جـزءاً من المـطلقيـة التي تغمـر كـل شيء وتحتضن كـل شيء . وبالمقارنة مع الوجود المطلق فإن العالم الذي ندركه تافه بتفاهة الذرة عند مقارنتها مع الوجود . وهذا هو أحد الأسباب التي تدعونا الى القول أننـا تافهـون

(١) سورة الذاريات الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

بالنسبة لله . وإذا كان كوننا ليس سوى أحد الوجـودات فإنـه من غير الممكن أن يكون مطلقاً ، أو أن يكون هو الوجود بأكمله .

وبامكان تصور أن الوجود ينبع من رحمة الله وعدالته ، ومن الله كما هـو . فـإن عدم خلق الخلق مـع القدرة عـلى ذلك معنـاه أن الله رحيم وعـادل ولكنـه يحجب هذه الرحمة وهذا العدل من أن ينالها من يستطيع من الكائنات التي يمكن أن يخلقها الله . وهذا يناقض مطلقية الله . فالرحمة المطلقة لا بد وأن تغمر أقصى ما يمكن وهو الوجود المطلق . وكذلـك الحال مـع عدل الله . فـالله يخلق الأشياء رحمة بها . وإذا كانت الأشياء بإمكانها أن تـوجد نتيجـة لقدرتـه المطلقـة ، وهي كذلك ليس بسبب الأشياء ولكن بسبب مطلقية هذه القدرة ، فإن عـدله المـطلق لا يمنعها من أن تخلق . بل على العكس من ذلك فإن هذا العـدل يعبّد الـطريق أمـام الخلق لكي يُخلق لأنه (أي العـدل) مطلق . لـذا فليس هناك ضـرورة أو إحتيـاج أو سبب لخلق الخلق كما يجـادل البعض ، وإذا كـان هنــاك سبب فهـو مطلقية الله ، وليس سبباً يؤثر عـلى الله . والأشياء تنبـع من عطائـه ، وكل شيء بحـاجـة إليـه ولكنه ليس بحـاجة إليهـا . وهـذه الحـاجـة هي مـا نـطلق عليـه العبودية .

فبـالنسبة الى الله تعـالى إذن ليست هناك حـاجـة ولا ضـرورة ولا إرادة أو رغبة في إظهار نفسه . والخلق ينبع من مطلقيته لأن المـطلق يحوي كـل الأشياء ، والخلق جزء من هذه الأشياء . قال تعالى[1] **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** .

---

(١) سورة الدخان آية ٣٨ و٣٩.

الفصل الرابع عشر

لِمَنْ العبودية ؟

تدعو الأديان السماوية على إختلافها الى عبادة الله بطرقها المختلفة . وفي هذا الفصل سوف نحاول إستكشاف المعاني الخفية لهذا الموضوع الذي أدى سوء فهمه الى ترك الناس لعبادة الله . ففي أوربا تحولت العبادة في أفضل أشكالها الى الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد ، والحال ليست أفضل من ذلك بالنسبة لمعتنقي الأديان الأخرى . وكما بينا سابقاً أن الله تعالى ليس بحاجة الى الأشياء الأخرى لأنها كلها من خلقه ، لذا فإنه ليس بحاجة الى عبادة المخلوقات له ، وهو القائل[1] (﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ . من ذلك يتضح أنه إذا كان هناك من هو بحاجة الى العبادة فإنه نحن . ولكن الماديين يجادلون بالقول أن الذين بحاجة الى العبادة هم ضعفاف العزيمة الذين تساعدهم العبادة على لم شملهم ، وأولئك الذين يخافون الموت ويخافون المجهول . أما أقوياء العزيمة والإرادة ، والذين يمتلكون الشجاعة والثقافة

---

(١) سورة ابراهيم، الآية ٨.

الكافية والوعي ، فإنهم ليسوا بحاجة الى العبادة لأنهم يستطيعون إدارة حياتهم بدون الحاجة الى العبادة ، أوالله ، لمساعدتهم ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون أن الله ليس موجوداً ولكنه مفهوم خلقه الإنسان لنفسه . فها هو (برتراند رسل) يقول[1] إن الدين ، كما أعتقد ، بُنِيَ أولاً وأساساً على الخوف . وجزئياً فإنه الخوف من المجهول ، وجزئياً فإنه الرغبة في الإحساس بأنك تمتلك شيئاً أشبه بالأخ الكبير الذي يقف بجانبك في جميع مشاكلك ونزاعاتك) . وأنا لا أعلم كيف ينطبق كلام (رسل) هذا على أولئك المسيحيين الأوائل في روما الذين كانوا من الشجاعة بمكان بحيث أنهم كانوا يُقذفون الى الأسود لتأكلهم فيتلقون الموت الرهيب بهذه الطريقة الوحشية بكل شجاعة ولم يتخلّوا عن دينهم . فلو كان هؤلاء قد إعتنقوا الدين عن خوف لكانوا تخلوا عنه بسبب الخوف أيضاً عند مواجهتهم للأسود الضارية . كذلك فإن تاريخ المسلمين زاخر بالتضحيات وحب الشهادة التي تفوق كل التصورات والتي لسنا هنا بصدد ذكرها . وأنا أتساءل كيف أن رجلاً بهذه الضحالة من التفكير مثل (رسل) يسمى فيلسوفاً ويقرأ له الناس تفاهات كهذه لا تستند على المنطق ولا على الأحداث التاريخية . أم أنه الأوربي الأبيض صاحب التكنولوجية التي بهرت العقول ، فانساقت هذه العقول وراء كل ما هو أوربي حتى وإن كان تافهاً كهذه الفلسفة الجوفاء !! أم ماذا ؟ وقد يكون (رسل) تناسى التاريخ هنا متعمداً لأنه لا يسند إدعاءه . إن الماديين مثل (رسل) فاتهم فهم الموضوع كلياً ، وقد يكونوا تصوروا أن العبادة هي الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد لسماع موسيقى الأرغون وأغاني تكريم الرب . وقد لا يكون ذلك ذنبهم وحدهم فهؤلاء قد جُلِبوا على ذلك وترعرعوا فيه ، وبطبيعة الحال فإن الكنيسة تتحمل القسط الآخر من الذنب لأنها عكست للناس العبادة ، وطيلة تأريخها ، على أنها ليست أكثر من الذهاب الى الكنيسة .

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص٢٥ .

ولكي نحصـل على مفهـوم أفضل للعبـادة يجب علينا الغـوص في مفهـوم أعمق لا تشكل العبادة سـوى جزءاً صغيـراً منه ، ذلـك المفهوم هـو الغبوديـة . فالعبيد يعبدون ، ولكن ليس بالمفهوم الذي تَعرَّض فيه الأفارقة السـود الى أقسى الظـروف وأبشع أنـواع الإضطهـاد على يـد الإنسـان الأبيض عنـدمـا نقلوا الى الأرض التي كانت حديثة الإكتشاف يـومئذ (امريكا) بـأبشع الـطرق على متن السفن فمات أكثرهم ، ومن نجا ربما كـان الأفضل لـه أن يموت عـلى أن يعيش تلك الحياة التعيسة على يد الإنسـان تالأبيض والتي لم يشهـد لها التـاريخ مثـلاً . ولكننا هنا نتكلم عن العبودية لله . فكل شيء عبد لله . والسؤال الذي نريـد أن نجـد له جـواباً هـو : ما معنى ذلـك ؟ ولكي تتوضـح الفكرة سـوف نتطرق الى الأشياء المادية أولاً ، ثم الى الإنسان .

عبودية المادة

تتكـون المادة من جسيمـات صغيـرة ذات وزن خفيف وطـاقـة صغيـرة ، وأحياناً شحنة كهربائية . أو على الأقل أنها تبدو كذلك . والخواص التي تمتلكهـا هذه الجسيمات هي جـزء لا يتجزأ من كينـونتها ، والجسيم يتحـول من نوع الى آخـر إذا فقد أحـد خـواصـه . والمـادة عبـارة عن تجمـع هـذه الجسيمـات تحت ظروف خاصة . وكما رأينا فإن المادة في حدودها النهائية عبارة عن ظواهر مرتبـطة ببعضها البعض بواسطة علاقات وثيقة . وهذه العلاقـات ليست عشوائيـة ، لذا فإن هناك تخطيطاً وتنظيماً وهذا معناه وجود السيطرة والقوانين .

وعند الهبوط الى مستوى الوجـود المحسوس الـذي يتكون من الجسيمـات وخواصها نجد أن هذه الخواص تعطي كل جسيم سلوكة المعين ، وهذا السلوك ثابت لا يتغير . فـالجسيم الذي يمتلك شجنـة كهربـائية من نـوع معين ينفـر من الجسيمات التي تمتلك شحنات مشابهة لشحنتـه ولكنه ينجـذب لتلك التي تمتلك شحنات معاكسة لشحنته ،وهكذا مع بقية الخصائص . وهذا يبين أن الجسيمات

مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة علاقات صارمة وتحكمها قوانين محددة ، والجسيم يمتثل لهذه القوانين بكل صرامة وبصورة عمياء ، وليس هناك خيار أمامه بالنسبة للطريق الذي يسلكه . بل أن كل شيء مقرر سلفاً ، وهذه الحالة في الواقع هي التي جعلت الإكتشافات والإختراعات، العلمية ممكنة . وعلى سبيل المثال ف أنه من المستحيل لجسيمين يمتلكان شحنتين كهربائيتين متشابهتين أن تنجذبا لبعضهما البعض ، وكذلك فإنه من المستحيل أن ينفر جسيمان يمتلكان شحنتين مختلفتين عن بعضهما البعض .

المادة إذن تطيع قوانين الفيزياء والكيمياء طاعة عمياء ، بدون أي تردد أو تراجع ، وهذا ما جعلها على حالتها . فالحديد مثلاً يتكون من أجزاء صغيرة هي ذرة الحديد التي هي على شكلها ولها صفاتها لكونها ذرة حديد تتكون من عدد معين من البروتونات والإلكترونات والنيوترونات . ولو تغير هذا العدد تغيراً بسيطاً لتحولت الى مادة أخرى غير الحديد . كذلك فإن الالكترون يحمل شحنة معينة أطلق عليها الشحنة السالبة بينما البروتون يحمل شحنة مساوية لشحنة الإلكترون ولكنها معاكسة لها ، وأطلق عليها الشحنة الموجبة . ولو أخذنا مثلاً بسيطاً من أمثلة الكيمياء فوضعنا الأوكسجين والهيدروجين معاً وفي ظروف خاصة فإنهما سوف يتحدان لتكوين الماء ، وهذا الإتحاد (تحت تلك الظروف) حتمي وسوف يحدث ولا شيء آخر يحدث لهذين العنصرين . ونلاحظ هنا أن الأوكسجين لا خيار له سوى الإتحاد بالهيدروجين ، والهيدروجين لا خيار له سوى الإتحاد بالأوكسجين . وهذه الطاعة الحتمية لهذا القانون الكيمياوي (وهو طاعة لأوامر معينة ومحددة) طاعة عمياء مادام الأوكسجين أوكسجيناً والهيدروجين هيدروجيناً ، وسوف لن يحدث الإتحاد (أي إطاعة تلك الأوامر) فقط في حالة تحول أحد العنصرين ، أو كلاهما ، الى مواد أخرى . وفي تلك الحالة فإنهما سوف يمتثلان لقوانين وأوامر أخرى بنفس الصرامة .

إن طاعة هذه المواد للقوانين تمثل العبودية الحقة لأنه ليس هناك أي

عصيان لهذه القوانين أو أي إنحراف عنها ، وهذه العبودية مبنية كجزء من كينونتها وبنيانها . لذا نرى أنه إذا حدث خلل فإن الأشياء تعيد ترتيب حالتها ووضعها ، سواءاً شكلاً أو تكويناً ، الى حالة جديدة بموجب القوانين والأوامر لتسير كما يجب عليها أن تسير ، ولا يمكنها أن تحيد عن هذا السلوك .

المادة إذن ، وكجزء من تكوينها ووجودها تخضع لقوانين معينة خضوعاً تاماً بدون أي مناقشة أو تردد ، ولا يمكن لأحد أن يتصور أي معنى للمادة كما نراها لو كانت لاتخضع لهذه القوانين . وقد يقول البعض أن المادة عبارة عن طاقة متجمعة ، أو بصورة أساسية أكثر ، ظواهر تربطها علاقات وثيقة . وهذا لا يغير من الموضوع شيئاً لأن الطاقة هي الأخرى تتبع قوانين صارمة ، كالمجال الكهربائي والمجال المنغاطيسي مثلاً ، وبإتباعها تلك القوانين تجمعت على شكلها الذي نراه ونسميه المادة ، وهو تجمع ليس عشوائياً بطبيعة الحال . كما أن الظواهر ترتبط بواسطة العلاقات الوثيقة التي هي ليست سوى قوانين أخرى أيضاً .

ما هي القوانين ؟ أنها أوامر . ولكن أوامر مَنْ ؟ لابد وأنها أوامر الذي أوجد المادة والطاقة والظواهر ، وهو الله تعالى . فالمادة إذن تطيع أوامر الله تعالى طاعة عمياء ، وهذا مطلق الطاعة ، ومطلق الطاعة هو العبودية ، وهي عبودية المادة لله تعالى . قال تعالى[1] **﴿أفغير الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون﴾** . وقال تعالى[2] **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾** . فعبودية المادة لله تعالى إذن جزء من وجودها ، وفي الحقيقة أنها سبب وجودها ، لأنها لا يمكنها البقاء كما هي بدون الإمتثال للقوانين التي تحكمها ، بل أن مخالفة القوانين يؤدي بها الى الفناء ، أو التحول من نوع الى آخر ، أو من حالة الى أخرى . وهذا الفناء أو التحول يمكن

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٨٣.

(٢) سورة مريم الآية ٩٣.

إعتباره عقاباً، بينما إطاعة القوانين والبقاء هو الثواب .

عبودية الإنسان والحيوان والنبات

يتكـون الإنسان من مـادة تمثـل جسمـه ومن العقـل الـذي يمثـل التفكـير والسلوك . وكما رأينا فإن جزءه الجسمي تحكمه قوانين الفيزياء والكيمياء . فـإذا رميته من مرتفع سقط ، وإذا وضعت حامض الكبريتيك عـلى يده فـإن الحامض يتفاعل مع العناصر المكـونة لجسمـه ، شأنـه في ذلك شـأن أي مادة أخـرى لأن الجسم يتكون من هذه المواد . وهنا تتجلى عبودية هذا الجزء من الإنسان (وهـو الجسم) المطلقة لقوانين الطبيعة وأوامـرها ، وهي أوامـر الله تعـالى لأنـه موجـد هـذا الكون . وبنفس الـطريقة فـإن أجسـام الحيـوانات والنباتات تمتثل لأوامـر الخالق تعالى .

أما تفكير الإنسان ، فإنه بالإمكان إعتباره يتكون من نوعين مترابـطين من التفكير ومتداخلين مـع بعضهما البعض ، وهمـا الغرائـز والوعي (أو الإرادة) . أي أنه ، ولغرض الحوار الذي نحن بصـدده ، سوف نـنظر الى العقل البشـري على أنه ينقسم الى نوعين من العمليـات التفكيريـة . أحدهمـا سوف نـطلق عليه إسم العقـل (أو التفكير) الغـريزي وهـو الـذي يختص بـالإستجـابة والسلوك الغـريزي . والثـاني سوف نـطلق عليه إسم العقـل (أو التفكير) الإرادي وهـو الـذي يمثل الحـدود النفسية للعقـل بصـورة واضحـة ، ولكنـه بنفس الـوقت لا يتناقض مع قوانين علم السيكولوجيها ، أو مع حقائق الأشياء . وبالرغم من أن التفكير يحدث داخل الدماغ بفعل التغيـرات الحاصلة في الـدماغ من تحـول المادة الى طـاقة ، وهـو بحد ذاتـه عملية منسبقة تحكمها قـوانين معينـة ، فـإن السلوك الناتج هو سلوك لا مادي . والتفكـير بكلا نـوعية ، الغـريزي والإرادي ، هـو التنبه لأسباب أو ظـواهر معينـة والقيام بفعـل يلائم متـطلبات الـظروف (وهذا يتضمن ايضاً الأفعال اللاارادية كالتنفس وضربات القلب وغيرها والتي يتم التنبه إليها تلقائياً بصورة اللاشعور) . فـإذا أحس الإنسان بـالعطش فـإنه يشـرب ولا

يأكل ، وإذا أحس بالجوع فإنه يـأكل ولا يشـرب . والسلوك مختلف في الحالتـين تبعاً لنوع الأمر .

التفكير الغريـزي ينصاع لقـوانين وأوامـر معينة بصـورة صارمـة . وهو في الحقيقة سلسلة من الأوامر المحـددة والتي ليس للإنسـان سيطرة عليهـا . فهو لا يستطيع تغييـرها أو العمـل ضدهـا . فالإحسـاس بالعـطش مسألـة لا يستطيـع الإنسان تفاديها أو منع نفسه من الإحساس بها . فهو يحس بالعطش كلما إحتـاج جسمه للماء . وهذا الإحساس بالعطش أمر صارم يطيعـه الإنسان بـواسطة الإحسـاس بـه ، ثم يطيعـه مرة أخـرى بواسـطة سلوك محدد ، وهـو الشـرب ، وليس شيئاً آخر . وقد يجادل البعض بالقول أنه يستطيع أن يختـار عدم الشـرب . ولكن في هذه الحالة فإنه يموت وينتهي وجوده كإنسان . ولكي يحافظ على كينونتـه ووجوده كإنسان فإنه يجب أن يطيع الأمر ويشرب . وهذه الطاعة للأوامر الغريـزية تشبـه طاعة الجسم للأوامر الفيزيائية والكيميائية تماماً . ويتضح أن التفكـير الغريـزي يتبع قوانين وأوامر محددة ، وهي قوانين الخالق . والغرائز عند الإنسان (وكذلك عند الحيوان والنبات) عبارة عن قوانين وأوامر الغرض منها المحافـظة على الحيـاة الموجودة في الكـائن الحي . والإنسان لا يملك حيلة إلا الإنصيـاع إليها ، وإذا لم يطعها فإنه سيدفع الثمن على شكل ألم أو المـوت ، وهو العقـاب . ومرة أخـرى تتجلى العبوديـة في الإنسان لهـذه القوانـين ، وبالتـالي لخالقهـا . وهذا معنـاه أن الحياة لا يمكن المحافظة عليها ، أو إنتاجها ، (أي أنها لا يمكن أن توجد) بدون العبودية للخالق . فالعبودية للخالق إذن جزء لا يتجزأ من جوهر الوجود بالنسبة للحياة ، ولا يمكنها الوجود إلا بالإرتباط بالله تعالى .

نأتي الآن الى التفكير الإرادي ، حيث الإختلاف فيه مع التفكير الغـريزي هو أنه فيه الخيار . فالإنسان مخير أن يفعل كذا أو لا يفعله ، أو أن يسلك هكذا أو هكذا وهذا هو التفكير المميّـز لنوعيـة السلوك ، وتنصّب عليه جميـع القوانـين التي تحكم المجتمعات البشرية ، والتي تأخـذ أحيانـاً شكل الأعـراف الإجتماعية

والتي هي قوانين أيضاً ، وإذا شذ الإنسان عنها فإنه يعاقب من قبل الآخرين . والعقوبة قد تكون الإعدام أو السجن أو الغرامة أو النبذ من قبل الأخرين ، أو ما شابه . ونوع العقوبة يعتمد على نوع الشذوذ ومقداره . فالقتل قد يستغرق بعض الثواني الا ان عقوبته الاعدام أو السجن المؤبد والسرقة عقابها أقل صرامة . هنا فإن العقوبة تعتمد على درجة الشذوذ ، وهي مشابهة من هذه الناحية لقوانين الفيزياء والكيمياء والقوانين الغريزية . فكلما جاع الإنسان لفترة أطول كان الألم أشد ، أي أن العقوبة أقسى . وكلما كان الارتفاع الذي يسقط منه أعلى كان الضرر الذي يحدث أكبر ، أي أن العقوبة أشد . فالعقاب يعتمد على نوعية المخالفة ، أي نوعية الشذوذ وهذا قانون عام ينطبق على الجسم المادي وعلى التفكير بنوعيه الغريزي والإرادي على حد السواء ، والفرق يكمن في أن قوانين الجسم والسلوك الغريزي تنفّذ حكمها مباشرة ، بينما لا تنفذ القوانين التي تحكم الفكر الإرادي حكمها مباشرة ، لأنه في هذه الحالة سوف لن يكون هناك معنى للإختيار والإرادة . فإرجاء تنفيذ الحكم على الشذوذ عن القانون ضروري لوجود الإرادة لأنه بدون ذلك سيكون من المستحيل خروج هذه الميزة (الإرادة) الى حيز التنفيذ . لذا كانت هناك القوانين التي سماها الإنسان العدالة . فالمحكمة تنظر في شذوذ السلوك الإرادي بالضبط كالقوانين الفيزيائية أو الغريزية . وبطبيعة الحال فإنه لو لم تكن هناك قوانين تحكم السلوك الإرادي للإنسان لتحوّل المجتمع الإنساني الى شريعة الغاب وفقد إنسانيته وتحول الى مجتمع حيواني . لذا ، وللحفاظ على إنسانية المجتمع يجب إتباع قوانين معينة ومحددة لضبط هذا السلوك . وإطاعة هذه القوانين هي العبودية لموجدها . وفي الواقع إننا أحرار للقيام بالافعال التي تسمح بها القوانين فقط والتي لا تؤثر على حقوق الأخرين وسعادتهم .

عبودية الفكر الارادي

ان هذا الوجود الذي نراه ونحسّ به متوازن وتسري فيه العدالة ، ولولا

ذلك لاختلّ توازنه . وتنبع عدالته من اتباعه القوانين المحددة له ومن عبوديته المطلقة لهذه القوانين . ومعنى ذلك انه تحكمه قوانين معينة ومترابطة لتنظيم العلاقات المختلفة بين اجزائه ، ولا تسمح لهذه الأجزاء الاخلال به لان أي انحراف لأي شيء هو اعتداء على حقوق الاشياء الاخرى . وهذا ما تقره وترويه لنا علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات . والعدالة تسري في جميع أرجاء الكون ، وبضمنها الانسان والاحياء الاخرى لان الكائنات الحية جزء من الكون . وقد رأينا أن قوانينها تبسط نفوذها على جسم الانسان وتفكيره الغريزي بنفس الصرامة . كما رأينا أن تفكير الانسان الارادي محكوم بالقوانين أيضاً .

ولما كان الخالق لهذا الكون أعطى الأشياء كلها قوانينها الضرورية التي تحكمها وتمكّنها من الوجود ، فانه لا يمكن ادراك أي سبب معقول لترك الانسان تائهاً في هذا الوجود دون اعطائه قوانين لتنظيم حياته ومجتمعه سوية بباقي الأشياء . لأن القول بذلك معناه ان الله ظالم وهذا يناقض الفكرة القائلة ان الله هو مطلق العدالة . لذا فان الخالق لا بد وان وضع قوانين للانسان لادامة حياته وسعادة مجتمعه ، خاصة وقد عرفنا ان الخالق قد وضع القوانين التي تحكم جسم الانسان وغرائزه . فالعدالة لا بدّ أن تسري ، والقوانين التي وضعها الخالق سلفاً لاعطاء كل شيء وجوده وكينونته يجب أن تُطاع ، والتي تؤدي الى الحفاظ على وجود الأشياء كلها . وانها قابلية الخالق ، والخالق فقط ، ان يسبب انعدامها ، وكما قلنا عند مناقشة العدل الالهي ان الله أعطى كل شيء المقدار الذي يستحقه من الوجود . لذا فانه من غير الممكن أن يُترك الانسان بدون قوانين وتعليمات يتبعها لتنظيم حياته ، والا فان الظلم سيسود المجتمع ولن يكون هناك من سبيل لاستعادة العدالة إليه . واذا حدث ذلك ، فانه سيكون الشيء الوحيد الذي انفرد عن العدالة الكونية في هذا الوجود . وفي الواقع ليس هنالك ما يدعو الى أن تكون الحالة هكذا .

ان اتباع الانسان للقوانين هي العبودية لله الذي خلق الانسان كما خلق

الأشياء كلها ، وكلها تخضع بالعبودية لله ، وهو معنى قـوله تعـالى[1] **﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾** . وبهذه الطريقة وحـدها يمكن أن تسـود العدالـة التامـة والحرية الكاملة لأن قوانين الله تعالى تعطي كل شيء حقـه ، ولا يمكن لشيء أن يخطو خارج دائرة حقوقـه الى دوائر حقـوق الأشياء الاخـرى . وبطبيعـة الحال ، فان الله لا يسلب حقوق المخلوقات لأنه ليس بحاجة لان يفعل ذلك .

ان القوانين التي تحكم المادة والغرائـز موجـودة في ذات الأشياء وتـولد مـع الأحياء ، ولكن ليس القوانـين التي تحكم السلوك الواعي . ولـما كان الله مـطلق العدالة فانه لا يترك الانسان جـاهلاً بهـذه القوانـين . وقد يسـأل البعض لماذا لم يجعـل الله هذه القـوانين تـولد مـع الانسان كجـزء من خلقه كـما هي الحال مـع القوانين الاخرى ؟ والجواب على ذلك هو انه في هذه الحالـة فان المخلوق سـوف لن يكون انساناً ، بل سيكون مخلوقاً من نـوع آخر . وقـد تكون هنـاك مخلوقات كهـذه في أماكن اخـرى ، كالمـلائكة عـلى سبيـل المثـال ، والـذين يخلقـون وهم يعلمون ما يحتاجون ان يعلموه . وعلى كل حال فـان الطريقـة الوحيـدة لاطلاع الانسان على القوانين يجب أن تكـون خلال واسـطة يفهمها ، أي خـلال السمع والبصر . وعقل الانسان لا بد وانه مصنوع بحيث يمتلك القابلية على فهم هـذه القوانين . والاسوف لن يكون هناك معنى للمشروع بأكمله ، لأنه سيعني ان الله ظالم (تعالى عن ذلك) ، فهو خلق الانسـان على مستـوى من الادراك لا يمتلك معه القابليـة على فهم وتـطبيق القوانـين التي تحافظ عـلى وجوده وسعـادته كبقيـة المخلوقات . وهذا بطبيعة الحال يناقض عدالة الله المطلقة . من ذلك نستنتج ان الانسان لا بد وان يكون قد تم اخباره بهذه القوانين بواسطة احد افراد مجتمعه ، أو مجموعة من الافراد الذين يستـطيع أن يتفـاهم معهم ، وهو مـا تقصده الآيـة

---

(١) سورة النور، آية ٤١.

الكريمة[1] ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ . وهؤلاء الأفراد هم الأنبياء الذين يتم اختيارهم تحت ظروف خاصة (وقد ذكرناها سابقاً) لاستلام التعاليم خلال واسطة معينة ثم يخبرونها الى الآخرين . فالانسان وحده لا يستطيع معرفة هذه القوانين لأنها لا تولد معه كبقية قوانين الفيزياء وقوانين الغريزة ، والسبب في ذلك ان هذه القوانين خاصة بإرادة الانسان الحرة ، والتي تكون حرة فقط اذا فُسح لها المجال لان توضع موضع التنفيذ أولاً ثم بعد ذلك يأتي الحكم على صحة استخدامها ، بالضبط كما نشاهد كيفية الفصل في قضايا المحاكم بعد اقتراف الجريمة أو حدوث الاختلافات بين الناس .

ضرورة العبودية :

كيف يكون الحديد حديداً ولا شيء سوى الحديد ؟

تقول لنا علوم الفيزياء والكيمياء انه يبقى حديداً باتباعه القوانين وخضوع مكوناته وذراته الى القوانين التي تجعله حديداً . وهذا معناه انه لو لم تطع مكونات الحديد تلك القوانين لما وُجد الحديد ، أي انه سيفنى كحديد . اذن فان طاعة الحديد لتلك القوانين ضرورية لوجوده . ولما كانت هذه القوانين هي أوامر الخالق تعالى ، فان الحديد موجود كحديد بضرورة طاعته لله ، أي ان اتصاله بالله تعالى وعبوديته له ضرورية لوجوده ، ولا يمكن أن يوجد في هذا الكون بدون العبودية لله .

وكذلك الحالة مع جميع المخلوقات فانها لا يمكن ان يكتب لها الوجود بدون اتصالها بالله تعالى وعبوديتها له . فالعبودية اذن ضرورية لوجود الأشياء ، وبدونها تفنى الأشياء لانها انما أصبحت على ما هي عليه بسبب اطاعتها للقوانين

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية ٩٥.

التي تسري فيها لربط اجزائها ببعضها البعض . وهذا هو معنى العبودية للخالق ومعنى ضرورتها ، فهي جزء من كينونة الأشياء لان الأشياء ليست أشياء بدونها . ومن هنا جاء قوله تعالى[1] ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾. وهذه العبودية هي الارتباط بين الأشياء والخالق . وهو المقصود بالقول الحكيم[2] (فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة) . والذي معناه ان الارتباط بالله هو الطاعة العمياء لقوانينه ، وبُعد الأشياء عن الله هو بُعدٌ نوعي (من ناحية نوع الوجود) وليس بعداً من ناحية المسافة .

والناس ليسوا أناساً بدون العبودية لله ، لأنه بدون اطاعة قوانين الخلق يتحولون الى اشياء اخرى تماماً بنفس الطريقة التي يتحول فيها الحديد الى شيء آخر اذا لم يطع القوانين الفيزيائية (وهي قوانين الخلق بالنسبة له) . ولكن الى أي شيء يتحول الانسان عندما يسير بعكس قوانين الخلق ؟ انه يهبط الى مستوى الحيوان . وهذه الحالة مشابهة لحالة المجتمع اذا خالف فيه جميع الأفراد القوانين والاعراف فيتحول الى فوضى كاملة ويسود الظلم وتنتشر المعاناة والتعاسة وتنفقد الراحة والسعادة . فالأشياء التي تخالف قوانين الخلق تفقد حقها في الوجود لانها تشذّ عن المسار المرسوم لها . والانسان خلق كإنسان ، فاذا فقد حقه في الوجود فانه يفقد حقه في الوجود كإنسان ويتحول الى وجود من نوع وجود الحيوان . والحيوانات لا تحتاج (بموجب خلقها) الى الحب والعطف الذي يحتاجه الانسان ، ولذا فاذا عاش الانسان عيشة الحيوانات فانه سيعاني من حرمان الحب حرماناً تاماً ، وهذا بطبيعة الحال يقوده الى جميع انواع المعاناة الاخرى . وهذا هو المقصود بفقدان رحمة الله وعطفه ، وهذا هو المقصود بان الانسان

---

(١) سورة آل عمران ـ آية ٨٣ .

(٢) الامام علي، نهج البلاغة .

يتحول الى حيوان . فهو يتحول الى مخلوق مادي التطلعات والسلوك بكل معنى الكلمة مما يؤدّي الى التدمير التام للمجتمع خلال الحروب والويلات . وهذا ما حدث للمجتمعات القديمة التي شيدت حضارات ضخمة والتي لم تكن حضارات إلٰهية عادلة ، ولكنها حضارات مادية سارت ضد قوانين الخلق فانتهت بالدمار والفناء . وهذا ما سيحدث للحضارة المادية المعاصرة أيضاً . فسنّة الله هي نفسها[1] ﴿فلن تجد لسنّة الله تبديلا ، ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾ . فالأشياء التي تشذّ عن مسارها المرسوم لها تتيه في عالم الوجود ، ولكن الناس والمفكرين الماديين ، خاصة الأوروبيين منهم ، في جهل كامل لهذه الحقائق لأنهم بعيدون كل البعد عن التحليل الصحيح للحوادث والأمور . فالله خلق الانسان ومعه قوانينه التي تحافظ عليه كما خلق الحديد وقوانينه التي تحافظ عليه ، وكما خلق بقية الأشياء وقوانينها . واذا أراد الانسان أن يصل الى النهاية الصحيحة المرسومة له من قبل الخالق فعليه اطاعة القوانين . اما اذا اختار عصيان القوانين وانتهى الى الدمار والفناء فسيكون ذلك ذنبه هو وليس الخالق . فالخالق وضع بنا الرحمة والعطف على بعضنا البعض ، وهذه يمكن لها أن تسود بصورة صحيحة اذا أطعنا الأوامر ، وهذه الطاعة تؤدّي الى الحفاظ على حقوق الافراد وامتيازاتهم بموجب الخلق ، والتي هي الحالة الوحيدة الصحيحة ، وأي شذوذ عن هذه الحالة الصحيحة تتضمن الظلم بالضرورة لأنها محاولة تبديل المسار الذي قرره الخالق المطلق .

ولتوضيح ما أسلفنا بنظرة اخرى نقول ، لما كان الله تعالى قد خلق الأشياء كلها ومنحها حقوقها في الوجود وفي ممارسة امتيازاتها التي تخص وجودها ، وكما قلنا فان ممارسة هذه الامتيازات بصورة صحيحة هي في الحقيقة جزء من العبودية للخالق واطاعة أوامره لأنه لا يحدث شيئاً بدون القوانين ، فانه سيتبع ذلك ان اخذ امتيازات شيء ما معناه حرمان ذلك الشيء من ممارسة حقوقها ومن ممارسة

---

(١) سورة فاطر ـ الآية ٤٣ .

طاعته للخالق ، وهذا يطلق عليه الظلم . لذا فان سبب تحريم الظلم هو لأنه تمردٌ على قوانين الخلق التي جعلت الكون كما هو ، وسلبٌ لحقوق الآخرين والاعتداء عليها وهو أيضاً عدم وضع الشيء في موضعه . وأي عصيان يُقضى عليه للسبب البسيط هو ان العصيان معناه خروج المخلوق من مساره الى مسار آخر تحكمه قوانين اخرى مختلفة ليست موضوعة له ، ولذا فانها لا تنسجم مع طبيعته . فاذا خضع لقوانين كهذه فانه لا محال يتغير الى شيء آخر بموجبها . لذا فان الذنب هو ذنب المتمرد لما يمكن أن يحصل له ، وليس الخالق . قال تعالى[1] **﴿ما يبدل القول عندي وما أنا بظلّام للعبيد﴾**.

فالخلل الذي يحدث في تركيب مادة معينة لا يُسمح له بالوجود وانما يقضى عليه مباشرة وفي منتهى القسوة بواسطة تغيير هذه المادة الى نوع آخر أو الى حالة اخرى . والظلم عصيان لا يسمح به أيضاً ولكن يُقضى عليه بطريقة مختلفة لان الخروج عن القانون فعل واع كما رأينا . ولما كان الخالق مطلق من جميع النواحي ، وهو خالق الأشياء كلها ، وهو السبب في وجودها ، فانه من العدالة والاخلاق ، ومن صحة الامور أن تعبده المخلوقات وتطيع أوامره . وهذا هو المقصود بالقول الحكيم[1] (إلّهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني عرفت أنك أهل للعبادة فعبدتك) وهذا هو معنى العبادة ، انها اطاعة أوامر الخالق دائماً وفي كل الأعمال ، وليست الذهاب الى الكنيسة مرة في الأسبوع والاستماع الى أغاني الارغون . كما انها ليست بسبب الخوف من المجهول كما يظن (رسل)، ذلك الفيلسوف الأبله ، ولكنها لأن الله يستحق ان يُعبد ويطاع . وهذا معنى الآية الكريمة[3] **﴿وما خلقت الانس والجنّ الاّ ليعبدون﴾** .

---

(١) سورة ق، الآية ٢٩ .

(٢) الامام علي ـ نهج البلاغة . .

(٣) سورة الذاريات ـ آية ٥٦ .

الثواب والعقاب بعد الموت

تسود العدالة الكون ، ولقد رأينا ان هناك ردعاً وعقوبة لكل شيء يشذ عنها . ولكننا نرى ان الانسان يشذ عن هذه العدالة فيظلم ويعبث في الأرض فساداً ثم يموت دون عقوبة تتفق مع عمله وظلمه فكيف يمكننا أن نفهم ذلك من خلال مفهوم الوجود الذي سردناه ؟ هل انه شذوذ عن الاطار العام ؟ اذا كان كذلك ، لماذا يكون الاستثناء الوحيد عن القاعدة ؟ عند التمعّن في هذا الموضوع نرى انه ليس هناك مبرر لاستثنائه .

ولكن اذا كان الظالم يموت بدون عقاب يتلاءم مع ظلمه فمتى وأين العقاب إذن ؟

لا شكّ ان نوعية العقاب ووقته ، وأي شيء آخر في هذا الوجود المتزن ، لا بد وان يكون متناسبين مع نوعية العصيان . فالزمن يكون مباشرة بعد الشذوذ ، عدا ما يخص تلك الأفعال التي تتعلق بالارادة والاختيار ، والتي تتأخر العقوبة بالنسبة لها الى ما بعد اكمال الأفعال المخالفة للقوانين . وعلى سبيل المثال ، اذا القي القبض على انسان يقترف جريمة فانه يقدم الى المحاكمة ، وهي عملية تستغرق وقتاً للنظر في موضوع الجريمة ونوعيتها ، وتُعقد المحاكمة بعد وقت اقتراف الجريمة والسبب في ذلك هو ان الانسان يجب أن يُعطى الفرصة لاطاعة القوانين أو الشذوذ عنها لأنّه ليس من المعقول معاقبة الأبرياء بدعوى انهم قد يقترفون الجرائم . لذا فان ارجاء انزال العقوبة ضروري لممارسة الارادة . وبذلك فان العقوبة تأتي بعد عصيان قانون الخليقة الالهي . ولذا بالنسبة للانسان فان العقوبة تأتي بعد اجراء المحاكمة الالهية ، والتي تقام بعد الموت للنظر في الجرائم ، أي بعد أن ينهي الانسان مدة اقامته في هذه الحياة الدنيا ، لأنها لا تحدث في هذه الحياة . وبهذه الطريقة فقط تكمل مطلقية العدالة الالهية ، والا فانها لن تكون مطلقة .

وقد يتساءل البعض ، انـه لما كـان الله يعرف ان فـرداً من الناس سيعصي الأوامر ويتجه بعكس قوانين الخليقة ، لماذا يتركه يفعـل ذلك ؟ لمـاذا يعاقبـه بعد الموت وبعد اجراء المحاكمة ؟

في الـواقـع ان السؤال الأول قـد تمت الاجـابـة عليـه لأن الانسـان يمتلك الارادة التي لا معنى لها اذا لم يمارسها . أما السؤال الثاني فان اقامة المحاكمة بعد اقتراف الجريمة هي الطريقة الوحيدة التي تنطبق على تعريف العـدالة الحقيقيـة ، حيث يُسأل الانسان عما فعل وعن الأسباب التي دعته ان يظلم ، ويُعطىٰ فـرصة للدفاع عن نفسه .

وكـما ان العقوبـة ضروريـة لاقامـة العدل ، فـان الثواب ضـروري لاتمام الهدف الذي تُجرىٰ من اجله العقوبة ، وهو تحقيق العدالة . فاذا كانت العقـوبة قد وُضعت لأولئك الذين يعصون الأوامر ، فماذا عن أولئـك الذين يـطيعونها ؟ لا بد وان هناك ثواباً على ذلك لانه بدون الثـواب يصبح المشـروع ناقصـاً ويفقد معناه . فما هو الثواب ؟ انه البقاء في الوجود والسعادة . فبالنسبـة للحديـد فانـه يبقى حديداً، وبالنسبة للأرض والشمس فانهما لا تصطدمان مع بعضهما البعض بل كل منهـما يبقى في مساره . وثـواب الغرائـز هو الاحسـاس بالنشـوة واللذة . فمن الصعـوبة تصـور كيفية الحفـاظ على الحيـاة بـدون اللذة والألم ، أي بـدون الثواب والعقاب . وماذا عن أفعالنـا الارادية إذن ؟ الجـواب على ذلـك هو أننـا بـاطاعـة الأوامر الالهيـة نحافظ عـلى سعادة المجتمـع الانسـاني ، وعـلى حقـوق وممتلكـات الأفراد دون المسـاس بها . فـالذين يقتـرفون الجـرائم يجب معـاقبتهم والـذين يتبعون الأوامـر يجب اثابتهم لأنهم يسـاهمـون في المحـافـظة عـلى سيـادة العدالة في المجتمع ، والمحافظة على سعادة وممتلكات الآخرين . ومن هنا جاءت أحقية الجنة والنـار . ان وجودهمـا ضروري لاكمـال مشروع الـوجود . وثـواب المطيع يكون في الدنيا والآخرة ، سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة ، اما عقـاب العاصي للأوامر فانه تعاسة في الدنيا وتعاسة في الآخرة . فالمجرم يعيش تعيساً في

دنياه مكروهاً من قبل الناس، وله في الآخرة عقاب شـديد . ومن هنـا جاء قـوله تعالى[1] ﴿فوربّ السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون﴾ .

ونود هنا أن نذكر ما يقولـه (برتـراند رسـل) عن موضـوع العقاب . انـه يسأل أي إله هذا الذي يعاقبنا بهذه القسوة ما بعد الموت بسبب الذنوب التافهـة والصغيـرة التي نقترفهـا في هذه الحيـاة ؟وواضح ان (رسل) أساء فهم المـوضـوع كلياً ، وفاتت عليه سببية العـلاقات بـين الأفعال الخـاطئة (أو الـذنوب) وبـين عقابها . فلو اننا حذّرنا انساناً من عدم رمي نفسه من بناء شاهق ، ولو انـه كان عنيداً ورمى نفسه من أعلى البناء وتكسـرت عظامـه ، فهل يستـطيع (رسـل) أن يقول ان هذه العقوبة قاسية بالمقارنة مع عناد الشخص؟ بالـطبع كـلا . وبالـرغم من ذلك فانه لا يستطيع أن يرى بأن نوعية العقوبة تتناسب مـع نوعيـة الذنب . فقتل انسان قد لا يستغرق أكـثر من فعل الضغط البسيط عـلى زناد المسـدس الا ان النتيجة كبيرة وهي اعـدام حياة انسـان . وكذلـك الحال مـع الثواب ، فـان نوعيته تتناسب مع مقدار الاتباع الصحيح للقوانين .

والسؤال الـذي يبقى هنا هـو : ما هي قـوانين الخـالق التي يجب اتباعهـا بالنسبة لأفعالنا الارادية ؟ وبطبيعة الحال اننا نعتقد أنها قوانين الاسـلام . الا ان معتنقي الاديان الاخرى لا يتفقـون مع هـذا الرأي بـطبيعة الحـال لان كلاً منهم يعتقد انه هو الصحيح . وليس الغـرض من هذا الكتـاب بحث هذه المسـألة ، ولكننا نستطيع أن نقول بكـل ثقة انـه اذا كان الله عـادلاً ، وهو كـذلك ، فـان قوانينه يجب أن تكون نفسها لكل البشريـة لانه ليس من المعقـول تطبيق قـوانين مختلفة على المجتمعات البشريـة المختلفة فيسمـح لبعضهم بممارسـة ما يمنـع عنه الآخرين . وهذا أيضـاً يفنّد الـرأي القائـل ان الأديان المختلفـة هي كالنـظر الى نفس الشيء من زوايا مختلفة . وبذلك فـان هناك دينـاً واحداً صحيحـاً ، وجميع

(١) سورة الذاريات ـ آية ٢٣ .

الأديان الاخرى خاطئة . وقد لا تكون جميع تعاليم الأديان الاخرى خاطئة ، ولكن كل واحد منها ذا أخذ لوحده فسوف يتضمن بعض التعاليم الخاطئة مما يجعله غير مقبول عندما يؤخذ ككل .

المصادر

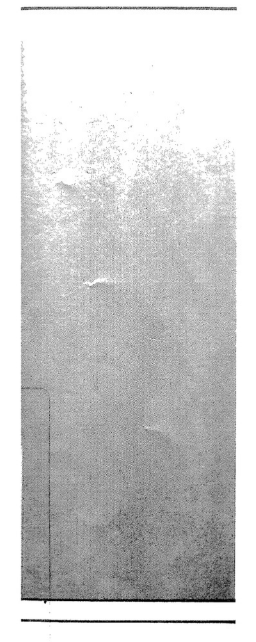
BIBLIOGRAPHY

1 - (Man , Time and Fossils), by , Ruth Moore , Alfred A. Knopf , 2nd edition , 1971 .
2 - (Process of Organic Evolution) , by , G . Ledyard Stebbins , Prenticehall , Inc . , 2nd edition , 1971 .
3 - (Genesis Revised), by , Glenn G. Strickland, The Dial Press , 1979 .
4 - (Chance and Necessity) , by , Jacques Monord , translated to English by Austryn Wainhouse , Alfred A . Knopf , 1971 .
5 - (Three Billion Years of Life) , by , Andre De Coyeux , translated to English by joyce E. Clemow , Stein and Dry Publishers , New York , 1969 .
6 - (Evolution Now) , Edited by , John Maynard Smith , W. H. Freeman and Company , 1982 .
7 - (The Story of Life from The Beginning to You) , by , Kim Marshall , Holt , Rinchart and Winston , 1980 .
8 - (Human Origin) , by , Richard E. Leakey , Ladestar Books , 1982 .
9 - (Evolution Goes on Every Day), By , Dorothy Hinshaw Patent , Holiday House - New York , 1977.
10 - (Genesis Mystery) , by , Jeffery Goodman , Times Books , 1983 .

11 - (The Naked Ape) , by , Desmond Morris , Jonathan Cape , 1986 .
12 - (Not From the Apes) , by , Bjorn Kurten , Pantheon Books , 1972 .
13 - (The Global Brain) , by , peter Russell , J.P. Tarcher , Inc ., 1983 .
14 - (Evolutionary Anthropology) , by , Herman K. Bleibtreu , Allyn and Bacon , Inc ., 1969 .
15 - (Adam»s Ancestors)by , L.S.B. Leakey , Harper and Row , Publishers , 1960 .
16 - (African Genesis) , by Rober Andrey , New York Atheneum , 1968 .
17 - (The Ascent of Man) , by , J. Bronwski , Little , Brown and Company , 1973 .
18 - (The Human Race) , by Terence Dixon and Martin Lucas , Thames Methuem , 1982 .
19 - (The Phenomenon of Man) , by , Pierre Teilhard De Chardin , Collins Sons and Co . Ltd , 1966 Print .
20 - (The Myth Mader , Paul and The Invention of Christianity) , by , Hyam Maccoby , Weidenfeld andd Nicolson , London , 1986 .
21 - (The Forces of Nature) , by , P.C.W. Davies , Cambridge University Press , 1979 .
22 - (ABC of Relativity) , by , Bertrand Russell , Unwin Paperbacks , Third Revised Edition , 1969 .
23 - (General Relativity from A to B) , by , Robert Geroch , The University of Chicago Press , 1978 .
24 - (Space , Time , and Gravity) , by , Robert M. Wald , The University of Chicago Press , 1977 .
25 - (Religion and Science) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1961 .
26 - (Mysticism and Logic) , by , Bertrand Russell , George Allen and Unwin , 1970 Print .
27 - (Why I am not a Christian) , by , Bertrand Russell , Unwin Books , 1975 .
28 - (History of Western Philosophy) , by , Bertrand Russell ,

Unwin , 1982 .
29 - (The Problems of Philosophy) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1978 .
30 - (Dictionary of Mind , Matter and Morals) , by , Bertrand Russell , The Citadel Press , 1965 .
31 - (The Christian Centuries from Christ to Dante) , by , Robert Payne , W.W. Norton Company , Inc . 1966 .
32 - (The First Urban Christians) , by , Mayne A . Meeks , Yale University Press , 1983 .
33 - (The Analysis of Mind) , by , Bertrand Russelle . George Alen and Unwin Ltd ., 1971 .

الفهرس



دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع
حارة حريك - شارع دكاش - ص.ب: ٤٠ ٢٥ - برقياً: غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان